الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد المائة وأربعة وعشرون - السنة الحادية عشرة - مايو ٢٠٠٩ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 11 - Issue 124 - May 2009

أى شىء .. فى أى وقت ، فى أى مكان !!

الإعلام القادم

■ ما بعد الرأسمالية: هل علينا أن نبحث عن عالم جديد؟ ■ الشارع القاهري: نظام وفوضى .. وصراع سلطة ■ اسبوزيتو يكتب عن أوباما والإسلام ■ توفيق الشاوي: بين القانون والسياسة .. والكتب



السنة الحادية عشرة
العدد ١٢٤
مايو ٢٠٠٩

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- إبراهيم البيومى غانم.. رئيس قسم الرأى العام - المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية.
- أمارتيا سن.. أستاذ بجامعة هارفارد وحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد سنة ١٩٩٨
- أيمن الصياد.. صحفى.
- جون اسبوزيتو.. أستاذ الأديان والعلاقات الدولية بجامعة جورج تاون.
- حازم الببلاوى.. الأمين التنفيذى للجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا.
- حسام تمام.. باحث مصرى.
- ستيفن لاندسبيرج.. أستاذ الاقتصاد بجامعة روتشستر.
- السيد أمين شلبى.. سفير مصرى سابق - الرئيس التنفيذى للمجلس المصرى للشئون الخارجية.
- عبدالفتاح أبوالفضل.. الرئيس الأسبق لجهاز المخابرات المصرى.
- فكرى أندراوس.. كاتب مصرى مقيم بالولايات المتحدة.
- كريس هيدجز.. صحفى حائز على جائزة بوليتزر.
- مازن النجار.. باحث وأكاديمى فلسطينى.
- محمد شومان.. أستاذ الإعلام بجامعة عين شمس.
- مصطفى المنشاوى.. صحفى يعمل فى هيئة الاذاعة البريطانية.

رسوم العدد للفنان
محمد حجى

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

أى شــىء.. فــى أى وقت وفى أى مكـان

الإعلام القادم

أيمــــــن الصــــيـاد

■■ قد لا يكون عنوان هذا المقال دقيقا مائة فى المائة، فالذى نتوقعه أو يصفه بعضنا بأنه «قادم»، ربما يكون قد وصل فعلا. فضلا عن أنه من الحكمة حين ننظر إلى «قادم»، حتى وإن كان لا يزال طيفا فى الأفق، أن ندرك السرعة التى يتحرك بها. خاصة وقد صرنا فى زمن عرف أعشار الثانية، بل ويقيس أحيانا بأصغر من ذلك بكثير. ويكفى لكى نرصد السرعة التى نعنى، أن ينظر كل منا وراءه، إلى خبراته الخاصة، ليدرك كم ابتعدت المشاهد والرؤى، كأنما هى صفحات فى كتاب قديم.

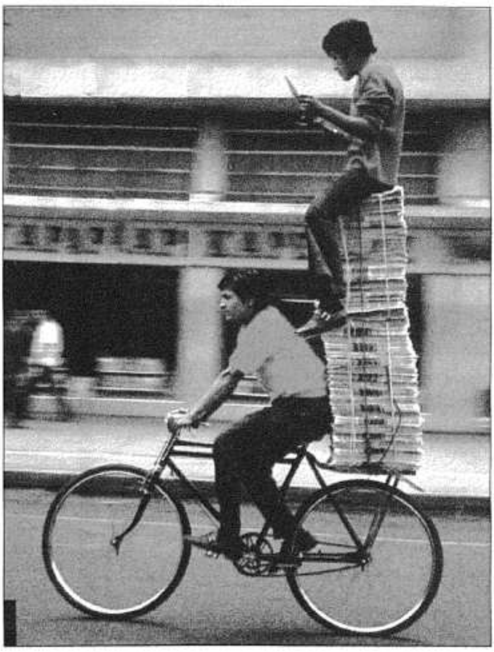
نحن مثلا من جيل ولد قبل أن يدخل التليفزيون مصر. وأذكر حين بدأ البث فى أوائل الستينيات أن التيار الكهربائى لم يكن قد دخل بلدتى الصغيرة بعد، وأن جهاز التليفزيون الوحيد الذى وصل إلى البلدة كان لابد لتشغيله من مولد كهربائى خاص يعمل بالبترول. فى هذه الأيام كان الاتصال الهاتفى حتى داخل المدينة ذاتها لا يتم الا عن طريق موظف البدالة .رغم ذلك كان أهل بلدتى محظوظين، لأن البريد كان يصلهم يـومـيـا .(هـل تـذكـرون فـيـلـم «البوسطجى»؟).

أتذكر هذه الأيام التى تبدو الآن وكأنها تنتمى إلى تاريخ بعيد، حينما أرى البث التليفزيونى المباشر على شاشة الهاتف «النقال»، أو حينما أهاتف ابنتى على الجانب الآخر من المتوسط فيصبح بإمكانى أن أرى صورتها فى «بث حى» على الشاشة، أو الأكثر من ذلك حينما يكون بإمكانى فى أى لحظة من الليل أو النهار أن أحدد «بكبسة زر» مكانها «بالضبط» على خريطة تفصيلية للبلدة التى تقيم فيها على بعد آلاف الأميال. وهل هى «الآن» فى فصلها الدراسى أم فى غرفتها، أم ذهبت لشراء حاجياتها من المتجر القريب؟

كم هو مدى التسارع إذن فى تقنيات الاتصال والتواصل المرتبطة بحياتنا؟

تقول الأرقام إن المذياع احتاج ثمانية وثلاثين عاماً حتى وصل عدد مستخدميه إلى خمسين مليون شخص، أما الفيس بوك FaceBook فقد تجاوز عدد مستخدميه نفس الرقم فى غضون عامين فقط.

يؤكد كريس باتن رئيس جامعة أكسفورد، فى أطروحة مهمة عن «تحديات المعرفة فى عصر جديد»، أن نصف ما يتعلمه الطالب الذى يدرس فى السنة الأولى من منهج تقنى مدته أربعة أعوام سوف يصبح عتيقاً حين يصل إلى السنة الثالثة من ذلك المنهج. ويذكرنى رضا خان مؤسس هاكيا ، والمتخصص فى الذكاء الاصطناعى ونظم المعلومات، حين التقيته قبل شهرين بحقيقة أنه فى المستقبل غير البعيد، سوف يتخرج الطلاب من المدارس الثانوية ربما دون أن يمسوا كتاباً واحداً. رغم أنه منذ عشرين عاماً كان بوسعهم أن يتخرجوا من المدرسة الثانوية دون استخدام الحاسوب الآلى على الإطلاق. مرة أخرى تقول الأرقام أنه قد بات بوسعنا اليوم أن نسجل على القرص الثابت لجهاز كمبيوتر محمول عدداً من الكتب يتجاوز ما تحتويه مكتبة تضم أكثر من ستين ألف عنوان. وأن عدد الصفحات على شبكة الإنترنت تجاوز الخمسمائة مليار، وهو ما يكفى لملء عشر من حاملات الطائرات الحديثة بعدد مماثل من الكتب ذات الخمسمائة صفحة. مشكلة أن نتوه فى ذلك الازدحام المعرفى فلا نجد مانبحث عنه بالضبط هو مايشغل خان ورفاقه حاليا الذين يحاولون تجاوز إخفاق الحلول «الخوارزمية» لجوجل وأمثاله بأبحاثهم فى «التكنولوجيا الدلالية».



أين هو الإعلام.. وأين هى الصحافة «التى عرفنا لعقود» فى هذا العالم الجديد؟

أمامى تقريران، والعديد من الأوراق المقدمة لمؤتمرات دولية ذات صلة.

نظرة على الإعلام العربى ٢٠٠٨-٢٠١٢
الإصدار الثانى
نادى دبى للصحافة
PricewaterhouseCoopers,PwC
مايو ٢٠٠٨

Trends in Newsrooms 2008
World Editors Forum,
World Association of Newspapers
Paris, France 2009

الخبر العاجل: للهاتف النقال.. والتغطية المباشرة: للتليفزيون، وكذلك الترفيه.. وستبقى للصحافة التقليدية المطبوعة الدراسات الرصينة والتحليل المتعمق

وفى المشهد الآنى خبران: الأول، قبل ثلاثة أشهر، عن إعلان Christian Science Monitor عن إيقاف طبعتها الورقية.

والثانى - عن وفد أمريكى لمساعدة العراقيين على استخدام «الإعلام الجديد»، كما جاء فى عنوان الخبر الذى بثته CNN قبل أسبوع فقط (فى الثانى والعشرين من أبريل). يضم الوفد عشرة من كبار المسؤولين فى كبرى شركات الإعلام الجديد من بينهم جاك دروسى مؤسس ورئيس شركة التدوين الموجز Twitter، فضلا عن مسؤولين فى جوجل و YouTube.

التقرير الأول «نظرة على الإعلام العربى ٢٠٠٩ - ٢٠١٢»، الصادر عن نادى دبى للصحافة، بالتعاون مع PricewaterhouseCoopers, PwC يرصد التطورات الحادثة فى العالم فى مجال الإعلام الرقمى، محاولا التعرف على التحديات أمام شركات الإعلام التقليدى من صحف وتليفزيونات ومحطات إذاعية، والآفاق الممكنة لفتح أسواق جديدة لمنتجى وموزعى المحتوى عبر آليات جديدة تأخذ فى اعتبارها إيصال هذا المحتوى عبر الأجهزة النقالة المرتبطة بالإنترنت إلى الجيل الجديد من المستهلكين الذين نشأوا مع الشبكة العنكبوتية، والذين يعتبرون الهواتف النقالة جزءاً أساسياً من حياتهم. أخذا فى الاعتبار أن هذا الجيل من المستهلكين ممن تتراوح أعمارهم بين ١٥-٢٥ يكتسب فى منطقتنا خصوصا أهمية متميزة بالنظر إلى التركيب الديموجرافى فى المنطقة.

كان الإصدار الأول من التقرير قد أشار إلى هيمنة القنوات التليفزيونية الفضائية فى عالمنا العربى «الشفاهى»، وإلى استمرار نمو الإعلام المقروء التقليدى رغم الضغوط التى تفرضها على نموه المستويات المرتفعة للأمية الأبجدية. إلا أنه أشار أيضا إلى القيمة الإعلامية للتطور السريع للجيل الثانى من خدمات الإنترنت المعروف باسم (Web 2.0)، بما فى ذلك الشبكات الاجتماعية ومواقع تبادل المحتوى، والتى تغذيها مختلف أشكال المحتوى المنتج من المستخدمين (UGC). وقد أسفرت هذه التطورات عن ظهور مواقع شبكية لتبادل المحتوى الإعلامى أمثال مواقع «فيسبوك» (facebook) و«مايسبيس» (MySpace) و«يوتيوب» (YouTube)، والتى باتت أسماء مألوفة فى كل بيت حول العالم، وتحدت النماذج التجارية الراسخة لتوفير المحتوى الإعلامى، والتى ظلت من دون منافس إلى حد كبير لمدة جيل كامل أو أكثر.

ويركز الإصدار الثانى للتقرير على كيفية قيام التكنولوجيا بما يسميه «تحرير القيمة» بالنسبة للإعلام الحديث والتقليدى على حد سواء، ملاحظا أنه قد أصبح بمقدور المستهلك أن يحصل على المحتوى «الذى يريد» فى «أى وقت» يشاء، وفى «أى مكان» يلائمه. وكيف سينتج هذا الواقع بالضرورة «إعلامه الجديد» الذى لابد له أن يبحث عن قنوات جديدة مبتكرة لتوليد الإيرادات وتخفيض تكاليف إنتاج وتوزيع المحتوى، فضلا عن آليات جديدة لحماية الملكية الفكرية والتعويض بالشكل المناسب على منتجى المحتوى الأصلى. (أمامى خبر عن شركة جديدة تكونت قبل أسبوع فقط لإيجاد آلية توفر للصحف الاستفادة من منصة iTunes)

يلاحظ التقرير كيف يقوم الجيل الحالى من المستهلكين عموما، والمراهقين والشباب بصفة خاصة، بإنتاج وتبادل المحتوى باستمرار، من خلال خدمات التراسل الفورى والمواقع الشبكية الاجتماعية وأجهزة الهاتف المحمول. ويذكرنا بأن صناعة الإعلام العالمية أدركت تلك المتغيرات مبكرا مما أدى عام ٢٠٠٧ إلى إبرام عدد من الصفقات الكبرى بما فيها قيام شركة جوجل (Google) بشراء موقع «يوتيوب» بقيمة ١.٦٥ مليار دولار أمريكى، والتزام شركة مايكروسوفت (Microsoft) بالإعلان فى موقع «فيسبوك» بقيمة ٢٥٠ مليون دولار أمريكى.

ويبدو أن شركات الاتصالات العالمية قد انتبهت بدورها إلى الآفاق الواسعة للجيل الثانى من الإنترنت فبادرت بتوسعة نطاق نماذجها التجارية لتشمل أكثر من مجرد خدمات التراسل الصوتى وبوابات شبكة الإنترنت، وتمتد إلى توزيع خدمات تليفزيونية مصورة عالية الوضوح (HD)، عبر بروتوكول الإنترنت التليفزيونى (IPTV). كما تبنت الشركات الإعلامية بصورة متزايدة «ويب ٢.٠» لإنتاج المحتوى وتوزيعه. كما تحالفت مع شركات الإعلام الجديدة ومنتجى الأجهزة الجدد، للخروج ببرامجها إلى نطاق أبعد من شاشات التليفزيون. ومع استمرار المستهلكين باستقصاء المحتوى (Snack) والمحافظة على حضور شبكى مستمر أكبر من سياق تعددية الوظائف (Multi-Task) بات على فعاليات القطاع التعامل مع قضية كيفية قياس وتحويل قيمة الحجم الهائل من المحتوى الذى يتم إنتاجه إلى عملية تجارية مربحة.

ماذا.. أين.. ومتى؟

«لكل حسب حاجته».

هل تذكرون الشعار الشيوعى القديم؟

نعلم جميعا أنه قد أصبح بإمكان كل منا الآن أن يطبع كل صباح صحيفته «الخاصة جدا». ويعتبر الخبراء أن أكثر ما اقتربت به الصحافة الجديدة من عرش الصحافة التقليدية، هو ابتكار تقنية «التوليف الذاتى» Customization والتى تمكن القارئ من توليف صحيفته اليومية الخاصة (حسب اهتماماته الشخصية) هكذا فعلت Google News وهكذا تبعتها Yahoo. وحتى الصحف التقليدية القديمة وجدت لنفسها أسلوبا مماثلا.

الأمر الثانى كان فى استحداث تقنيات دفع وسحب المحتويات RSS وATOM والتى تسمح بتوزيع المحتوى المنتج أتوماتيكيا على أساس اختيارى، حيث يمكن للمستخدم الاشتراك فى محتويات معينة مختارة من العديد من المواقع ومطالعتها بشكل أسهل من خلال قارئ مركزى واحد.

«ماذا؟»... أصبح بالإمكان إذن أن تصبح ملكا للقارئ وحده.

وليس بعيدا عن ذلك «فالمفهوم يبقى واحدا»، يلاحظ المتابع للتطور الحادث فى تداول المحتوى الإعلامى فى السنتين الأخيرتين، سلسلة من الخدمات الجديدة التى تشكل الحركية والانتقال عبر الزمن وفى المكان (time and place - shifting) العناصر الرئيسية لنموها. من ذلك الخدمات التى تسمح للمستهلكين بنقل الموسيقى عبر الزمان وفى المكان، ومشاهدة الأفلام السينمائية وبرامج التليفزيون. إذ كما نعرف وجربنا جميعا، تتيح لنا خدمات مثل iTunes تسجيل أو تحميل المحتوى على أجهزة الكمبيوتر الشخصية الخاصة بنا لاستهلاكها فى الزمان والمكان المناسبين.(بدأت شركة سونى تعرض مكتبة محتوياتها الضخمة للشراء من خلال منصة sony playstation 3.

وبشكل عام، يضم «الجيل الشبكى» كما يسميه التقرير مستهلكين شبانا ولدوا بعد عام ١٩٧٧ وترعرعوا بالتزامن مع نمو شبكة الإنترنت وانتشار الهاتف المحمول، والذى لابد للعاملين فى صناعة الإعلام من ملاحظته هو أن أعضاء الجيل الشبكى هؤلاء يتوقعون الحصول على خدمات تتيح لهم التحكم بأوقات وأماكن استهلاكهم للمحتوى. كما

«الإعلام الجديد» ليس هو «التدوين» ولا facebook كما قد يفهم البعض. فالمسألة أكبر من ذلك وأوسع بكثير

انهم راغبون فى الوقت ذاته (بل وقادرون أيضا) على إنتاج المحتوى الخاص بهم والذى أصبح بإمكانهم نشره وتوزيعه على أوسع نطاق (لا يحده زمان ولا مكان).

تقول الأرقام الخاصة بسلوك مستهلكى الإعلام اليوم، أنه فى الوقت الذى تقضى فيه الأسرة الأمريكية ٢٠ ساعة أسبوعياً فى مشاهدة التليفزيون، يستطيع أفراد الجيل الشبكى استهلاك ٢٠ ساعة من المحتوى الإعلامى كل يوم، يتم استهلاكه بالتوازى خلال فترة ٧ ساعات. (يتم تحميل فيلم سينمائى مثلا فى الوقت ذاته الذى تستمع فيه إلى أغانيك المفضلة على iTunes وتطالع فيه أيضا التقارير الإخبارية التى تهمك على Google News).

بحلول عام ٢٠٠٧، بات المستهلكون يستطيعون اصطحاب المحتوى إلى أى مكان ومشاهدته فى الأوقات التى تناسبهم، بفضل توافر تشكيلة كبيرة من الأجهزة المحمولة. إلا أن إمكانيات هذه الطريقة الاستهلاكية الجديدة - كما يشير التقرير - لم تُستغل بعد من قبل الإعلام التقليدى، وهى تمثل بالتالى فرصة هائلة لفعاليات هذا القطاع، عبر مواجهة تحديات تصميم المحتوى بحيث تلائم بيئة المشاهدة المتحركة.

بالتأكيد لايمكن إغفال الدور الذى يؤثر به مدى تطور البنى التحتية فى هذا المجال. (تذكرنا بذلك تقارير الأمم المتحدة بشأن «الفجوة الرقمية») وبالتالى يمكننا فهم التأخر الحادث نسبيا فى وصول «موجة الإعلام القادم» إلى بعض شواطئنا العربية. ورغم ذلك لابد لنا نحن أصحاب الشعر الأبيض الذين تعاملوا يوما مع مطابع الأحرف الرصاصية ألا نتجاهل حقيقة ظهور جيل من المستهلكين تربى على استخدام الشبكة لمشاهدة محتوياته المفضلة.

والحاصل أن هؤلاء المستهلكين، تدفعهم اعتبارات نمط حياتهم الجديد، يقومون بإعادة تعبئة المحتوى الذى يستقونه من القنوات التقليدية، وتحويله إلى محتوى رقمى مناسب لأنماط حياتهم، لكى يشاهدوه فى «أى وقت وأى مكان» يناسبهم. بل لابد من ملاحظة أن الأمر لم يعد حتى يحتاج إلى جهاز كمبيوتر على مكتب، أو حتى كمبيوتر محمول Laptop، بعد أن بدأت Apple الثورة الحقيقية فى مجال الإعلام الإلكترونى (الذى يصاحبك حيثما كنت) بجهازها العبقرى iPodTouch ثم الـ iPhone.

وكان ترقيم المحتويات على نطاق واسع قد أحدث ثورة فى كيفية حصول المستهلكين على مايرغبونه. ومع اكتشاف تقنية MP3 أصبحت أسماء مثل Windows Media Player وiTunes وReal Player واسعة الانتشار. كما انتشرت معها أجهزة MP3 Player والتى سرعان ماانتقلت عدواها إلى أجهزة الهاتف المحمول المزودة بالتقنية ذاتها.

ثم انتشرت برامج تبادل الملفات مثل Bit Torrent بين الأصدقاء أو حتى بين من لايعرفون بعضهم إلا من خلال «مجتمعات افتراضية» تلغى هى أيضا اعتبارات المكان. ورغم تحريك عدد من الدعاوى القضائية الشهيرة بحق مزودى خدمات الإنترنت والأفراد من قبل جمعية قطاع التسجيل الأمريكية وجمعية الأفلام السينمائية، إلا أن الشركات الكبرى تدرك أنه حتى القوانين «التقليدية» لايمكن لها أن تعيش فى عالم جديد، فاختارت أن تنحنى للعاصفة، وبدلا من إضاعة الوقت والجهد فى البحث المرهق عن «فأر مراوغ»، لا يمكن اصطياده، قررت أن تركز جهودها «الحقيقية» فى العمل على تلبية هذه الرغبة الجارفة للتحكم بمحتوى الإنترنت، حيث عملت على دمج برمجيات تحميل المحتوى وتبادله فى برامجها الأصلية مثلما فعلت مايكروسوفت.

لم تكن استجابة شركة البرمجيات العملاقة فريدة فى هذا المجال، فكثير من الشركات (تمسكا بالبقاء فى عالم متغير) غيرت من سلوكها الذى دام لعقود، وذلك بالبحث عن طرق جديدة لتوزيع إنتاجها على أن تكون مماثلة للطرق ذاتها التى يستخدمها المستهلك الشبكى. وذلك لمنافسة البرامج التبادلية أو المجانية.

وكان طبيعيا أن تخرج من السوق سريعا كل من تشبث بأساليبه القديمة لتوزيع المحتوى أيا ماكانت طبيعة مالديه، موسيقى أو أفلاما سينمائية، أو حتى أخبارا أو تقارير إخبارية.

تشير الوقائع والتى يعدد بعضها كلا التقريرين (الصادرين عن الاتحاد الدولى للصحف ونادى دبى للصحافة) إلى استجابات متنوعة لصحف ووسائل إعلام تقليدية للتعامل مع معطيات واقع جديد. فيعرض التقرير الأول لمفهوم غرفة الأخبار الجديدة The integrated newsroom' شارحا كيف طبقت التليجراف البريطانية المفهوم الجديد. ويعرض التقرير الثانى لتجربة الايكونوميست فى التعامل مع الوسائط المتعددة.



ويشير إلى كيف تحولت محطات الإذاعة بدورها إلى نقل محتوياتها عبر الزمان وفى المكان من خلال توفيرها شبكياً واستغلال تقنيات النشر المتزامن فى أكثر من مكان RSS: Real - Simple Syndication لإشعار المستمعين بوجود محتويات جاهزة للتحميل. وكيف مضت صحيفة الفاينانشال تايمز خطوة أبعد من ذلك، من خلال حضور شبكى فائق التطور يتيح للمستخدمين المتميزين حرية الحصول على مجموعة متنوعة من المحتوى الإعلامى الاقتصادى عالى القيمة، من خلال (mobile Clients).

يشار فى ذلك إلى تجربة هيئة الإذاعة البريطانية فى تقديم خدمة BBC iPlayer المتقدمة والتى تتيح للمشاهدين فى بريطانيا، تصفح محتويات إخبارية وترفيهية عالية الجودة مجاناً. كما يأتى فى هذا الإطار الشراكة بين شبكتى التليفزيون المتنافستين NBC Universal و Fox فى إنشاء Hulu.com

قطاع النشر أيضا لم يكن بعيدا عن كل مايجرى. فأمازون الشهيرة لم تكتف بأنها الرائدة فى تسويق الكتب على الإنترنت، بعد أن شعرت أن فى التطورات الجديدة ماقد يهدد عرشها، فطرحت قارئ الكتب الالكترونى Kindle (فعلت سونى الأمر ذاته بجهازها e-Book) وتلك الأجهزة تسمح بتحميل الكتب لاسلكيًا فور صدورها، بغض النظر عن موقع ناشرها فى هذا العالم الواسع، ومن ثم نقلها إلى شاشة عرض تسمح بالقراءة، لا يزيد حجمها على حجم كتاب جيب صغير. وفى عام ٢٠٠٨، طرحت شركة «بلاستيك لوجيك» (Plastic Logic) البريطانية الناشئة، شاشة كبيرة ورقيقة وخفيفة مع ميزة الحبر الإلكترونى (e-ink)، لتخزين وقراءة المستندات، تستطيع إعادة توزيع المستندات الورقية كما تتيح للمستخدمين وضع إشارات على الصفحات التى وصلوا إليها كما يحدث لدى مطالعتهم الكتب الحقيقية.

ويتوقع المتابعون للجديد فى مجال

أيـا مـا كـان الأمـر، سـتـبـقـى الـصـحـافـة، وسـيـبـقـى الـصـحـفـيـون، ولكـنـهـا سـتـصـبـح غيـر تـلـك التـى ألفنـاهـا لعقـود

الاتصالات أن يتم تفعيل خدمات «فى أى زمان، وأى مكان، عبر الأقمار الاصطناعية أيضاً، وخاصة فى المناطق التى لا تزال فيها البنى التحتية للاتصالات غير متطورة، لأسباب اقتصادية وجيو - سياسية. ومع تنامى الطلب على الخدمات المتحركة، تقوم شركات مثل Globalstar و O 3 B Networks المدعومة من قبل شركة جوجل، بتحديث التقنيات التى تستخدمها وبناء شبكات جديدة مرتبطة بالأقمار الاصطناعية، لتوفير الخدمات التى تحتاجها هذه الأسواق.

المواطن الصحفى

ظهيرة السابع من يوليو ٢٠٠٥ (بتوقيت الدوحة) كنت أجلس مع الصديق وضاح خنفر مدير عام قناة الجزيرة نتحدث فى الموضوع الذى كان جديدا وقتها «الإعلام الجديد» وكيفية تلبية حاجاته . يومها دخل علينا من يخبرنا بأمر التفجيرات التى استهدفت ثلاثة من قطارات مترو الأنفاق فى العاصمة البريطانية لندن، وحين طُلب منى أن أدخل فورا إلى الاستديو للتعليق المباشر على الحدث، كان أول مالفت انتباهى أن كل الصور التى جاءتنا للحدث التقطها مواطنون عاديون تصادف وجودهم فى مكانه. وعندما عدت إلى القاهرة التى كانت فى ذروة حراكها السياسى. (أو هكذا أمل الكثيرون) كان الهاتف النقال هو الوسيلة الأولى فى تصوير التظاهرات والتحرشات الأمنية، وكانت المدونات هى الوسيلة الأسرع والأكثر انتشارا (وحرية) فى نشر وقائع مايجرى «فى التو واللحظة»، وكان المدونون المصريون هم بحق «صحفيو المرحلة»، بعدها كان لافتا أن نجد الصحف المطبوعة والبرامج الإخبارية التليفزيونية تتابع أخبارا كان للمدونين وحدهم فضل الإعلان عنها أو بالتعبير المهنى «الإخبار» بها.... ثم جرت فى النهر مياه كثيرة.

أيا ماكان الأمر فإن إشكالية «المواطن الصحفى» احتلت مكانها المناسب فى تقرير Trends in Newsrooms الصادر عن «الاتحاد الدولى للصحف» وفيه ناقش محررو كبريات الصحف الآليات المختلفة للتعامل «بمهنية» مع ما أصبح يسمى على نطاق واسع citizen journalism وذلك من زوايا المصداقية والمهنية والتقاليد الصحفية المتعارف عليها ... وفى ذلك حديث يطول. التقرير أيضا مثله مثل التقرير الصادر فى دبى عرض لتجارب مهمة مثل تجربة NewAssignment.net، والاتفاق الذى جرى بين وكالة الأنباء العالمية Reuters مع شبكة التدوين العالمية Global Voices وكذلك تجربة iReport.com من CNN.

وبغض النظر عن الجوانب المختلفة لإشكالية المواطن الصحفى والتى تستوجب بالضرورة عناية مهنية خاصة، فإن الثابت أن نمو تطبيقات الجيل الثانى من الإنترنت مع بروز ثقافة استقصاء المحتويات والتنوع المتزايد للأجهزة المحمولة منخفضة التكاليف، سوف يعمل على تمكين الشريحة الكبرى من المستهلكين من التفاعل بطريقة تجعل من مستهلك المحتوى منتجاً له فى الوقت نفسه. هل جربتم Wikipedia؟ فى المستقبل، سوف يتسع نطاق هذا التفاعل إلى ما وراء حدود الإنترنت السلكية وإلى مجال الأجهزة المحمولة، نظراً لاستمرار تواصل المستخدمين مع بعضهم البعض فى سياق حياتهم اليومية. فعلى سبيل المثال تسمح صفحة Yahoo للمستخدمين بدمج الأخبار الواردة من محفظة الأسهم الخاصة بهم لدى شركة Bloomberg ومن ثم إعادة تخزينها فى برنامجهم المالى الشخصى بوساطة جهاز Quicken ومن الأمثلة الأخرى فى هذا المجال، الخدمات الخاصة بتحديد المواقع والتى تقوم على بيانات جرى إدخالها من جانب المستخدمين أنفسهم. ومن ثم يمكن لمن يرغب أن يعثر فورا على أقرب مطعم يقدم البيتسا مثلا، بل ويحدد مكانه والطريق إليه على خريطة تفصيلية تظهر له على هاتفه المحمول. بل ويمكن له أن يتابع فوريا «أخبار» الجالية العربية فى روما التى ينتمى إليها: من تزوج.. ومن توفاه الله.. ومن اعتقل صباح اليوم بشبهة انضمامه إلى جماعات إرهابية.

الثابت على أية حال، تتفق على ذلك مشاهداتنا اليومية مع كل التقارير والأوراق البحثية التى أمامى أننا شهدنا خلال الأعوام القليلة الماضية - وربما للمرة الأُولى فى تاريخ الإعلام الحديث - تحولُ مستهلكى المحتوى إلى منتجيه، بالتزامن مع تزايد سهولة تحميل ومشاركة المحتوى على أساس التدفق المتعدد الاتجاهات (many-to-many) للمحتوى الإعلامى، وذلك بفضل الشبكات الاجتماعية والتبادلات الإعلامية. وأدى الانتشار الكثيف لهذا المحتوى تدريجيا إلى تحويل نسبة متزايدة من المشاهدين، بعيداً عن قنوات المحتوى التقليدية. اسألوا أبناءكم كم من الوقت يقضونه مع facebook أو YouTube.



والثابت أيضا - والذى يشير إليه التقريران - أن إبداع المحتوى لم يكن أسهل مما هو عليه الآن. فقد أحدث الانتشار الكبير للكاميرات الرقمية وكاميرات الفيديو عالية الوضوح وإمكانيات الاتصال المستمر بالانترنت، سلكيا ولاسلكيا، ثورة فى المحتوى الرقمى الذى يوفره المستهلكون، أو بالأحرى الذين كانوا حتى سنوات قريبة مضت «مستهلكين/ متلقين» وفقط..

وإضافة إلى ما توفره أجهزة الهاتف المحمولة، يمتلك المستهلكون تشكيلة كبيرة من الأجهزة التى تتيح إبداع محتويات سمعية - بصرية للنشر عبر الشبكة.. ويقوم عدد من كبار منتجى الأجهزة المحمولة يدوياً أمثال سونى إريكسون ونوكيا، بتثبيت البرمجيات داخل أجهزتهم بهدف تسهيل أنشطة التدوين التى يقوم بها مستخدم أجهزة الهاتف المحمول، دون الحاجة إلى جهاز الكمبيوتر الشخصى.

نحن اذن أمام إعلام جديد - ربما بالتعريف أيضا - فرغم أن مايقدمه من محتوى، يتاح فوريا بحكم التقنيات الجديدة لكل قاطنى المعمورة، إلا أنه بعكس الإعلام التقليدى - تعريفا - يستهدف «أفراد الجمهور» مدركا خصوصية كل منهم وفرديته، وهو فى هذا يختلف بالضرورة عن ذلك الإعلام الجماهيرى Mass Communication الذى عرفناه تقليديا لعقود طويلة.

الإعـــلانـــات

يعلم كل العارفين بصناعة الإعلام، أن إيراد الإعلانات يمثل الدخل الرئيس الذى يضمن لوسيلة إعلامية ما الاستمرار، فى عالم تحول فيه كل نشاط إلى صناعة، تحكمها بحكم التعريف قوانين السوق. والحاصل أن التقنيات الجديدة للإعلام بما توفره من آليات دقيقة لتتبع المتلقين/ المستهلكين، غيرت جذريا من الاستراتيجيات الإعلانية التى استمرت راسخة لعقود. إذ تبين لأخصائيى

الإعلانات، الذين هم فى النهاية الداعم الرئيس لوسائل الإعلام على اختلاف طبيعتها: مطبوعة أو مسموعة أو مرئية، قيمة ماتوفره الشبكات الاجتماعية على الإنترنت من بيانات نفسية وسلوكية يمكن استخدامها فى تحسين دقة الاستهداف الإعلانى. وهو الأمر الذى بات الأهم عند أى معلن أخذا فى الاعتبار التشوش والازدحام والتزايد المطرد للوسائل الإعلانية المتاحة أمامه. وبعد أن باتت مواقع الشبكات الاجتماعية أكثر تكاملاً بصورة متزايدة، بفضل برامج مثل Twitter التى تقوم بتحديث مكانة المستخدم عبر العديد من المواقع والمنصات فى الوقت نفسه. تشير الأرقام الواردة فى الدراسة العالمية للآفاق الترفيهية والإعلامية ٢٠٠٨ ـ ٢٠١٢ الصادرة عن شركة PricewaterhouseCoopers إلى نمو الإنفاق الإعلانى العالمى عبر الإنترنت عام ٢٠٠٧ بنسبة ٢. ٣٣٪ ليسجل بذلك رابع سنة متوالية من النمو بمعدلات تفوق ٣٠٪، لتشكل أكثر من ١٠٪ من إجمالى الإنفاق الإعلانى العالمى. وربما كان أحدث توجه تكنولوجى هو أهم تلك التوجهات، ويتمثل فى استخدام بيانات عنونة الصفحات الإلكترونية وتطوير محركات التوصيات لتسهيل تبادل ومشاركة المحتوى المنتج من المستخدمين وتسليم الإعلانات. إذ تقوم مواقع شبكية ناجحة مثل «ميتاكريتيك» metacritic.com بسحب البيانات المعنونة من تشكيلة متنوعة من المواقع الشبكية، بهدف تجميع إحصائيات حول المحتويات المصنفة.

وكما يشير المتخصصون فى تقرير نادى دبى الذى يولى أهمية كبيرة لسوق الإعلان الإعلامى: توفر العنونة لمحركات الفهرسة والتوصيات، القدرة على تكوين قوائم شخصية للمحتويات الترفيهية أو المنتجات الخاصة بشخصية معينة. كما تستطيع تلك المحركات تنظيم المحتوى لتوفير البيانات النفسية والسلوكية، بهدف استخدامها فى الإعلانات التى تستهدف شرائح معينة من المستهلكين.

ومع طرح تطبيقات موقع «فيسبوك» تحولت الشبكات الاجتماعية من مجرد كونها وسيلة ممتعة للتواصل مع الأهل والأصدقاء، إلى قاعدة بيانات نفسية وسلوكية هائلة. وهكذا يتم إنتاج تطبيقات إفرادية لقياس سلوك المستهلكين فى مجموعة اجتماعية معينة، ليتم بعد ذلك استخدام النتائج فى توجيه الإعلانات نحو الشرائح المستهدفة بشكل أكثر دقة. ويتم بعد ذلك جمع البيانات النفسية والسلوكية مع تاريخ تصفح المستخدم للمواقع الشبكية وتطور ذلك الاستخدام، للحصول على فكرة متعمقة عن سلوك المستهلك.

وتساهم البيانات النفسية والسلوكية فى تحسين توجيه الإعلانات نحو الشرائح المستهدفة، من خلال تحديد البيانات السلوكية فى إطار مجموعة اجتماعية معينة أو عبر تشكيلة متكاملة من الشبكات الاجتماعية. ويتم تحديد مسارات التصفح الشبكى خلال تنقل المستهلكين بين مختلف المواقع الشبكية، ويتم تفعيل ملفات «كوكيز» التى تحتوى على البيانات الشخصية للمتصفح بهدف الاطلاع على بيانات اخر تصفح شبكى قام به. ثم يتم بعد ذلك استخدام أساليب متطورة لرصد سلوك المستهلكين، بهدف توقع الإعلانات الأنسب أو حتى المواقع الشبكية الأكثر ملاءمة لكل مستهلك خلال تصفحه الشبكى. (لعل أصحاب الحسابات البريدية على جوجل، أو المشترين للكتب من أمازون قد لاحظوا ذلك).

ويعتبر المحتوى المنتج من المستخدمين ـ كما يشير التقرير ـ من أهم الوسائل التى تتيح للمعلنين الحصول على البيانات وتحويل تلك الأسواق التخصصية إلى عائدات إعلانية. ومع اشتداد المعركة من أجل استقطاب الاهتمام المحدود، بات التوظيف الذكى للإعلانات محورياً فى سياق الاستفادة من التأثيرات الشبكية للشبكات الاجتماعية، وسيكون المحتوى المنتج من المستخدمين مفتاح تطوير تفاعل أكثر تأثيراً مع المستهلكين وتوفير نتائج أفضل لمشترى الإعلانات. ولا تقوم الشركات بتحسين خوارزميات، استهدافها الإعلانى بشكل أكثر جراة على الصعيد الأفقى مثل إعلانات الشامبو فحسب، ولكنها تعظم النتائج على مستوى عمودى محدد مثل إعلانات الصحة والرشاقة الخاصة بالنساء.

الخلاصة إذن والتى يركز عليها تقرير نادى دبى أن المعلنين ومنتجى المحتوى يعملون بشكل متزايد مع شبكات الإعلان عبر الإنترنت، بغرض استهداف المستهلكين وتجميع بيانات عنهم. وقد شهدت تكنولوجيا الاستهداف الإعلانى تحسناً مستمراً، بلغ درجة دفعت إلى تخصيص نسبة متزايدة بسرعة من الإنفاق الإعلانى وتوجيهها لشراء مخزونات بحث وعرض عبر الشبكة. ويوضح النزاع الأخير بين اتحاد الكتاب واستديوهات التليفزيون والسينما فى الولايات المتحدة الأمريكية، مدى ضخامة النسبة المتزايدة من الإيرادات التى يتم تحقيقها عبر قنوات التوزيع الرقمية والتهافت على تلك الإيرادات.



وبـــــعـــــد ..

فى حين تؤكد التقارير والأبحاث الغربية على تسارع خطى الإعلام الجديد، وعلى أن الإعلام التقليدى يواجه «تهديدا حقيقيا» يبدو التقرير الصادر فى دبى، أكثر حذرا فى تلك المسألة مشيرا إلى أن «المحتويات التى انتجها محترفون لا تزال متميزة بشكل واضح عن تلك التى ينتجها الهواة، ومثلما نستطيع تمييز أداء الممثلين المحترفين عن أداء الممثلين الهواة، يفضل الكتاب الجيدون الأمان الذى يوفره العمل لمصلحة دار نشر كبرى. كما يتميز إنتاج المحتويات الصورية عالية الوضوح بالصعوبة البالغة لتصويرها، ويحتاج إلى وقت طويل فى المراحل التحضيرية ما بعد الإنتاج. ولا تزال الحاجة إلى ذلك الجيش من المصورين وفنيى الإضاءة وخبراء الماكياج الذين يعملون فى قطاع الإعلام التقليدى، قائمة لتوفير القيم الإنتاجية العالية مثل الجودة المهنية المستمرة للصوت والصورة، التى طالما تمتع بها المستهلكون.

ويمتلك الإعلام التقليدى الاستقرار المالى والتشغيلى الضروريين لاستخدام التقنيات والموارد العريقة وضمان الجودة الدائمة باستمرار. وربما كان ذلك يشكل أكبر مصدر قوة لجميع أجهزة الإعلام المحترفة».

ويشير التقرير إلى أنه «رغم انتشار التدوين، فستبقى هناك حاجة إلى معلومات ذات مصداقية من مصادر موثوقة وقادرة على التفوق. وهو الأمر الذى يتوافر للمؤسسات الإخبارية التى تمتلك موارد كبيرة للتدقيق فى الوقائع، وهى موارد لا يمتلكها المدونون، إضافة إلى ذلك، لا يلتزم المدونون

مؤسسات إعلامية كبرى وعريقة استوعبت وتكيفت مع تقنيات جديدة وقوانين جديدة لإعلام جديد

بنفس المعايير المهنية التى يلتزم بها الصحفيون، ولا يتعرضون إلى مخالفات عقابا على حمايتهم لمصادرهم الإخبارية أو لوقوعهم فى أخطاء فى سياق نقل الأخبار.

والواقع أن ذلك كله قد يكون صحيحا، ولكن يبقى صحيحا أيضا أن «الإعلام الجديد» ليس هو «التدوين» ولا facebook كما قد يفهم البعض (يبدو أن بعض منابر الاعلام العربية التقليدية اعتقدت ذلك). فالمسألة أكبر من ذلك وأوسع بكثير. كما أنه يبقى صحيحا وضروريا أيضا أن لاننظر إلى الأمر من منظور يفترض بالضرورة وجود استقطابين/ بديلين تجرى المقارنة بينهما. ففى الحياة الواقعية كما فى تاريخ التطور كله، واسألوا «داروين» تكون التأثيرات المتبادلة حتمية. ويبقى من «القديم» من ينجح فى استيعاب «الجديد» حقائق حياة وآفاق مستقبل.

....

....

فى الواقع.. تبقى حقيقة أن موقعى YouTube و MySpace نجحا فى جذب أسماء كبيرة فى الإعلام التقليدى مثل CNN والجزيرة للتعامل معها، جنبا إلى جانب المستخدمين العاديين.

وفى الواقع.. تبقى حقيقة أن الاستخدام الواعى للانترنت من جانب باراك أوباما/ وجه أمريكا الجديد كان أحد عوامل نجاحه. وأن عضو مجلس النواب الأمريكى جون كولبرسون، أثار جدلاً كبيراً بسبب استعماله خدمات شبكة Twitter، بهدف نشر رسائل قصيرة وتعليقات واستعمال برامج شركة «كويك» لبث ملفات فيديو حية من قاعة البرلمان.

وفى الواقع.. أن وزارة الخارجية الأمريكية، حسب مانشرته الواشنطن بوست قبل حوالى العام، خصصت فريقا دبلوماسيا لمتابعة المدونات العربية «ذات النفوذ» والتعليق على ماتنشره.

وفى الواقع أن مشهد إعدام الرئيس العراقى صدام حسين لم يعرض «كاملا» إلا على الـ YouTube وأن تصوير المشهد ذاته (والملاحظة تبقى ذات صلة) جرى بواسطة «هاتف محمول».

وبالأرقام أن عدد مستخدمى facebook يتجاوز الخمسين مليونا، وأن عدد الذين شاهدوا خلال ساعة واحدة على YouTube الصحفى العراقى منتظر الزيدى يلقى بحذائه فى وجه جورج بوش بلغ ٣٦٠ ألفا. وأن عدد الذين شاهدوا اللقاء الأخير بين الشيخ محمد متولى الشعراوى والرئيس مبارك - على الموقع ذاته - اقترب من نصف المليون.

ثم يبقى بعد كل ذلك، وربما قبله، أن مؤسسات إعلامية كبرى مثل AP وCNN وBBC وNBC وTime Magazine والجارديان البريطانية العريقة قد استوعبت وتكيفت مع تقنيات جديدة وقوانين جديدة لإعلام جديد يقوم على ثلاثية لا مناص منها. أى شىء .. فى أى وقت .. وفى أى مكان.

وفى تفصيل هذا حديث يطول.

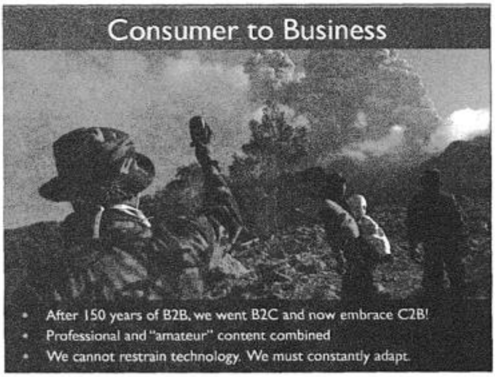
Who Killed the Newspaper?

العبارة «الصادمة» كانت موضوعا لغلاف مجلة الإيكونوميست التى نشرت تقريرا «اقتصاديا» قبل سنوات ثلاث رصدت فيه بالأرقام انخفاضا مطردا فى توزيع الصحف «الورقية» الصادرة فى أوروبا الغربية والأمريكتين وإستراليا، ورغم حقيقة أن تقارير «إحصائية» عديدة صدرت فى الأعوام الأخيرة تؤكد أرقام الإيكونوميست، وتذهب إلى ماذهب إليه محرروها، إلا أن ماغاب ربما عن «الإحصائيين» وأرقامهم، هو عن أى صحافة يتحدثون. مرة أخرى عودوا إلى قوانين التطور الباقية منذ الأزل، واسألوا «داروين» الذى لم يقل أبدا إن كل الكائنات مصيرها الانقراض «فقط تلك التى لم تتكيف مع حقائق جديدة لواقع جديد». ثم أرجوكم ارجعوا إلى التقرير السنوى الصادر عن المنظمة الدولية للصحف والذى يرصد «سنويا» الاتجاهات المستقبلية لتحرير الصحف. وهو يشير مثلا بوضوح إلى أنه رغم التراجع فى توزيع الصحف «الورقية» السيارة، فإن الأمر يختلف كليا مع المطبوعات التحليلية المتعمقة مثل الدوريات الأكاديمية، أو تلك التى تقترب منها مثل الأمريكية الرصينة: The New York Review of Books

ولعلكم تسمحون لى - بالقياس - أن أضيف تلك المطبوعة التى بين أيديكم: «وجهات نظر». ■

تجـربة Reuters





B2B: business-to-business, denoting trade conducted via the Internet-between businesses.

B2C: business-to-consumer, denoting trade conducted via the Internet between businesses and consumers.

C2B: Consumer-to-business is an electronic commerce business model in which consumers (individuals) offer products and services to companies and the companies pay them. This business model is a complete reversal of traditional business model where companies offer goods and services to consumers.

المصـدر:

NEWS ONLINE
Monique Villa
Reuters
Feb. 2007

هـل علينـا أن نـبحـث عـن «عـالم جـديـد»..

أمـارتـيـا سـن
Amartya Sen

[١]

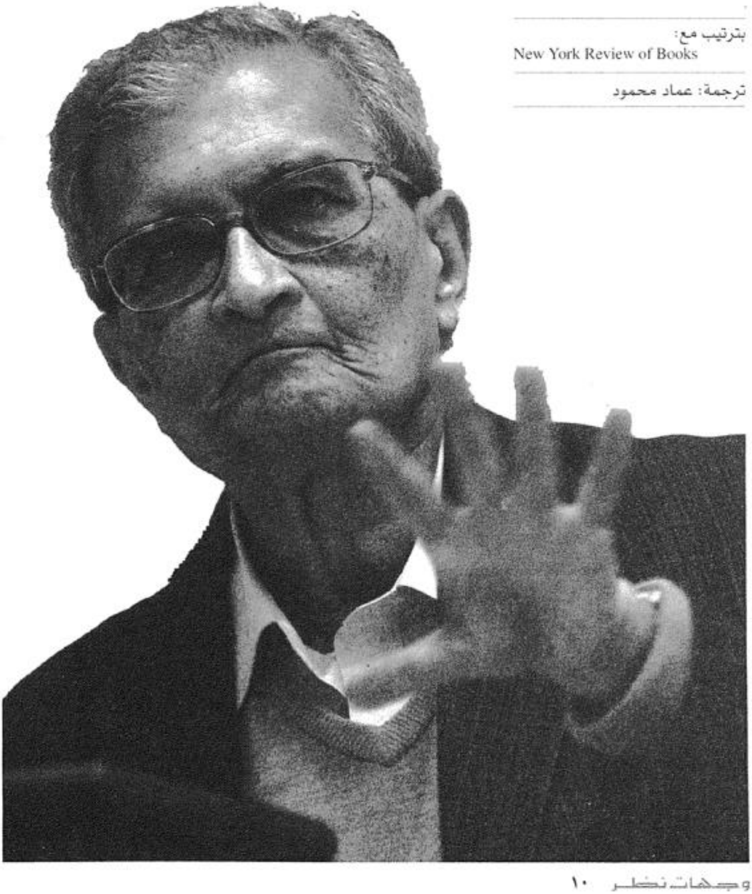
■■ كان عام ٢٠٠٨ عاماً حافلاً بالأزمات، أولاً كانت هناك أزمة الغذاء التى هددت الفقراء من المستهلكين وخاصة فى أفريقيا. تزامن ذلك مع الزيادة القياسية فى أسعار النفط التى هددت جميع البلدان المستوردة للنفط. وأخيراً، وتحديداً فى الخريف، جاءت أزمة الكساد الاقتصادى العالمى التى تتسارع الآن بصورة مرعبة. من المحتمل أن ٢٠٠٩ سيزيد أزمة الكساد العالمى حدة، كما يتوقع الكثير من الاقتصاديين حالة من الكساد الشامل فى قوة وضخامة ما واجه العالم فى الثلاثينيات من القرن العشرين. وفى الوقت الذى عانت فيه الثروات الضخمة حالات تدهور حادة، فإن أكثر المتأثرين بها من كانوا يعانون حالة اقتصادية مزرية بالفعل.

السؤال الذى يطرح نفسه بقوة الآن يدور حول طبيعة الرأسمالية وما إذا كانت بحاجة إلى التغيير. يقاوم بعض المدافعين عن الرأسمالية غير المقيدة التغيير لاقتناعهم بأن الرأسمالية تتعرض كثيراً للوم بسبب مشكلات اقتصادية قصيرة الأمد. مشكلات تُعزى إما إلى سوء الحكم (على سبيل المثال سوء الحكم بإدارة بوش) أو السلوك السيئ لبعض الأفراد (أو كما وصفه جون ماكين أثناء حملته الانتخابية الرئاسية بـ «جشع وول ستريت»). لكن البعض الآخر يرون عيوباً حقيقية فى الأنظمة الاقتصادية الحالية ويريدون إصلاحها، ويسعون وراء منظور بديل يطلق عليه «الرأسمالية الجديدة».

لعبت فكرة الرأسمالية القديمة والجديدة دوراً شيقاً فى ندوة «عالم جديد، رأسمالية جديدة» التى عقدت فى باريس يناير الماضى باستضافة الرئيس الفرنسى نيكولاس ساركوزى ورئيس الوزراء البريطانى السابق تونى بلير، وألقى الأخيران خطباً بليغة عن الحاجة للتغيير. كما تحدثت المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل عن الفكرة الألمانية القديمة «السوق الاجتماعية» - الفكرة التى قيدها مزيج من سياسات الحصول على إجماع الأصوات - كنسخة محتملة للرأسمالية الجديدة (رغم أن ألمانيا لم تبلى بلاء حسناً بشكل أفضل فى الأزمة الأخيرة من اقتصاديات السوق الأخرى).

من الجلى أننا بحاجة إلى أفكار حول تغيير تنظيم المجتمع على المدى البعيد، وذلك بغض النظر عن استراتيجيات التعامل مع الأزمة الراهنة. ما أود أن أقوم به، هو فصل وإبراز ثلاثة أسئلة من بين الأسئلة الكثيرة التى يمكن أن تثار. أولاً، هل نحن حقاً بحاجة إلى نوع من «الرأسمالية الجديدة» بدلاً من نظام اقتصادى غير موحد مبنى على مجموعة من المؤسسات المنتقاة بشكل عملى، ومستند إلى القيم الاجتماعية التى يمكننا الدفاع عنها بشكل أخلاقى؟ وهل علينا أن نبحث عن رأسمالية جديدة أو «عالم جديد» - بحسب التعبير الآخر المذكور فى اجتماع باريس - يأخذ شكلاً مختلفاً؟

يتعلق السؤال الثانى بنوع الاقتصاد الذى نحتاج له اليوم، خاصة فى ضوء الأزمة الاقتصادية الحالية. كيف يمكننا تقييم ما تعلمناه من أساتذة الاقتصاد والأكاديميين كمرشد للسياسة



بترتيب مع:
New York Review of Books

ترجمة: عماد محمود

وهل يجب أن نقول كفى؟!

ما بعد الأزمة
الرأسمالية

الاقتصادية بما فى ذلك إحياء سياسة كينز خلال الشهور الأخيرة بعدما بدأت الأزمة فى النمو بعنف. ولكن أكثر تحديداً، بماذا تخبرنا الأزمة الاقتصادية الحالية عن المؤسسات والأولويات التى يجب أن نبحث عنها. ثالثاً، بالإضافة إلى المضى فى طريقنا لنصل إلى أفضل تقييم للتغييرات التى نحتاج إليها على المدى الطويل، علينا أن نفكر بل ونفكر بسرعة حول كيفية الخروج من الأزمة الحالية بأقل الخسائر المحتملة.

[٢]

ما هى السمات والخصائص التى تجعل من أى نظام رأسمالياً بشكل يقينى سواء قديماً أو حديثاً؟ إذا ما كان النظام الاقتصادى الرأسمالى الحالى سيصلح، ما الذى يجعل النتيجة النهائية هى الرأسمالية الجديدة، بدلاً من أى نظام آخر؟ يبدو أن هناك فرضية عامة تؤكد أنه من الضرورى الاعتماد على الأسواق للصفقات الاقتصادية كشرط أساسى لاقتصاد يطلق عليه رأسمالى. على نحو مماثل، يعتبر حافز الربح ومكافآت الفرد بناء على الملكية الخاصة ترى كمميزات نموذجية أصيلة للرأسمالية. على أية حال، إذا كانت هذه هى المتطلبات الضرورية، هل تعتبر الأنظمة الاقتصادية الحالية، على سبيل المثال، المطبقة فى أوروبا وأمريكا، حقاً رأسمالية؟

كل البلدان الغنية فى العالم تلك التى فى أوروبا، والولايات المتحدة، وكندا، واليابان، وسنغافورة، وكوريا الجنوبية، واستراليا، وآخرون اعتمدوا جزئياً لفترات طويلة على الصفقات الاقتصادية والمكافآت الأخرى التى تحدث بشكل كبير خارج الأسواق. ويشمل هذا معونات البطالة، ورواتب التقاعد، ومميزات أخرى من الضمان الاجتماعى، وبند التعليم، والرعاية الصحية، مجموعة منوعة من الخدمات الأخرى توزع من خلال ترتيبات بعيدة عن السوق. لا تعتمد هذه الخدمات المرتبطة بالتأهيلات الاقتصادية على الملكية الخاصة وحقوق الملكية.

كما لم يعتمد اقتصاد السوق ليظل قائماً على تحقيق أقصى ربح ممكن ولكنه اعتمد أيضاً على العديد من النشاطات الأخرى، مثل الحفاظ على الأمن العام وتقديم خدمات جماهيرية بعضها أعان الناس بالفعل بغض النظر عن كونها صادرة عن اقتصاد يحركه عامل الربح. إن الأداء الموثوق به لما يعرف بالنظام الرأسمالى، عندما تحسنت الأمور، اعتمد على مجموعة من المؤسسات التى تمول علناً التعليم، والرعاية الصحية، ومشاريع النقل الجماعى وذلك على سبيل المثال لا الحصر، والتى ابتعدت تماماً عن اقتصاد سوق قائم على أقصى ربح ممكن وعلى التأهيل الشخصى المنحصر فى الملكية الخاصة.

يقع تحت سقف هذه القضية سؤال أساسى: إذا كانت الرأسمالية مجرد تعبير له استخدامه المحدد اليوم، فإن فكرة الرأسمالية فى الحقيقة لها دور هام وحيوى من الناحية التاريخية، ولكن على ما يبدو أن هذه الميزة أو الفائدة يمكن استغلالها الآن باعتدال وحكمة.

فعلى سبيل المثال، لقد أوضحت الأعمال الرائدة لآدم سميث فى القرن الثامن عشر فائدة وديناميكية اقتصاد السوق، ولماذا وتحديداً كيف عملت هذه الديناميكية. لقد أضاف تحقيق سميث تشخيصاً مضيئاً لأعمال السوق عندما ظهرت هذه الديناميكية بقوة. تعد المساهمة والإضافة التى أضافها ثروة الأمم، والذى نشر عام ١٧٧٦ لفهم أعمق لما يدعى بالرأسمالية فى غاية الأهمية.

لقد وضح سميث كم هى مفيدة فكرة تحرير السوق والتى تساعد بشكل كبير فى أغلب الأحيان على دعم وخلق حالة من الانتعاش والرخاء الاقتصادى من خلال التخصص فى الإنتاج وتقسيم العمل وفى حسن استغلال الاقتصاديات واسعة النطاق.

وتبقى تلك الدروس وثيقة الصلة بعالم واقتصاد اليوم (ومن المثير أن العمل التحليلى الرائع والمتطور للغاية عن التجارة الدولية والذى نال من أجله بول كروجمان جائزة نوبل فى الاقتصاد مرتبط بشكل وثيق بتنبؤات سميث بعيدة المدى منذ أكثر من ٢٣٠ عاماً مضت). كما أن التحليلات الاقتصادية التى تلت تلك الشروح المبكرة للأسواق واستخدام رأس المال فى القرن الثامن عشر نجحت فى تأسيس وإنشاء نظام قوى وصلب للسوق فى ظل الاقتصاديات الرأسمالية السائدة.

على الرغم من ذلك، ومع وضوح المساهمات الإيجابية للرأسمالية خلال عمليات السوق والتى تم شرحها وتوضيحها، إلا أن الجوانب السلبية قد أصبحت أيضاً واضحة جلية فى أغلب الأحيان بالنسبة للمحللين ذاتهم. بينما أخذ عدد من النقاد الاشتراكيين، وبشكل خاص كارل ماركس، فى إثبات أحقية اللوم بشكل كبير على الرأسمالية ومن ثم وفى النهاية وجوب استئصالها. ولقد كانت المعوقات الكبيرة للاعتماد كلياً فى السوق على اقتصاد يدفعه الربح واضحة منذ البداية حتى لآدم سميث. فى الحقيقة، لم يتخذ المدافعون الأوائل لاستغلال السوق، بمن فيهم سميث، آلية السوق البحتة لكى تكون العامل الوحيد للتفوق، كما لم يقروا بأن عامل الربح هو كل ما نحن بحاجة إليه.

وعلى الرغم من أن الناس يقومون بالعمليات التجارية بهدف المنفعة الشخصية (لا يسعون لشىء أكثر من المنفعة الشخصية، كما أوضح سميث بطريقته الشهيرة، مبيناً لماذا يسعى الخبازون، وصانعو الخمور، والجزارون، والمستهلكون للتجارة)، فعلى الرغم من ذلك يمكن للاقتصاد عملياً أن يقوم على عامل الثقة بين الأطراف المختلفة، فعندما تحقق الأنشطة التجارية، بما فى ذلك البنوك والمؤسسات المالية الأخرى، الثقة التى يتعهدون بها والتى يسعون لكسبها، فإن العلاقة بين الدائن والمدين يمكن أن تسير على نحو مشجع بصورة متبادلة، كما كتب سميث:

«عندما يثق الناس فى أى بلد محدد فى الثروة والأمانة والتعقل لمصرف معين إيماناً بأنه مستعد دائماً للسداد بناء على طلب أوراقه النقدية المتعهدة كما يمكن أن تقدم إليه فى أى وقت، على أن تكون هذه الأوراق النقدية من نفس العملة كالعملات الذهبية والفضية مما يمكن أن يكون فى أى وقت كان عندها لهم.» (١)

قام سميث بشرح لماذا قد لا يحدث ذلك فى بعض الأحيان، وهو ما قد نجده محيراً للغاية، ولذا فإننى أقترح، ومع الصعوبات التى يواجهها عالم الأعمال التجارية والبنوك فإننا نشكر الخوف وسوء الظن اللذين انتشرا وأبقيا على أسواق الائتمان فى حالة تجمد ومنعا نسق توسع الائتمان.

ولأن الشىء بالشىء يذكر، وخاصة منذ أن ظهرت «دولة السعادة» بفترة طويلة بعد سميث، والذى حاول فى كتاباته المختلفة، التعبير عن قلقه الشديد وقلقه حول المصير السيئ للفقراء والمتضررين بشكل واضح للغاية، يكمن الإفلاس الفورى لآليات السوق فى الأشياء التى يتركها السوق بدون أن تتم وتنجز. نجح تحليل سميث فى ترك كل الأشياء تقريباً

إن الأزمات الاقتصادية الحالية، على ما اعتقد، لن تدعو إلى «رأسمالية جديدة» ولكنها تنادى بفهم جديد للأفكار القديمة كتلك التى قدمها سميث

إلى اليد الخفية لآلية السوق. إنه لم يكن فقط من المدافعين عن دور الدولة فى تقديم الخدمات العامة، مثل التعليم وإعانة الفقراء (سوية مع طلب حرية أكبر للفقراء والذين حصلوا على الدعم من قوانين الفقراء والذى تم تقديمه فى يومه)، ولكنه كان منشغلاً أيضاً بعدم المساواة والفقر اللذين يمكن أن يبقيا فى اقتصاد سوق ناجح عادة.

إن الافتقار إلى الوضوح فيما يخص الفرق بين الضرورة وكفاية السوق كان له دور كبير فى حدوث نوع من سوء الفهم لتقييم سميث لآلية السوق من قبل الكثير ممن يدعون أنهم أتباعه. فعلى سبيل المثال، تمت ترجمة دفاع سميث عن سوق الغذاء ونقده للقيود التى تضعها الدولة على التجارة الخاصة بحبوب الغذاء فى أغلب الأحيان على أنها مجادلة لإثبات أن التدخل الحكومى قد يزيد الجوعى جوعاً ويجعل المجاعة أكثر سوءاً.

لكن دفاع سميث عن التجارة الخاصة أخذ شكل معارضة الاعتقاد بأن إيقاف المتاجرة فى الغذاء يخفف من عبء الجوع. ولكن هذا لا ينكر بأى حال من الأحوال الحاجة إلى دور الدولة فى خلق فرص عمل جديدة وتوفير دخول (من خلال برامج العمل على سبيل المثال). وإذا ما كانت البطالة سوف تشكر بشدة الظروف الاقتصادية السيئة أو السياسة العامة غير الحكيمة، فإن رد فعل السوق لن يكون مماثلاً، فإنه وحده، قادر على إعادة خلق موارد دخل لأولئك الذين فقدوا وظائفهم. كتب سميث عمن فقد عمله لتوه: «إما أن يتضور جوعاً وإما أن يبحث عن البقاء من خلال الاستجداء أو فعل أعمال شنعاء وسوف يسود فوراً الشعور بالحاجة والمجاعة والفناء»[٢]. يرفض سميث التدخلات التى تستثنى السوق ولكنه لا يعنى التدخلات التى تتضمن السوق بينما تستهدف إنجاز الأشياء التى تركها السوق بدون تحقيق نتيجة.

لم يستخدم سميث تعبير «رأسمالية» (على الأقل فيما أمكننى تتبعه) ولكن من الصعب أن نجزم بأن أعماله لم تحتو على نظرية تدافع عن احتياج السوق للقوى المتعارضة، أو الحاجة لقبول هيمنة رأس المال. كما تحدث سميث أيضاً عن أهمية القيم الأكثر تحرراً والتى تتخطى فكرة الأرباح فى ثروة الأمم، ولكنه تحقق وتحرى عن الحاجة القوية لمواقف وأعمال تستند إلى القيم التى تتخطى حاجز الربح وذلك فى كتابه الأول، نظرية المشاعر الأخلاقية، والذى نشر بالضبط منذ ربع ألفية ماضية أى تحديداً فى عام ١٧٥٩. بينما كتب أيضاً أن «التعقل» يعد من أهم الفضائل المفيدة للفرد، وظل آدم سميث يتحدث عن أن «الإنسانية، والعدالة، والكرم، وروح الجماعة هى من أفضل الميزات المفيدة للآخرين»[٣].

قام سميث بفحص الأسواق ورأس المال على اعتبار أنهم يبلون بلاء حسناً فيما يتضمن المنطقة الخاصة بهما، ولكن أولاً، فإنهما يتطلبان دعماً من المؤسسات الأخرى، بما فى ذلك الخدمات الحكومية مثل المدارس، إضافة إلى القيم أكثر من طلب الربح الصافى، وثانية، فإنهما بحاجة إلى عملية ضبط وتصحيح من قبل مؤسسات أخرى، على سبيل المثال، تعليمات مالية مبتكرة بدقة ومساعدة من الدولة للفقراء، لمنع عدم الاستقرار، وانعدام الإنصاف والظلم. وإذا أردنا البحث عن طريقة جديدة لفهم منظومة النشاط الاقتصادى والتى تضمنت اختياراً عملياً واقعياً لمجموعة من الخدمات الحكومية والتعليمات المدروسة بعناية شديدة، فإننا سنجد أنفسنا لا نبتعد عن جدول أعمال الإصلاح الذى حدده سميث بينما كان يدافع عن الرأسمالية وفى ذات الوقت، ينتقضها.

بغض النظر عن استراتيجيات التعامل مع الأزمة الراهنة، نحن بحاجة إلى أفكار حول تغيير تنظيم المجتمع على المدى البعيد



[٣]

من الناحية التاريخية، لم تظهر الرأسمالية قبل أن تظهر أنظمة جديدة من القانون والممارسات الاقتصادية تحمى حقوق الملكية وتجعل فكرة الاقتصاد القائم على الملكية فكرة عملية. إن عملية التبادل التجارى لا يمكن أن تحدث عملياً حتى يتم إرساء مبادئ العمل الأخلاقية ونتأكد من كونها مستمرة ورخيصة، بمعنى أنها لا تتطلب مقاضاة دائمة نتيجة لإهمال المقاولين، وذلك على سبيل المثال. لن يزدهر الاستثمار فى الأعمال التجارية المنتجة وتتحدد المكافآت الهائلة للفساد. سعت الرأسمالية الباحثة عن الربح دائماً إلى كسب الدعم من القيم المؤسساتية الأخرى.

لقد أصبح من الصعب تتبع الالتزامات الأخلاقية والقانونية والمسئوليات المرتبطة بالتعاملات فى السنوات الأخيرة، فشكراً للنمو والتطور السريع للأسواق الثانوية التى تتضمن الاشتقاقات والآليات المالية الأخرى. يمكن لأى دائن أن يضلل المستدين ليواجه مخاطر غير متعمدة فيمرر الأصول المالية إلى أطراف أخرى بعيدة عن التعامل الأصلى. وهكذا تصبح المسئولية مفوضة بشكل خاطئ، وتصبح الحاجة إلى عملية إشراف وتقنين أقوى بكثير.

ورغم أن الدور الإشرافى للحكومة فى الولايات المتحدة بشكل خاص، فى نفس الفترة، قد تقلص بشدة، بتأثير الاعتقاد المتزايد فى الطبيعة التنظيمية لاقتصاد السوق. ولنكون أكثر دقة فمع نمو الإشراف الحكومى، فإن الحاجة إلى المراقبة تقلصت. ونتيجة لذلك، كانت هناك كارثة من المتوقع وقوعها، والتى حدثت بالفعل فى نهاية السنة الماضية، وقد ساهم ذلك بالتأكيد وبشكل كبير فى الأزمة المالية العصيبة التى يواجهها العالم اليوم. إن انعدام النظام للأنشطة المالية له نتائجه ليس فقط على التطبيقات غير الشرعية ولكن أيضاً على الميل نحو التروى والتفكر بعمق، وهذا ما يؤدى كما تحدث آدم سميث، إلى ميل البشر فى البحث عن الربح ولو بشق الأنفس.

دعا سميث مروجى الخطر المفرط بحثاً عن الأرباح «مبذرين وعارضين»، والذى يعد وصفاً جيداً لمن بدءوا فى تفعيل الرهونات خلال السنوات القليلة الماضية. وفى صدد مناقشة القوانين المضادة للفوائد المضاعفة، على سبيل المثال، أراد سميث أن يقوم الإشراف الحكومى بحماية المواطنين من «المبذرين والعارضين» الذين قاموا بالترويج للقروض غير الثابتة.

وعليه فإن جزءا كبيرا من رأس مال الدولة يصبح بعيداً عن متناول أيد كانت فى الغالب سوف تتربح وتستفيد منه، ويذهب إلى هؤلاء الذين فى الغالب سوف يهدرونه ويدمرونه.[٤]

إن الإيمان الضمنى فى قدرة اقتصاد السوق على تصحيح وضعه، والذى يعد مسئولاً بشكل كبير عن إزالة التعليمات المؤسسة فى الولايات المتحدة، يميل إلى إهمال نشاطات المبذرين والعارضين بطريقة صادمة بالنسبة لآدم سميث.

لقد تولدت الأزمة الاقتصادية الحالية بشكل جزئى نتيجة سوء تقدير حكمة عمليات السوق، وازدادت حالة القلق وانعدام الثقة فى السوق المالية وفى الأعمال التجارية واتضح ذلك فى الردود العامة وردود أفعال السوق والذى أدى إلى سلسلة من الخطط التحفيزية، بما فى ذلك خطة الـ٧٨٧ بليون دولار التى تم التوقيع بالموافقة عليها فى فبراير الماضى من قبل حكومة أوباما الجديدة. وبحدوث هذه المشاكل، التى تم تعريفها فى القرن الثامن عشر من قبل سميث، إلا أن المسئولين فى السنوات الأخيرة أهملوها وتغاضوا عنها، وخاصة فى الولايات المتحدة، والذين انشغلوا بالاستشهاد بآدم سميث لمساندة السوق الحر.

[٤]

بينما كان آدم سميث يقتبس كثيراً مؤخراً، حتى وإن كان لا يقرأ بنفس الدرجة، وقد أعيد إحياء جون ماينارد كينز مؤخراً بشكل كبير. بالتأكيد، الكساد المتراكم الذى نلاحظه الآن، والذى يقربنا أكثر إلى حالة كساد كاملة، له ملامح وخصائص واضحة كما أشار إليها كينز، وذلك بأن انخفاض الدخل لمجموعة من الأفراد أدت إلى انخفاض معدل مشترياتهم مما يؤدى بالتالى إلى انخفاض دخول الآخرين.

على أية حال، يمكننا أن نعتبر أن كينز قد يكون المنقذ بالنسبة لنا بشكل جزئى، وعلينا لذلك أن نتطلع إلى فهمه لأزمتنا الحالية. إن أحد رجال الاقتصاد الذى لم يعترف بصلته بالأزمة بشكل كبير هو منافس كينز آرثر سيسيل بيجو، والذى مثله كمثل كينز، كان فى جامعة

كامبردج، وأيضاً فى كلية كينجز، فى نفس وقت كينز. كان بيجو مهتماً بشكل أكبر من كينز بعلم النفس الاقتصادى وكيفية تأثيره على الدورات الاقتصادية ويقوى أو يضعف أى حالة كساد اقتصادى والذى قد يقود إلى حالة كساد كاملة (وهو ما نحن بصدده الآن فى الحقيقة). أرجع بيجو التقلبات الاقتصادية بشكل جزئى إلى «أسباب نفسية، تشمل الاختلافات فى صوت عقل الأشخاص الذين تتحكم أعمالهم فى الصناعة. ويظهر ذلك فى الأخطاء الناتجة عن التفاؤل الذى لا داعى له والتشاؤم الذى لا داعى له أيضاً فى توقعات عملهم.»[٥]

إنه من الصعب تجاهل حقيقة أن اليوم، بالإضافة إلى تأثيرات كينز الخاصة بالانحدار المدعوم بشكل متبادل، إننا الآن فى وجود «أخطاء ناتجة عن التشاؤم الذى لا داعى له». ركز بيجو بشكل خاص على الحاجة لحل تجميد سوق الائتمان عندما يكون الاقتصاد فى قبضة التشاؤم المفرط:

لذلك، فإن هناك أشياء أخرى قد تكون متساوية. الحدوث الفعلى لحالات فشل العمل سيكون تقريباً واسع الانتشار، قبول (على السواء) قروض البنوك، تجاه أزمة الطلبات، أقل أو قابل للحصول بسهولة أكثر[٦].

على الرغم من أنه تم ضخ أرقام كبيرة من الأموال إلى اقتصاديات أمريكا وأوروبا، من قبل الحكومات، والبنوك، والمؤسسات المالية رغبة منهم حتى الآن فى حل مشكلة تجميد سوق الائتمان. تواجه الأعمال التجارية الأخرى فشلاً جزئياً أيضاً، وذلك نتيجة انخفاض الطلب أو يمكننا أن نقول المعدوم (عملية «المضاعف» التى ذكرها كينز)، ولكن هذا يأتى كنتيجة أيضاً للخوف من انخفاض الطلب بصورة أكبر فى المستقبل، وذلك فى ظل مناخ يخيم عليه الإحباط (وهو ما أطلق عليه بيجو «التشاؤم المعدى»).

إن إحدى المشاكل التى يجب على إدارة أوباما مواجهتها هى أن تلك الأزمة الحقيقية، والتى نشأت نتيجة سوء الإدارة المالية وبعض التجاوزات الأخرى، تضخمت وتضاعفت عدة أضعاف مع عامل الانهيار النفسى. إن الإجراءات التى تتم مناقشتها الآن فى واشنطن وفى أى مكان آخر لإعادة تجديد سوق الائتمان تتضمن عمليات إنقاذ. مع وجود متطلبات لازمة وقوية تدعم المؤسسات المالية التى تبتاع - من خلال شراء الحكومة للأصول الفاسدة، والتأمين ضد الفشل فى دفع القروض، وتأميم البنوك (أصاب الاقتراح الأخير العديد من المحافظين بالذعر حيث إن السيطرة الخاصة من المال العام المعطى للبنوك تصيب أولئك المهتمين بالمسئولية بحالة من القلق). ويبدو أن رد الفعل الضعيف للسوق على إجراءات الإدارة هو حتى الآن اقتراح أن يتم تقييم كل هذه السياسات بشكل جزئى لتبين تأثيرهم على الحالة النفسية للأعمال التجارية وعلى المستهلكين، خاصة فى أمريكا.

[٥]

إن التفاوت بين بيجو وكينز له علاقة بسبب آخر أيضاً. فبينما انشغل كينز بالإجابة عن سؤال كيف يزيد الدخل الكلى، وانشغل نسبياً بدرجة أقل بتحليل مشاكل توزيع الثروات غير المتعادلة والرفاهية الاجتماعية. فعلى النقيض من ذلك، فإن بيجو لم يكتب فقط الدراسة الكلاسيكية عن اقتصاديات الرفاهية، لكنه ابتكر مقياساً ليقيس عدم المساواة الاقتصادى أيضاً كمؤشر رئيسى للتقييم والسياسة الاقتصادية[٧]. ما دامت معاناة الناس الأكثر حرماناً فى كل اقتصاد، وفى العالم كله، تسترعى وتستوجب الانتباه الأشد، فإن دور التعاون المساعد بين القوى الاقتصادية والحكومة لا يمكن أن يتوقف بمجرد حدوث عملية توسع متبادل منظمة للاقتصاد. هناك حاجة ماسة لتوجيه الانتباه إلى المستضعفين فى المجتمعات عند التخطيط لتجاوز الأزمة الحالية، وفى اتخاذ الإجراءات لعملية توسع اقتصادية عامة. لقد أصيبت الأسر والعائلات التى تعانى البطالة فى مقتل مع وجوب ذكر غياب الرعاية الصحية لديهم، إضافة إلى الحرمان الاجتماعى والاقتصادى. يجب الاعتراف بأن نظريات كينز الاقتصادية كانت قاصرة عن معالجة تلك المشاكل.

هناك طريق آخر كان من الضرورى أن يستكمله أحد ما غير كينز وهو ما تعلق بتجاهله للخدمات الاجتماعية - فى الحقيقة كان لدى أوتو فون بيسمارك الكثير ليقوله فى هذا الصدد. ناقش بعض الاقتصاديين البارزين المعاصرين فكرة أن اقتصاد السوق قد يكون سيئاً فى تقديم بعض المصالح العامة (مثل التعليم والرعاية الصحية) وكان من ضمن هؤلاء الاقتصاديين بول صامويلسون وسميث كينيث. (ساهم بيجو فى هذا الموضوع أيضاً بتأكيده على «التأثيرات الخارجية» على تعاملات السوق، حيث لا تنحصر المكاسب والخسائر على الباعة والمشترين المباشرين وحدهم). إنها بالطبع قضية طويلة الأمد، لكن يجدر بنا أن نذكر أيضاً أن التأثير السلبى لحالة الكساد يكون أعنف بكثير إذا لم تتوفر الرعاية الصحية بشكل خاص للجميع.

فعلى سبيل المثال، فى غياب مؤسسة عامة للصحة، فإن كل وظيفة مفقودة تعنى حرمان المزيد من الرعاية الصحية الضرورية، وذلك بسبب خسارة الدخل أو خسارة التأمين الصحى الخاص بالوظيفة. إن الولايات المتحدة تعانى من نسبة بطالة الآن تصل إلى ٦.٧٪، والتى تتسبب فى المزيد من الحرمان الكبير. هنا يجدر بنا أن نطرح سؤالاً هاماً وهو يخص البلدان الأوروبية، بما فيها فرنسا وإيطاليا، وأسبانيا، والتى عاشت لعقود وعقود بمعدلات بطالة أعلى من تلك بكثير، فكيف استطاعت أن تتفادى حدوث انهيار كلى لجودة الحياة. الإجابة بشكل جزئى إنها الطريقة الذى تتبعها الدول الأوروبية الغنية من خلال نظام تأمين للبطالة أقوى من نظيره فى أمريكا بكثير، والأهم من ذلك، وجود توفير الخدمات الطبية الأساسية للجميع من قبل الحكومة.

إن فشل آليات السوق فى توفير الرعاية الصحية للجميع يعد شيئاً مريعاً وصارخاً، وخاصة فى الولايات المتحدة. ولكن أيضاً كان ذلك صارخاً فى قضية تقدم الصحة وطول العمر فى الصين واللذان تليا إلغاء التأمين الصحى فى ١٩٧٩. فقبل تلك التعديلات الاقتصادية فى هذا العام، كان كل مواطن صينى يضمن توفر الرعاية الصحية له من خلال الدولة أو المؤسسات التعاونية، على الأقل المستوى الأساسى للرعاية. وعندما أنهت الصين نظامها والذى كانت له نتيجة عكسية على المجمعات التعاونية الزراعية والوحدات الإدارية والوحدات الصناعية التى يديرها البيروقراطيون، مما أدى إلى ارتفاع نسبة نمو الناتج المحلى الإجمالى بصورة أسرع من أى مكان آخر فى العالم. ولكن فى ذات الوقت، ونتيجة للإيمان الجديد باقتصاد السوق، قامت الصين بإلغاء نظام الرعاية الصحية الشاملة أيضاً. وبعد تعديلات ١٩٧٩، كان على الأفراد شراء التأمين الصحى (فيما عدا بعض الحالات النادرة نسبياً التى قامت فيها شركات كبيرة أو حكومية بتزويد موظفيها بالتأمين الصحى). وبهذا، فإن تقدم الصين فى مسألة طول العمر أخذ فى التباطؤ بحدة.

كانت هذه مشكلة كافية عندما كان الدخل الإجمالى للصين ينمو بسرعة فائقة، لكنه حتماً سيكون مشكلة أكبر بكثير إذا ما كان الاقتصاد الصينى يتقدم ببطء حاد، كما هو الحال الآن. إن الحكومة الصينية تحاول بصعوبة الآن إعادة تقديم الرعاية الصحية بشكل تدريجى للجميع، كما تتعهد الحكومة الأمريكية تحت قيادة أوباما بعمل تغطية صحية كاملة أيضاً. فى كل من الصين والولايات المتحدة، لا يزال الطريق أمام التصحيحات طويلاً، ولكن يجب أن تكون هناك عوامل أساسية لمعالجة الأزمة الاقتصادية، وكذلك لإتمام عملية التحول طويلة المدى لكل من المجتمعين.

على أية حال، يمكننا أن نعتبر أن كينز قد يكون المنقذ بالنسبة لنا بشكل جزئى، وعلينا لذلك أن نتطلع إلى فهمه لأزمتنا الحالية



[٦]

إن إحياء ما قدمه كينز يساهم كثيراً بالنسبة للتحليل الاقتصادى والسياسة، مع الوضع فى الاعتبار أن الجعبة لا يزال بها الكثير والكثير من السهام. فعلى الرغم من أن كينز يرى فى أغلب الأحيان على أن نوعاً ما «ثائر» بالنسبة للاقتصاد المعاصر، إلا أنه فى الحقيقة اقترب من أن يكون من كبار أساتذة ومعلمى الرأسمالية الجديدة، والتى ركزت على محاولة تثبيت

تقلبات اقتصاد السوق (ومرة ثانية دون إيلاء الاهتمام الكافى للأسباب النفسية وراء هذه التقلبات). وعلى الرغم من أن سميث وبيجو يعتبران من أساتذة الاقتصاد المحافظين، إلا أن العديد من الأفكار العميقة التى جاءت حول أهمية المؤسسات غير المرتبطة بالسوق والتى لا تهدف إلى الربح نبعت منهما. ولم تأت من كينز وأتباعه.

إن أى أزمة لا تقدم فقط تحدياً فورياً علينا مواجهته. وإنما تمنحنا الفرصة لمعالجة المشاكل طويلة المدى حتى تكون لدى الناس رغبة فى إعادة النظر فى أمور عديدة. لذا يجب أن نستغل الأزمة الاقتصادية الحالية لمواجهة القضايا طويلة المدى والتى أهملت مثل حماية البيئة والرعاية الصحية، بالإضافة إلى الحاجة للنقل العام والذى أهمل بشكل سيئ جداً فى العقود القليلة الماضية وتم استثناؤها حتى الآن. وبينما أكتب هذه المقالة الآن. وحتى فى السياسات الأولية التى أعلنتها حكومة أوباما. إن قضية قابلية التحمل الاقتصادية هى بالطبع قضية هامة ولكن إذا أخذنا مثال حكومة كيرالا، فإننا نرى أنه من المحتمل أن تكون هناك رعاية صحية مضمونة بتكلفة صغيرة نسبيا. فمنذ أن أسقط الصينيون الرعاية الصحية الشاملة فى ١٩٧٩، واصل كيرالا دعم تقديمها، وتمكن من تخطى الصين من حيث متوسط الأعمار وبعض المؤشرات مثل معدل وفيات الأطفال، على الرغم من أن معدل أو مستوى دخل الفرد لديه أقل بكثير. مما أكد أن الفرصة لا تزال متاحة حتى للبلاد الفقيرة أيضاً.

ولكن التحديات الأصعب والتى تواجه الولايات المتحدة والتى تعد من أعلى معدلات الدول من حيث دخل الفرد وإنفاقه على جانب الصحة بين بلدان العالم، ولكن لا يزال ما حققته فى مجال الصحة ضئيلاً مع وجود أكثر من أربعين مليون شخص بدون ضمان رعاية صحية. جزء من المشكلة يرجع إلى الفهم العام. فهناك تصورات مشوهة بشكل كبير ويجب على مؤسسات الصحة العامة أن تصحح ذلك خلال مناقشاتها العامة. فعلى سبيل المثال، فإن من الشائع عن مؤسسات الصحة الأوروبية أنه غير مسموح لأحد باختيار الأطباء، وهذا غير صحيح.

هناك، على أية حال، حاجة لفهم الخيارات المتاحة الأفضل. فى المحاورات الأمريكية بشأن إصلاح الصحة، كان هناك اهتمام زائد وغير عادى بالنظام الكندى - وهو نظام رعاية صحية عام يجعل من الصعب جداً على أى فرد أن يكون لديه نظام رعاية طبية خاص. ولكن فى أوروبا الغربية، إضافة إلى الرعاية الطبية العامة والتى تتوفر بصورة رسمية، يسمح أيضاً بالتأمين الصحى الخاص، لأولئك الذين يتوفر لديهم المال ويودون إنفاقه على هذا النحو. ولا أدرى لماذا يمكن للأغنياء إنفاق أموالهم بحرية شديدة على اليخوت والسلع الكمالية والترفيهية بينما لا يسمح لهم بإنفاق نقودهم على أشعة الرنين المغناطيسى أو أشعة اختبارية بدلاً من ذلك. إذا أمكننا أن نأخذ نموذجاً من مناقشات آدم سميث الخاصة بتنوع المؤسسات، وتهيئة مجموعة حوافز متنوعة، فإن هناك إجراءات عملية يمكننا حينئذ أن نتخذها مما يحدث فرقاً كبيراً فى العالم الذى نعيش فيه.

إن الأزمات الاقتصادية الحالية، على ما أعتقد، لن تدعو إلى «رأسمالية جديدة»، ولكنها تنادى بفهم جديد للأفكار القديمة كتلك التى قدمها سميث، وحتى الأحدث، كالتى قدمها بيجو، والعديد من الأفكار التى تم التغاضى عنها وإهمالها بشكل محزن. ما نحن بحاجة إليه أيضاً هو فهم صافى الذهن لكيفية عمل المؤسسات المختلفة، وكيف أن مجموعة من المنظمات - من السوق إلى مؤسسات خاضعة للحكومة - يمكن أن تتجاوز فى فترة قصيرة المدى وتقدم حلولا للأزمة وتساهم فى إنتاج عالم اقتصادى أكثر احتراماً.

الملاحظات والاحالات

(١) ادم سميث، بحث فى طبيعة ثروة الأمم وأسبابها، حرره آر. إتش. كامبل وأى. إس. سكينر (دار نشر كلاريندون، ١٩٧٦) الجزء الأول والثانى والثالث، ٢٨. صفحة ٢٩٢

(٢) سميث، ثروة الأمم، الجزء الأول والثانى والثامن. ٢٦. صفحة ٩١

(٣) ادم سميث، نظرية المشاعر الأخلاقية، حرره دى. دى. رافاييل وأى. إل. ماكفى (دار نشر كلاريندون، ١٩٧٦) صفحة ١٨٩-١٩٠

(٤) سميث، ثروة الأمم، الجزء الأول، والثانى والرابع. صفحة ٣٥٧

(٥) أى. سى. بيجو، تقلبات صناعية (لندن: ماكميلن، ١٩٢٩) صفحة ٧٣

(٦) بيجو، تقلبات صناعية، صفحة ٩٦

(٧) أى. سى. بيجو، اقتصاديات الرفاهية (لندن: ماكميلن، ١٩٢٠). الأعمال الحالية المتعلقة بعدم المساواة الاقتصادى، بما فى ذلك المساهمات الرئيسية لأى. بى. أتكنسن، قد كانت ملهمة إلى حد كبير بمبادرة بيجو الرائدة؛ انظر أتكنسن، العدالة الاجتماعية والسياسة العامة (دار نشر إم آى تى، ١٩٨٣).

الإرهاب الحقيقى: وول ستريت

كريس هيدجز
Chris Hedges

■■ لدينا قدرة ملحوظة على خلق وحوشونا. عقود من التطفل فى الشرق الأوسط مع قريننا الإسرائيلى أتت لنا فى النهاية بحزب الله وحماس والقاعدة وحركة المقاومة العراقية وطالبان المستعيدة لنشاطها، والآن نخرب اقتصاد العالم وندمر النظام البيئى ونجلس لمشاهدة صنيعة أيدينا.

لاحت علامات عالمنا الجديد الشجاع عندما أدلى المدير الجديد للاستخبارات الوطنية الأمريكية

الأدميرال المتقاعد دينيس بلير - بشهادته أمام لجنة الاستخبارات بمجلس الشيوخ. حذر من أن عمق وضع الأزمة الاقتصادية ربما يكون التهديد الأكثر قتامة لنا للأستقرار والأمن القومى، وأضاف دينيس أنها من الممكن أن تحدث عودة «للعنف المتطرف» الذى ميز الفترة بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠.

اتضح أن وول ستريت - وليس الجهاديين الإسلاميين - أنتجت أكثر إرهابيينا خطورة، سنشهد إغلاق متاجر التجزئة والمنشآت بشكل متسارع، تضخم ووباء الإفلاس، دورات جديدة من حبس الرهون وطوابير الخبز وبطالة تفوق مستويات الكساد الكبير، وكما يخشى بلير، اضطراب اجتماعى.

تقدر منظمة العمل الدولية التابعة للأمم المتحدة أن ما يقرب من ٥٠ مليون عامل فى أرجاء العالم سيفقدون وظائفهم هذا العام. صاحب الانهيار حتى الآن فقدان ٣.٦ مليون وظيفة فى الولايات المتحدة، ويتنبأ صندوق النقد الدولى أن نمو الاقتصاد العالمى فى ٢٠٠٩ سيكون ٠.٥٪ وهو الأسوأ منذ الحرب العالمية الثانية. خلال العام الماضى، تلقى ٣.٢ مليون عقار فى الولايات المتحدة إنذارات لعدم السداد أو تم استرداده، وهذا الرقم مهيأ للارتفاع فى ٢٠٠٩، خاصة مع بداية تعرض العقارات التجارية الخالية لحبس الرهون. قرابة ٢٠.٠٠٠ بنك من البنوك العالمية الكبرى انهارت أو بيعت أو أممت فى عام ٢٠٠٨، ومن المتوقع أن تغلق قرابة ٦٢.٠٠٠ شركة أمريكية هذا العام.

البطالة - عندما تضيف الأشخاص الذين لم يعودوا يبحثون عن وظائف والعاملين بنصف دوام الذين لا يستطيعون إيجاد وظيفة بدوام كامل - أصبحت تقارب ١٤٪.

لم يتبق لدينا سوى القليل من الأدوات التى يمكن أن نشق بها طريق النجاة. قطاع الصناعة فى الولايات المتحدة دمرته العولمة. المستهلكون - بفضل شركات بطاقات الائتمان وحدود الائتمان السهلة - مدينون بـ١٤ تريليون دولار. تعهدت الحكومة بتريليونات من أجل الأزمة، معظمها مقترض أو مطبوع فى شكل نقود جديدة، إنها تستعير المزيد من التريليونات لتمويل حروبنا فى أفغانستان والعراق، ولا أحد يصرح بما هو واضح: أننا لن نكون قادرين أبدا على سداد تلك الديون. يفترض بنا أن نجد طريقا للخروج من الأزمة عن طريق الإنفاق بشكل أو بآخر، و أن نحافظ على مشروعنا الامبريالى بالائتمان. لندع أبناءنا يقلقون من ذلك. لا توجد أى خطة متماسكة وواقعية - خطة قائمة على مواطن القصور الخطيرة التى لدينا - لوقف النزيف أو لتخفيف الحرمان المتزايد الذى سنعانى منه كمواطنين. قارن ذلك بإستراتيجيات الدولة للأمن

ترجمة: وليد سليم



القومى لكسر القلق المدنى الكامن وستحصل على لمحة للمستقبل، لا يبدو جيدا.

أخبر بلير مجلس الشيوخ أن «الاهتمام الأمنى الرئيسى للولايات المتحدة على المدى القصير هو الأزمة الاقتصادية العالمية وتداعياتها الجيوسياسية»، وأن «الأزمة مستمرة منذ أكثر من عام والاقتصاديون منقسمون حول ما إذا كنا سنرتطم بالقاع ومتى سيحدث هذا، والبعض يتخوف حتى من أن فترة الركود من الممكن أن تزداد عمقاً و تصل لمستوى الكساد الكبير. بالطبع كلنا نتذكر العواقب السياسية الدراماتيكية التى صنعتها الاضطرابات الاقتصادية فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين والاستقرار والمستويات المرتفعة للتطرف العنيف».

ظهر شبح الاضطراب الاجتماعى فى الكلية الحربية الأمريكية فى نوفمبر فى وثيقة بعنوان «المجاهيل المعروفة: صدمات إستراتيجية غير تقليدية فى تطوير الإستراتيجية الدفاعية».

تنبه الوثيقة إلى أن الجيش يجب أن يكون مستعداً لـ«اضطراب استراتيجى عنيف داخل الولايات المتحدة» يمكن أن يحدثه «انهيار اقتصادى غير متوقع» أو «مقاومة داخلية شديدة» أو «انتشار الطوارئ الصحية العامة» أو «فقدان النظام السياسى والقانونى الفعال». «العصيان المدنى المنتشر» -وفقا للوثيقة- «سيجبر المؤسسة الدفاعية على إعادة توجيه أولوياتها لأقصى مدى للدفاع عن النظام الداخلى الأساسى والأمن الإنسانى». وتستمر الوثيقة، «الحكومة الأمريكية وإدارة الدفاع الراضية وهماً عن نفسها- بسبب نظام أمنى داخلى نعمت به طويلاً- ستكون مجبرة على أن تسحب بعض أو معظم التزاماتها الأمنية الخارجية لمعالجة انتشار عدم الأمان الإنسانى فى الداخل.

وفى أقصى الظروف، قد يتضمن هذا استخدام القوة العسكرية ضد الجماعات العدائية داخل الولايات المتحدة. علاوة على ذلك، قد تصبح وزارة الدفاع بالضرورة محورا أساسيا لتمكين السلطة السياسية من الاستمرار فى ظل أضطرابات أو صراع مدنى فى ولايات متعددة أو فى جميع أنحاء الأمة»، كما تقول الوثيقة.

بلغة واضحة ــ يبدو أن البيروقراطيين والعسكريين غير قادرين على استخدامها - يعنى هذا فرض الأحكام العرفية وإدارة الحكومة بشكل فعلى من وزارة الدفاع. إنهم يفكرون فى ذلك، وكذلك أنت أيها القارئ.

حذر الأدميرال بلير مجلس الشيوخ بقوله: إن ما يقرب من ربع الدول فى العالم عانت بالفعل من مستويات منخفضة من عدم الاستقرار مثل تغيير الحكومة بسبب التباطؤ الحالى، وأشار إلى «أن معظم المظاهرات ضد الدولة، على مستوى العالم والتى شوهدت فى أوروبا والاتحاد السوفيتى السابق لا يعنى عدم إمكانية انتشارها فى الولايات المتحدة. وأخبر أعضاء مجلس الشيوخ أن انهيار النظام المالى العالمى على الأرجح سينتج موجة من الأزمات الاقتصادية فى أسواق الدول الناشئة خلال العام القادم. وأضاف بلير: إن معظم أمريكا اللاتينية ودول الاتحاد السوفيتى السابق وافريقيا جنوب الصحراء تفتقر لاحتياطات نقدية، أوطريقة للوصول لمساعدات دولية، أو ائتمان، أو أى آليات أخرى للتكيف.

قال أيضا: «عندما تنخفض معدلات النمو تلك، يخبرنى إحساسى بأن هنالك مشاكل ستظهر نتيجة لذلك، ونحن نتوقعها»، وأشار إلى أن النماذج الاحصائية تظهر أن الأزمة الاقتصادية تزيد من مخاطر عدم الاستقرار التى تهدد النظام إذا استمرت مدة أكثر من عام أو عامين.

إن ماقاله بلير هو أحدث المخاوف. فبسبب اقتصاد تنحل خيوطه بتسارع، سيقال لنا إن الإسلاميين المتطرفين الملتحين ليسوا هم من يهددوننا، بل الغوغاء المحليون، والمدافعون عن البيئة، والفوضويون والنقابات والأعضاء الغاضبون من الطبقة العاملة المحرومة، وبالرغم من ذلك، فإن من فى السلطة سيخرج من جرابه المتطرفين الإسلاميين عندما يحتاج إعطاءنا صدمة غرائبية، وكما يحدث دائماً فى أوقات الاضطرابات، سوف تتزايد الجريمة، وأولئك الذين يعارضون القبضة الحديدية لجهاز الدولة الأمنى سيجمعون مع الطبقة الدنيا المجرمة المتزايدة أعدادها فى تقاريراخبارية مجمعة ماكرة.

لم يعلم تماماً نائب رئيس اللجنة السيناتور الجمهورى عن ميسورى/ كريستوفر بوند CHRISTOPHER BOND ما يفعله بشهادة بلير وقال أنه كان مهتماً بأن بلير كان قلقاً من جعل الظروف فى البلد والأزمة الاقتصادية العالمية بؤرة الاهتمام الرئيسية لمجموعة الاستخبارات.

لقد كشف الانهيار الاقتصادى غباء إيماننا الجماعى بسوق حرة، وسخافة اقتصاد يرتكز على أهداف النمو اللانهائى والاستهلاك والاقتراض والتضخم. لقد فشلت أيديولوجيا النمو اللامحدود فى أن تأخذ فى اعتبارها الاستنزاف الضخم لموارد العالم من وقود حفرى، وماء نقى ومخزون أسماك، و عوامل تعرية، بالاضافة للزيادة السكانية وارتفاع درجة حرارة الأرض وتغير المناخ. فالفيضان الضخم لرؤوس الأموال العالمية اغرق النظام المالى العالمى.

ودولارمقيم بأزيد من قيمته -سوف ينكمش قريباً- تكنولوجيا جامحة، أسهم وفقاعات مالية فى قطاع الإسكان، أطماع بلا قيود. إهلاك القسم الأعظم من قطاعنا التصنيعى ، منح سلطة لطبقة أوليجاركية ، فساد نخبتنا السياسية ، إفقار العمال، ميزانية دفاع لجيش متخم وانغماس فى الائتمان بلا قيود، تآمروا لإسقاطنا . ستصبح الأزمة المالية قريباً أزمة عملة. تلك الصدمة الثانية سوف تهدد إمكانية استمرار نظامنا المالى. لقد تركنا السوق يحكم والآن ندفع ثمن ذلك.

مجموعة اللصوص أولئك الذين أصروا على أن يدفع لهم عشرات الملايين من الدولارات لأنهم كانوا الأفضل والأذكى، كشفوا كممثلين مخادعين، مسئولونا المنتخبون بجانب الصحافة كُشفوا كفاسدين و كجماعة من التابعين ضعاف الشخصية . مدارس الأعمال والنخبة المثقفة كُشفوا كخدع .

لقد انتهى عصرالغرب.

انظر للصين. رأسمالية «دعه يعمل» دمرت نفسها، حان وقت إزالة الغبار عن النسخ التى لديكم لماركس. ■

«الأصـــول المســـمومة»

حـــــــــازم البـبــــــلاوى

■ ■ ظهر اصطلاح الأصول المسمومة Toxic assets مع بزوغ الأزمة المالية العالمية. والمقصود بذلك هو أنه نتيجة للتوسع المحموم فى إقراض مدينين لا يتمتعون بالجدارة الائتمانية الكافية، تضمنت ميزانيات البنوك والمؤسسات المالية أصولاً لمديونيات متعثرة يصعب سدادها. فالقيمة الحقيقية لهذه الأصول أقل بكثير من تكلفتها، فهى أصول «تسمم» دلالة الميزانية عن المراكز المالية الحقيقية للمؤسسة. ولكن هذه «الأصول المسمومة» لم تقتصر على المديونيات المشكوك فيها من جانب المؤسسات المقرضة للعملاء الأقل جودة Subprime، بل إنها امتدت إلى عديد من ميزانيات شركات ومؤسسات لا تتعامل أصلاً مع هذا النوع من المدينين، إنما تحتفظ فى محافظها المالية بأسهم وسندات لشركات أو بنوك أخرى تتعامل بشكل مباشر أو غير مباشر مع هؤلاء المدينين المتعثرين. ولفهم ذلك علينا أن نتذكر أن البنوك والمؤسسات المالية تتداخل فى مختلف جوانب الاقتصاد بحيث أن ما يصيبها من خلل أو انحراف ما يلبث أن ينتقل إلى بقية عناصر الاقتصاد.

الوساطة المالية شبكة متعددة ومتشعبة العلاقات،

الاقتصاد المعاصر ينطوى على مجالين متكاملين، هما الاقتصاد الحقيقى والاقتصاد المالى. أما الاقتصاد الحقيقى، أو العينى، فهو يتعلق بالموارد الاقتصادية الحقيقية، من أراض ومصانع وقوة بشرية، والتى تشبع الحاجات بشكل مباشر أو غير مباشر. وأما الاقتصاد المالى فهو يتكون من الأصول المالية أى المطالبات أو الحقوق على هذا الاقتصاد الحقيقى، مثل النقود والأسهم والسندات والأوراق المالية. وهذه الأصول المالية هى التى تحرك الاقتصاد الحقيقى. وقد أدى الاقتصاد المالى إلى ربط مختلف أجزاء الاقتصاد فى شبكة متداخلة من العلاقات يصعب الفكاك منها، وقامت المؤسسات المالية، وعلى رأسها البنوك، بالدور الأكبر فى هذه العلاقات الاقتصادية المتداخلة. وحتى نفهم درجة التعقيد والترابط بين مكونات الاقتصاد فلا بد أن نبدأ بصورة مبسطة لدور البنوك فى الوساطة المالية، أو التمويل، حتى نصل إلى صور أكثر تعقيداً تقترب من الأوضاع المعاصرة للاقتصاد.

تختصر قضية «التمويل» فى الاقتصاد فى حقيقة بسيطة وأولية، وهى أن الهدف من التمويل فى الاقتصاد هو كيفية نقل مدخرات الأفراد والمشروعات إلى المستثمرين. فالناتج القومى لأية دولة يوزع على المساهمين فى العملية الإنتاجية(فى شكل أجور وأرباح). ويقوم هؤلاء الأفراد بالإنفاق على استهلاكهم، وما يتبقى بعد ذلك هو الادخار. فماذا يفعل الأفراد بهذه المدخرات الزائدة على استهلاكهم المباشر؟ ليس كل الأفراد قادرين على القيام بأنفسهم بمشروعات استثمارية إنتاجية. فضلاً عن أن مدخرات كل فرد على حدة تعتبر صغيرة ولا تكفى للقيام بأى مشروع استثمارى. ولكن هناك على الجانب الآخر، المستثمرون وهم القادرون على إنشاء المشروعات لما لديهم من خبرة وأموال، ولكنهم يحتاجون فى العادة إلى أموال أكبر بكثير مما لديهم. فأين يجدون هذه الفوائض من المدخرات؟ هنا قامت الحاجة إلى المؤسسات المالية الوسيطة وعلى رأسها البنوك، فهى تقوم بتجميع هذه المدخرات وتضعها تحت تصرف المستثمرين. وفى هذه العملية تظهر الصور الرئيسية للأصول المالية. فالمدخر يضع أمواله فى البنك فى شكل «وديعة» أى فى شكل أصل مالى، دين على البنك. والبنك يضع بدوره هذه المدخرات تحت تصرف المستثمر مقابل «قرض» أى أصل مالى للبنك على عميله.

على أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد حيث ظهرت مؤسسات مالية أخرى إلى جانب البنوك تجمع مدخرات الأفراد مثل شركات التأمين وهيئات التأمين والمعاشات وشركات توظيف الأموال والصناديق الاستثمارية، وبذلك تعددت المؤسسات المالية التى تجمع مدخرات الأفراد من أجل الاستثمار.

كذلك لم تقتصر المؤسسات المالية على الوساطة المباشرة بين جمهور المدخرين وجمهور المستثمرين، بل تتابعت عمليات الإقراض والاقتراض فى سلسلة طويلة مع العلاقات الوسيطة غير المباشرة. فصندوق الاستثمار لا يستخدم الأموال التى يجمعها لكى يضعها تحت تصرف المستثمر النهائى بل أصبح يشترى بها أسهما وسندات وأوراقا مالية أصدرتها الشركات المالية الأخرى. والبنك بدوره لم يعد يقتصر على إقراض المستثمرين بل أصبح يوظف جزءاً من أمواله (مدخرات المودعين) فى محفظة من الأسهم والسندات والأوراق المالية الأخرى. كذلك فإن المشروعات الإنتاجية لم تعد تحصر نفسها فى الاستثمار الحقيقى فى المجال الذى تتخصص فيه بل أصبحت تحتفظ هى الأخرى بمحفظة مالية من أسهم وسندات وأوراق مالية تصدرها المؤسسات المالية والشركات الأخرى.

وهكذا أصبح الفرد، وكذا المشروع، دائناً ومديناً فى نفس الوقت للعديد من المؤسسات. فالفرد المستهلك دائن للبنك بما لديه من حسابات فى واحد أو أكثر من البنوك، ولكنه مدين للبنوك برهن على عقاره، وهو أيضاً مدين بما يستخدمه من بطاقات ائتمان أو شراء سلع معمرة بالأقساط. ونفس الشىء بالنسبة إلى البنك فهو دائن ومدين معاً، فهو مدين لعملائه من المودعين ولكنه دائن لعملائه الآخرين من المقترضين، كما أنه دائن حائز لأوراق مالية متنوعة يستثمر فيها. وكذا المستثمر أو المشروع الصناعى فإنه مدين للبنك بما يحصل عليه من قروض، ولكنه دائن للمؤسسات المالية بما يحتفظ به من ودائع فى البنوك أو من محفظة مالية متنوعة.

وهكذا ساعد تنوع وتداخل هذه الأصول المالية المترابطة على اعتماد المركز المالى للفرد أو المشروع على ما يحدث للمراكز المالية للآخرين. وأصبح الاقتصاد المالى، نتيجة للوساطة المالية، شبكة متداخلة من المديونيات والدائنيات المتقابلة، وأى عجز عن الوفاء من أحد المدينين يؤدى إلى سلسلة متتابعة من الخسائر.

تتضمن أصول أكبر البيوتات المالية العالمية العديد من «الأصول المسمومة» التى يصعب تحصيلها

على عكس السلع الاستهلاكية، تشترى هذه الأصول المالية، لأنها تمثل «ثروة» قابلة للنمو فى المستقبل



لوحة العواجيز البخلاء
للفنان كونتنيو

انعدام الثقة والانتقال

من النشوة إلى الخوف:

بدأت بوادر الأزمة فى الظهور . على حياء . منذ نهاية ٢٠٠٦ وارتفعت نبرة الحديث عنها منذ منتصف ٢٠٠٧ وانفجرت فى الربع الأخير من ٢٠٠٨. وتبين أن أكبر البيوتات المالية العالمية تورطت . بشكل مباشر أو غير مباشر . فى هذه الأزمة حيث تتضمن أصولها العديد من «الأصول المسمومة» التى يصعب تحصيلها . وكانت الضحية الأساسية فى هذه الأزمة هى «الثقة». فانهارت الأسواق المالية ولم يقتصر الأمر على الشركات المتورطة مباشرة فى هذه الأصول المسمومة وإنما عم البلاء لمعظم الأوراق المالية. ويرجع ذلك إلى الطبيعة الخاصة للتعامل فى الأصول المالية. فهذه الأصول، وعلى عكس السلع الاستهلاكية، تشترى لأنها تمثل «ثروة» قابلة للنمو فى المستقبل. فمن يشترى سهماً أو سنداً مثلاً تكون عينه على المستقبل، فهو يشترى اليوم لكى يبيع غداً آملاً فى تحقيق بعض الربح. فسوق الأوراق المالية هى رهان على المستقبل. فإذا كان المستقبل مبشراً اندفع الجميع على الشراء، وإذا كان المستقبل مظلماً حاول الجميع التخلص مما لديهم من أصول قبل تحقق الأسوأ.

ولذلك تعرف أسواق الأصول المالية عادة إفراطاً فى التذبذب. فإذا عم التفاؤل ارتفعت قيمة هذه الأصول بأكثر مما ينبغى، وعلى العكس فإذا غلب التشاؤم انخفضت قيمتها بأكثر مما هو مطلوب. ولذلك يقال أن هذه الأسواق تتعرض لموجات من الاندفاع Overshooting بالارتفاع غير المبرر فى الأسعار، أو الانهيار غير المقبول فيها . فهى كالثور bullish فى اندفاعها فى لحظات التفاؤل والنشوة، للارتفاع، أو هى كالدب bearish فى حذرها وتخوفها من المستقبل فى لحظات التشاؤم والخوف من المستقبل. وهذه هى العبارات المستخدمة فى الأوساط المالية عن وصف الأسواق فى حالات الانفعالات النفسية المتوترة للأسواق. وليس هناك من شك أن الأسواق المالية عرفت إفراطاً فى التفاؤل فى السنوات الأخيرة أدى إلى اندفاع مجنون فى أسعار الأصول المالية.

ولذلك فإنه من غير المستغرب أننا نعيش الآن رد فعل مبالغا فيه من التشاؤم غلب على معظم الأسواق المالية مما أدى إلى انهيار كبير للأسعار.

سياسات معالجة الأزمة:

تدور سياسات الإصلاح الاقتصادى والمالى خاصة فى الولايات المتحدة حول محورين: أحدهما للمدة الطويلة والآخر للمدة القصيرة، علماً بأن إصلاحات المدة القصيرة هى الطريق إلى الإصلاح فى المدة الطويلة. فما هى أهم الأفكار الموجودة على الساحة فى هذا الصدد ؟

هناك اقتناع شبه كامل بأن الأسواق المالية يعتريها خلل شديد نتيجة لعدم الانضباط وعدم الوضوح وضعف الرقابة والإشراف من جانب الحكومات. فقد كانت هناك ثقة . تكاد تكون عمياء . فى أن نظام «السوق» قادر على تصحيح أخطائه، وأن هذ «النظام» فى اعتماده على الربح والخسارة قادر على حسن توزيع الموارد بكفاءة. وقد تبين أن هذا الأمر غير صحيح وغير كاف، وبوجه خاص بالنسبة لأسواق الأوراق المالية. فنظراً لأن هذه الأسواق تتعامل فى جوهرها مع المستقبل، فإنها قادرة على ترحيل «الخسائر» إلى المستقبل وإخفائها عن الأنظار لفترات طويلة قبل أن تظهر للعيان. وفى هذه الأثناء تختفى هذه «الخسائر» وراء عبارات محاسبية غير واضحة يمكن أن تقوض من سلامة من البناء الاقتصادى. فهى كمرض السرطان الذى ينخر فى جسم لسنوات دون أن يكتشف، حتى يظهر فجأة فى مراحل متأخرة يصعب معها العلاج. ومن هنا فإن هناك حاجة إلى إعادة نظر كاملة فى أدوات الأسواق المالية ومؤسساتها وعدم تركها كلية لأهواء «اقتصاد السوق». ولا بد من وضع القيود والضوابط لمنع الانحراف والإفراط.

هذا فى المدة الطويلة، فماذا عن المدة القصيرة؟

رأينا أن الأزمة ترجع فى جوهرها إلى مبالغة هائلة فى حجم الأصول المالية، وأن بعضها أصول «مسمومة» لا تعبر عن قيمة حقيقية، وأن هناك بالفعل فقاعة مالية هائلة قد انفجرت ولابد من إعادتها إلى «القيم» الحقيقية لهذه الأصول. ولكن المشكلة بالإضافة إلى ذلك هى أن «انعدام الثقة» وغلبة الشعور بالتشاؤم والإحباط قد أدى فى كثير من الأحوال إلى مبالغة فى ردود الفعل العكسية وأن الانهيار فى أسعار الأصول المالية قد جاوز الحدود المعقولة ولا يعبر عن القيم الحقيقية، ومن ثم وجب إعادة الثقة لعودة النشاط الاقتصادى إلى مساره الطبيعى فى جو صحى.

فالبنوك . مثلاً . وقد راعها ما أصابها من خسائر، فإنها أحجمت عن التوسع فى الإقراض، ليس لنقص فى السيولة لديها أو لعدم جدارة المقترضين، وإنما لأن رد الفعل الطبيعى فى لحظات الأزمة والخوف هو مزيد من الحذر، وغالباً ما يكون ذلك بأكثر من اللازم. وفى نفس الوقت فإن انهيار أسعار الأوراق المالية وما ترتب عليه من ذعر فى الأسواق، قد دفع بالعديد من المستثمرين إلى التخلص مما لديهم من هذه الأصول قبل أن تنهار الأسعار أكثر، بل وأحياناً يضطر الحائزون لهذه الأصول المالية إلى تسييل أصولهم لمواجهة أعبائهم

هناك بالفعل فقاعة مالية
هائلة قد انفجرت ولابد من إعادتها إلى «القيم»
الحقيقية لهذه الأصول



كتـــاب الزاويـــة

الآخـــر.. في التلمـــود (١)

درج كتاب غربيون كلاسيكيون على الإحالة للتلمود في سياق التداول الأوروبي حول المشكلة اليهودية في أوروبا، والعداء العنصري لليهود، وفضح ما يعتبرونه مثالب تجرح وطنيتهم وأخلاقياتهم وإمكانية تعايشهم. رغم تطورات تاريخية طالت الجماعات اليهودية، وكان بإمكانها أن تؤدي لاندماجها بمجتمعاتها الأوروبية. من هذه الخلفية، جاءت بروتوكولات حكماء صهيون التي يرجح أنها نتاج لثقافة روسية ومؤسسة قيصرية أرثوذكسية معادية لليهود. والحق أنه لا التلمود ولا أسفار العهد القديم يمكنها تفسير أو اختصار الظاهرة اليهودية الماضية أو المعاصرة، لأنها حالة بالغة التركيب، تتجاوز التفسيرات النصوصية والنماذج الأحادية. لذلك، لا تقصد هذه المقتبسات من التلمود ترذيل اليهود، بل محاولة لفهم حالة ثقافية بالغة القدم، تتصل بتراث وثقافة الشرق الأدنى القديم، كأحد مصادره المدونة. وتقدم هذه المراجعة جوانب تاريخية اجتماعية أنثروبولوجية لصورة الآخر ضمن ثقافة قبلية، يتموضع فيها «الدين» بمركز البنية القبلية، وتصبح شرائعه وعاء للقبيلة وأداة لتماسكها وتميزها واستمرارها. لكن في كل الأحوال تبقى حقيقة أن ربط التلمود بالصهيونية إسباغ للقداسة على مشروع استيطاني بلا قداسة!

المقتبسات من كتاب الآخر في التلمود: ترجمة باب العبادات الأجنبية في التلمود، ترجمة شيماء مجدي حسن، ومراجعة وتقديم الدكتورة ليلى ابراهيم أبو المجد. صدرت هذه الترجمة عن دار العلوم للنشر والتوزيع عام ٢٠٠٧ م.

المالية الأخرى. وفى نفس الوقت فإن المشروعات الكبرى تتوقف بدورها أو تتريث عن القيام باستثمارات جديدة حتى تتضح الصورة. فحالة عدم اليقين تخلق جواً من الشلل العام فى النشاط الاقتصادى، ليس فقط بسبب الفقاعة المالية وحدها، وإنما لإحجام المدخرين والمستثمرين عن التعامل فى الأسواق. ولايقل عن هذا الشعور «بعدم اليقين» uncertainty الذى هو عدو الاستقرار الاقتصادى. ولذلك فإن هدف السياسة فى المدة القصيرة هو إعادة الثقة للأسواق وإعادة الأمل فى الأسواق المالية.

إنقاذ الأصول المسمومة

أم زيادة رؤوس أموال البنوك؛

إذا كان من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، عودة النشاط الاقتصادى دون وجود مؤسسات مالية قادرة. فقد اتجه الرأى فى أول الأمر إلى ضرورة تدخل الحكومات بتخليص البنوك والمؤسسات المالية من أصولها «المسمومة» لتحسين أوضاعها المالية وبالتالى تمكينها من العودة إلى نشاطها الطبيعى فى دفع معدلات الاستثمار من جديد إلى أوضاعها الطبيعية. وكان وزير الخزانة السابق فى إدارة بوش (بولسن) قد اقترح أن تقوم الحكومة بشراء هذه الأسهم «المسمومة» بأسعار مناسبة. ومع ذلك فقد قامت مشكلة: كيف تقوم هذه الأصول بعيداً عن السوق، وما هى القيمة الحقيقية لهذه الأصول؟ لا أحد يعرف هذه القيمة؟

لذلك رأى جوردن براون رئيس وزراء انجلترا أن الحل ينبغى أن يكون بزيادة رؤوس أموال البنوك من جانب الحكومات حتى تتمكن هذه البنوك من العودة إلى نشاطها برؤوس أموال أكبر. ولكن تبين أن البنوك، حتى مع زيادة رؤوس أموالها، فإنها لا تزال مترددة فى التوسع فى النشاط نتيجة لجو التشاؤم السائد. ولذلك فإن المطلوب هو تحريك أسواق الأوراق المالية وإعادة النشاط إليها لتحفيز البنوك على معاودة دورها.

ولعله من الطريف أن نلاحظ فى هذا الصدد تطوراً فى الاصطلاحات المستخدمة. فبعد الحديث عن «الأصول المسمومة»، فضلت البنوك تسميتها «بالأصول المشكلة» Problem assets، لأنها ليست كلها أصولا فاسدة تماماً بل يمكن أن ترتفع قيمها إذا استعاد السوق الثقة. وفى مقترحات وزير الخزانة الأمريكى الجديد نجده يتحدث عن «الأصول الموروثة» Legacy assets، لأنها ليست بالضرورة «مسمومة» ولا حتى «مشكلة»، ولكنها فقط «موروثة» عن فترة سابقة، ويمكن إعادة إحياء قيمتها فيما لو تحسنت الأحوال الاقتصادية.

ولذلك تقدم وزير الخزانة الأمريكى الجديد بمقترحات تتضمن، بالإضافة إلى المشاركة فى رؤوس أموال البنوك أو حتى العمل على إدماجها مع غيرها من المؤسسات المالية (كما اقترح براون)، السعى أيضاً إلى العمل على رفع قيمة هذه الأصول «المسمومة» فى الأسواق عن طريق تشجيع إنشاء شركات استثمارية جديدة لشراء هذه الأسهم بأسعار أفضل. وفى هذا الاقتراح الجديد تقوم الحكومة بدعم إنشاء شركات استثمارية خاصة جديدة بتمويل من السوق بغرض الاستثمار فى هذه الأصول المالية «الموروثة» للإفادة من المستويات المتدنية فى أسعارها، مع التزام الحكومة بمساعدة هذه الشركات مالياً. فمقابل كل دولار تجمعه هذه الشركات المقترحة من الأسواق، تضع الحكومة دولارين أحدهما مشاركة والآخر قرض للشركة. وبذلك تتجمع لهذه الشركات الجديدة أموال كافية لإعادة النشاط إلى الأسواق المالية. ويهدف اقتراح وزير الخزانة الجديد إلى تحقيق أمرين فى غاية الأهمية، الأول تنشيط الأسواق المالية بتوفير مصادر جديدة للتمويل للاستثمار فيها والإفادة من أسعارها المتدنية مما يرفع من قيمتها، والثانى ألا تتحدد هذه القيم الجديدة للأصول المالية بأسعار تحكمية تفرضها الحكومة وإنما من خلال الطلب والعرض فى السوق.

فهل تنجح هذه السياسات؟ سوف يتوقف الأمر فى نهاية الأمر على مدى استجابة الأسواق لهذه السياسات ومدى قدرتها على استرجاع الثقة المفقودة فى الأسواق المالية. فهى رهان على الثقة فى الحكومة الأمريكية وفى الاقتصاد الأمريكى. والمستقبل كفيل بالإجابة عن هذا الرهان الكبير. ■

تقويض الأساطير المؤسسة

■ ■ فى تحد سافر للأيديولوجية أو بالأحرى للأسطورة المؤسسة للمشروع الصهيونى، أصدر المؤرخ الإسرائيلى شلومو صاند، أستاذ التاريخ الأوروبى بجامعة تل أبيب، كتاباً قبل بضعة أشهر بعنوان: متى وكيف جرى اختراع الشعب اليهودى؟ الصادر باللغة العبرية عن دار رسلينغ الإسرائيلية فى شهر مارس/آذار الماضى. بيد أن ليس هناك من فوجئ أكثر من شلومو صاند نفسه الذى احتل كتابه هذا موقعاً على قائمة الكتب الأكثر مبيعاً فى إسرائيل لمدة ١٩ أسبوعاً متصلة. وقد نال الكتاب هذا النجاح رغم أنه يمس أكبر المحرمات فى إسرائيل.

يجادل الدكتور صاند بأن مفهوم وجود أمة يهودية بحاجة إلى وجود ملاذ آمن، الذى استخدم فى الأصل لتبرير تأسيس دولة اسرائيل، هو خرافة جرى اختراعها قبل أكثر من قرن بقليل. استند المؤلف إلى أبحاث ودراسات تاريخية وأركيولوجية مكثفة للبرهان على هذه المقولة، وأخرى غيرها لا تقل عنها إثارة للجدل. كذلك يجادل المؤلف بأن اليهود لم يتعرضوا أبداً للنفى من الأرض المقدسة، ذلك أن معظم يهود العالم اليوم ليس لهم ارتباط تاريخى بالأرض المسماة إسرائيل، وأن الحل السياسى الوحيد لصراع إسرائيل مع الفلسطينيين هو إزالة الدولة اليهودية.

يرجح أن يتكرر النجاح الذى حققه كتاب صاند لدى نشره بأماكن أخرى من العالم. فالطبعة الفرنسية التى أطلقت فى سبتمبر/أيلول الماضى قد بيعت بسرعة مما استدعى إعادة طبعها ثلاث مرات. ويجرى ترجمة الكتاب حالياً إلى ١٢ لغة أخرى، بما فيها العربية والإنكليزية. لكن صاند يتوقع مساراً وعراً لكتابه عندما يصدر السنة القادمة بالإنكليزية عن ناشره الإنكليزى فيرسو Verso، بالولايات المتحدة. على النقيض، يرى المؤلف أن قراءه الإسرائيليين، إن لم يكونوا مؤيدين تماماً، فهم على الأقل لديهم فضول للاطلاع على الكتاب. فقد وصفه توم سيغيف، أحد أبرز كتاب إسرائيل، بأنه رائع ومثير للتحدى.

المفارقة أن معظم زملاء صاند من الأكاديميين الإسرائيليين قد أحجموا عن مناقشة مقولات الكتاب. الاستثناء الوحيد هو إسرائيل بارتل، أستاذ التاريخ اليهودى بالجامعة العبرية بالقدس، الذى كتب فى صحيفة هآرتز الإسرائيلية مناقشاً الكتاب؛ لكنه أنفق القليل من الجهد فى تفنيد مقولات الكتاب، بينما كرس معظم المقال للدفاع عن مهنته، أى التاريخ اليهودى. وأشار بارتل إلى أن المؤرخين الإسرائيليين ليسوا جاهلين بالطبيعة المخترعة للتاريخ اليهودى التى حاججها الدكتور صاند.



راودت فكرة الكتاب الدكتور صاند منذ سنوات عديدة، لكنه انتظر طويلاً قبل البدء بالعمل. وهو لا يدعى أى شجاعة خاصة إزاء نشر الكتاب الآن؛ فقد انتظر حتى أصبح أستاذاً (بروفسور) كاملاً. فهناك ثمن ينبغى دفعه فى الأوساط الأكاديمية الإسرائيلية مقابل الإفصاح عن توجهات من هذا النمط.

المقولة الرئيسة للدكتور صاند أنه قبل اكثر من قرن بقليل، كان اليهود ينظرون إلى أنفسهم كيهود فقط لأنهم يشتركون فى دين بعينه. ومع استهلال القرن العشرين، تحدى اليهود الصهاينة هذا المفهوم، وبدأوا يصوغون تاريخاً قومياً باختراع فكرة أن اليهود قد وجدوا كشعب (أمة) وعلى نحو منفصل عن دينهم. وبالمثل، فإن الفكرة الصهيونية الحديثة حول أن اليهود ملزمون بالعودة من المنفى إلى أرض الميعاد، كانت غريبة تماما بالنسبة إلى اليهودية.

لقد بدلت الصهيونية مفهوم «القدس». ففى الماضى، كانت الديار المقدسة تعتبر أماكن يتوق إليها اليهود، لا ليعيشوا فيها. ولمدة ألفى عام، مكث اليهود بعيداً عن القدس، ليس لأنهم لا يستطيعون العودة إليها، ولكن لأن دينهم يمنعهم من العودة إليها حتى قدوم المسيح. وجاءت المفاجأة الأبرز خلال بحثه عندما بدأ النظر فى الأدلة الأركيولوجية التى تعود لعصر التوراة.

يقول صاند أنه لم يَنشأ صهيونياً، ولكن شأنه شأن سائر الإسرائيليين اعتقد أن من المسلم به أن اليهود كانوا شعباً يعيش فى اليهودية (بين القدس والخليل)، وأنه تم نفيهم من قبل الرومان سنة ٧٠ ميلادية. ولكن حالما بدأ النظر فى الأدلة، اكتشف أن مملكتى داود وسليمان (فى فلسطين) كانتا مجرد أسطورة. والأمر كذلك بالنسبة لفكرة المنفى. فى الواقع، لا يمكن تبيان معنى اليهودية دون المنفى. ولكنه عندما بدأ البحث فى كتب التاريخ التى تصف أحداث المنفى، لم يجد أى منفى. ولا حدثا واحدا. ذلك أن الرومان لم ينفوا اليهود؛ بل الحقيقة أن اليهود فى فلسطين كانوا بأغلبيتهم فلاحين، وكل الأدلة تشير إلى أنهم بقوا فى أرضهم.

عوضاً عن ذلك، يعتقد صاند أن هناك نظرية بديلة أكثر معقولية أو قبولاً: المنفى أسطورة روّجها المسيحيون الأوائل لتجنيد اليهود فى الإيمان الجديد. فقد أراد المسيحيون لاحقاً أن تعتقد أجيال اليهود بأن أسلافهم تعرضوا للنفى كعقاب إلهى لموقفهم من المسيح.

ولكن حتى لو لم يكن هناك نفى أو منفى، فكيف انتهى هذا العدد الكبير من اليهود إلى التناثر فى جميع أنحاء العالم قبل أن تبدأ دولة إسرائيل الحديثة فى تشجيعهم على «العودة»؟

يرى البروفسور صاند أنه فى القرون السابقة للحقبة المسيحية واللاحقة مباشرة بها، كان التبشير بالدين اليهودى قائماً وكانت اليهودية فى أمس الحاجة إلى معتنقين جدد؛ وهذا مذكور فى الأدبيات الرومانية لذلك الزمن. ارتحل اليهود إلى مناطق أخرى بحثاً عن «مهتدين» لا سيما فى اليمن وبين قبائل البربر بشمال أفريقيا. وبعد عدة قرون، تحول شعب مملكة الخزر فى ما هو اليوم جنوب روسيا، بشكل جماعى لليهودية، ليصبح ذلك منشأ يهود الأشكناز بأوروبا الوسطى والشرقية.

يشير الدكتور صاند إلى حالة إنكار غريبة يعيشها معظم الإسرائيليين. فقد لاحظ أن الصحافة قد قدمت تغطية واسعة فى الأونة الأخيرة لاكتشاف عاصمة مملكة الخزر المجاورة لبحر قزوين. فموقع صحيفة يديعوت أحرونوت الأوسع انتشاراً فى إسرائيل، يعرض القصة بعنوان: «علماء الآثار الروس يعثرون على عاصمة يهودية فقدت منذ زمن طويل». ورغم ذلك لم تهتم أى من الصحف بأهمية هذا الاكتشاف بالنسبة لروايات التاريخ اليهودى المعتمدة.

السؤال الآخر المترتب على رؤية الدكتور صاند للتاريخ اليهودى، كما يلاحظه هو ذاته: إذا كان معظم اليهود لم يتركوا الأرض المقدسة، فماذا جرى لهم؟

رغم أن ذلك لا يُدرّس فى المدارس الإسرائيلية، لكن معظم القادة الصهاينة الأوائل، بمن فيهم ديفيد بن غوريون (أول رئيس وزراء لإسرائيل)، كانوا يعتقدون أن الفلسطينيين المعاصرين منحدرون من سلالة يهود المنطقة الأصليين؛ وأن اليهود قد اعتنقوا الإسلام لاحقاً. يعزو الدكتور صاند إحجام زملائه الأكاديميين عن الاشتباك معه علمياً إلى اعتراف ضمنى من جانب العديد منهم بأن بنيان التاريخ اليهودى الذى يدرّس بالجامعات الإسرائيلية قد أقيم كبيت من ورق.

تعود مشكلة تدريس التاريخ فى إسرائيل، كما يرى الدكتور صاند، إلى قرار اتخذ فى الثلاثينيات بتقسيم دراسة التاريخ إلى تخصصين: التاريخ العام والتاريخ اليهودى. يفترض تخصص التاريخ اليهودى أنه بحاجة لحقل دراسى خاص نظراً لفرادة الخبرة اليهودية التاريخية!

ليس هناك قسم يهودى للسياسة أو العلوم الاجتماعية بالجامعات الإسرائيلية. إنما هو التاريخ فقط الذى يدرس بهذه الطريقة؛ وهذا ما أتاح للمتخصصين بالتاريخ اليهودى بالعيش فى تحفظ وعزلة تحول دون تأثرهم بالتطورات الحديثة فى البحث التاريخى.

تعرض صاند للانتقاد فى إسرائيل لأنه كتب فى التاريخ اليهودى، بينما كان تخصصه هو التاريخ الأوروبى. لكن كتاباً كهذا الكتاب يحتاج بالفعل مؤرخاً مطلعاً على المفاهيم القياسية المعتمدة فى البحث التاريخى لدى الأوساط الأكاديمية فى بقية العالم. ■

مازن النجار

Matai ve'ech humtza ha'am hayehudi?

متى وكيف جرى اختراع الشعب اليهودى؟

شلومو صاند

Risling - 2008

كغطاء لمهامى السرية عملت فى السودان كصحفى ومندوب للإعلانات

كنت نائبا لرئيس المخابرات

عبدالفتاح أبو الفضل

■ ■ بعد التوقيع على اتفاقية الجلاء فى ٢٧/ ٧/ ١٩٥٤ انتهت أعمالى فى مكتب مخابرات الإسماعيلية، وعدت للعمل بالقاهرة وهناك علمت أن مهمتى القادمة هى العمل فى السودان وأننى سأعمل كمراسل صحفى لجريدة الجمهورية ومندوبا لشركة الإعلانات المصرية التابعة لدار الجمهورية.

لأجل الغطاء فى عملى بالسودان كمراسل صحفى فقد قمت بتقديم طلب للعمل فى دار الجمهورية وشركة الإعلانات المصرية وصار تعيينى فيها، وقد وضع لى برنامج تدريب دقيق لأجل أن ألم بأعمال المراسل الصحفى ومندوب شركة إعلانات، وقام بتدريبى مع شخص آخر متخصص فى الإعلانات وآخر فى الصحافة ومررت بأقسام الإعلان بجميع فروعها ثم بأقسام التحرير ثم التوزيع، وأصبحت فى خلال شهرين جاهزا للعمل تحت هذا الغطاء وصار استخراج بطاقة صحفية بنفس اسمى وبطاقة Press Collect أيضا.

وقبل توجهى إلى السودان أمضيت شهر ديسمبر سنة ١٩٥٤ فى التعرف على شخصيات مهمة، تعمل فى السودان ولكنها كانت فى مصر حينذاك بسبب مأموريات أو إجازات. من أهم هذه الشخصيات حسين ذو الفقار صبرى عضو مجلس السيادة بالسودان والمرحوم الأستاذ عبد العزيز السيد وكان وقتها يشغل منصب المدير المصرى لجامعة الخرطوم قبل أن يصبح وزيرا للتربية والتعليم وهو أصلا أستاذى فى العلوم الرياضية بالكلية الحربية. كما تعرفت إلى الأستاذ صلاح محمد على مدير وكالة الأنباء العربية بالخرطوم وغيرهم ممن أفادونى كثيرا فى تسهيل عملى الصحفى والسياسى فى السودان بعد ذلك.

ومن خلال دراساتى ومقابلاتى وأحاديثى التى قمت بها تمكنت من وضع ملخص للموقف العام فى السودان وعلاقاته بمصر.

وعلى أعتاب توجهى إلى السودان كانت عوامل كثيرة تعمل ضد صالح مستقبل العلاقات بين مصر والسودان.

للاستزادة:
كنت نائبا لرئيس المخابرات
عبدالفتاح أبو الفضل
دار الشروق - ٢٠٠٨ - ٣٠٠ صفحة



مع بعض قادة جيش التحرير الجزائرى على الحدود المغربية الجزائرية



مع المناضلين الجزائريين فى القاعدة المغربية على الحدود الجزائرية وفى أقصى اليمين الصحفى المرحوم إسماعيل الحبروك

فالحزب الوطنى الاتحادى (حزب الأزهرى ونور الدين) وهو حزب الأغلبية البرلمانية تنكر لمبدئه وهو الوحدة مع مصر وأصبح ينادى بالانفصال عن مصر أملا فى الاستقلال كلية. ونظام الحكم المصرى لا يحظى فى السودان برضاء أحزاب الأغلبية ولا أحزاب الأقلية، وكذلك الرأى العام يؤيد الاتجاه الانفصالى لتأثره بتصرفات ثورة ٢٣ يوليو مع صديقهم الرئيس محمد نجيب. وبريطانيا تلعب دورا مستترا فى محاولة إقناع الرأى العام السودانى بأن أفضل الحلول للسودان هو الحصول على استقلال مرتبط بالتاج البريطانى كالنظام، ولو فى شكل بقاء الحاكم العام البريطانى الذى كان معمولا به فى الهند. وكانت بريطانيا على اتصال وتعاون وثيق مع أتباع المهدى زعيم طائفة الأنصار وحزب الأمة.

وعلى ضوء هذا الموقف تحددت تفاصيل مهمتى وعلى رأسها الإجابة عن سؤال مهم جدا: هل هنالك أمل فى الوحدة؟ أم انقطع الأمل تماما؟ كما كان علىّ أن أدرس جذور الوضع المتردى وموقف التيارات المختلفة ضد الوحدة وأسباب تلك الحقيقة وهى بالتحديد مواقف الأحزاب التى تنادى بالانفصال وتلك التى تنادى بالوحدة، وكذلك مواقف طوائف أتباع المهدى والخاتمية أتباع الميرغنى.

ولكى أتمكن من الحصول على الإجابات الصحيحة لمهمتى كان لابد لى من تكوين دائرة واسعة من المعارف يكون لها اتصالات وثيقة وقريبة من معظم التيارات السياسية الموجودة فى السودان. وفى أول يناير سنة ١٩٥٥ سافرت إلى الخرطوم بعد أن سبقنى إلى هناك مساعداى، صديقى زميل الدراسة محمد غالب وكان أبوه سودانيا ومساعدى الآخر عبد الفتاح فرج وهو مصرى، وأصلا من قبيلة الدنكا بجنوب السودان.

وعند وصولى للخرطوم توجهت لزيارتهما وكانا قد أقاما بفندق يملكه رجل سودانى خفيف الظل وشهرته (كيشو). وكان الفندق ملتقى الشباب المثقف فى الخرطوم فهو مكانهم المفضل وخاصة اليساريين السودانيين. كما كان المكان المفضل لإقامة أعضاء البرلمان الجنوبيين.

وتوطدت علاقاتى بعدد كبير من شباب السودان المثقفين ومعظم

الحديث الكثير هذه الأيام عن مدى وحدود التزام العمل «السرى» الثورى بالمفاهيم القانونية «التقليدية» لسيادة الدول، يستحضر فى الذاكرة العربية وقائع من قبيل مايرويه هذا الكتاب

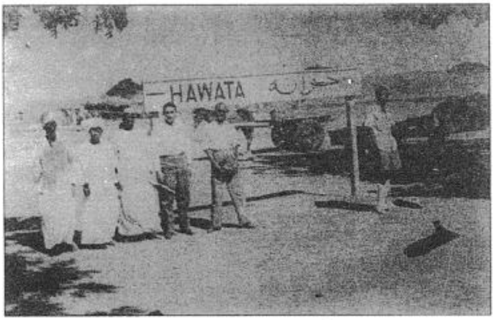
السياسيين الجنوبيين والكثير من عناصر الحزب الوطنى الاتحادى الذين تمسكوا بمبدأ «الوحدة مع مصر ثم استطعت من خلال المعارف والأصدقاء المقربين توسيع دائرة معارفى أكثر لتشمل عناصر الجناح الموالى لمصر (جناح نور الدين) داخل الحزب الوطنى الاتحادى وتمكنت من التعرف إلى بعض أعضاء البرلمان الشماليين والجنوبيين وكذلك شملت دائرة معارفى العديد من المصريين خاصة المدرسين، ومهندسى الرى.

وكانت هذه الدائرة الواسعة من المعارف مصدرا مهما لمعرفة حقيقة الأوضاع بالسودان، وبعد فترة أخرى وجيزة توطدت علاقاتى وصداقاتى بكثير من العناصر السياسية السودانية الذين كانت لهم مواقف معادية من الوحدة مع مصر، ولذلك فقد كانوا فى كل المناسبات يعبرون - بصدق - عن حبهم لمصر وللمصريين. وكنت أعجب لذلك فى بادئ الأمر حتى نبهتنى الواقعة التالية، التى عبر فيها الشعب السودانى - تلقائيا - عن ذلك التناقض.

واقعة سينما الخرطوم

حضرت فى إحدى الأمسيات عرضا سينمائيا بإحدى دور العرض بالخرطوم وحين عرضت الجريدة الإخبارية الناطقة فى بداية العرض، ظهرت ملكة بريطانيا فى إحدى الفقرات وفى إحدى المناسبات البريطانية، وكانت تمتطى صهوة جواد من خيول الحرس الملكى المطهمة وترتدى ملابس الحرس الملكى الملونة الفخمة فتؤدى التحية العسكرية للحرس المصطف أمامها فى خشوع ونظام. عند ذلك ضجت قاعة السينما المحتشدة بالشعب السودانى، وأخذوا يصفقون أثناء هذه اللقطة تصفيقا شديدا ويهمهمون استحسانا، وتلت هذه الفقرة أخرى ظهر فيها جمال عبد الناصر وهو يخطب فى الجماهير المصرية وركزت الجريدة الناطقة الأجنبية عليه وهو فى حالة عصبية ظاهرة ويضرب بيده على المنصة بحماس فما كان من نفس الجمهور السودانى إلا أن ضج بالأصوات المعادية والسخرية لمرأى عبد الناصر.

كان هذا رد فعل تلقائيا لا يعبر عن حب أو سخط الشعب السودانى لبريطانيا أو مصر، ولكنه انعكاس صادق لمدى ما صنعه الاستعمار البريطانى فى نفسية الشعب السودانى بحيث شوه العلاقة الأخوية المصرية السودانية.



أثناء العمل فى السودان

الحركة الوطنية وتخطى الطائفية

كان للوجود المصرى الحديث فى السودان - وبنفس القدر الوجود السودانى فى مصر - أثر كبير فى نمو الحركة الوطنية الحديثة فى السودان بما عمله من فكر ووعى ثقافى وطنى وسياسى. وساعدت الأزمات السياسية التى كان يفتعلها الاستعمار فى مصر المحتلة والسودان المحتل إلى اشتعال جذوة الوطنية السودانية وإلى الخروج من التقوقع داخل الطرق الصوفية والطائفية التى أعلنت الولاء فجأة للمستعمر البريطانى بعد كفاح طويل واستقلال دام على يدها لمدة ١٣ عاما عندما اندلعت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وذهب الوفد المصرى إلى مؤتمر باريس للمطالبة بالاستقلال.

تجاوبت الحركة الوطنية السودانية الجديدة مع الثورة المصرية وقامت المظاهرات الصاخبة فى السودان مطالبة بوحدة وادى النيل وكان على رأس المتظاهرين الضابط السودانى المتقاعد محمد أمين هديب.

عقب تصريح بريطانيا فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ قامت جمعية «الاتحاد السودانى» وكان لأحد الضباط المصريين (محمد فتوح) علاقة بها وهو فى الوقت نفسه كان صديقا للبطل الضابط السودانى على عبد اللطيف وكانت هذه الجمعية تجمع المثقفين السودانيين ونظمت مظاهرة مطالبة أيضا بوحدة وادى النيل. وأحيل الضابط عبد اللطيف إلى المعاش وكون جمعية سرية جديدة اسمها «اللواء الأبيض» وكان من ضمن تنظيمها عدد كبير من موظفى البريد والتلغراف والتليفونات (حققوا سرعة الاتصال ونشر الدعوة الوطنية). وفى مواجهة التجمع الطائفى الاستعمارى عند نشرهم وثيقة الولاء لبريطانيا، وتأكيدهم فى هذه الوثيقة على اختيارهم لبريطانيا دون مصر. وقادت «اللواء الأبيض» المظاهرات ضد بريطانيا والطائفية المتعاونة معها خصوصا بعد اعتقال السلطات البريطانية لمندوبى «اللواء الأبيض» بسبب السفر إلى مصر للمطالبة بوحدة وادى النيل.

عمت المظاهرات الخرطوم وأم درمان ووادى مدنى وحلفا والأبيض وبور سودان ومالكال وكسلا وكان المتظاهرون السودانيون يرفعون العلم الأبيض وخريطة النيل واعتقل على عبد اللطيف فى ١٩٢٤/٧/٤ وحكم عليه بالسجن واندلعت الثورة (سنة١٩٢٤) فى السودان مؤكدة على المطالبة بوحدة «وادى النيل» ومتخطية عمال الطائفة المتعاونة مع الاستعمار. وخرج طلبة الكلية الحربية السودانية فى مظاهرات وطنية نظامية ويشتعل حماس الجماهير لمنظرهم ١٩٢٤/٨/٩.

بعد انسحاب الجيش المصرى من السودان سنة ١٩٢٤ طبقا للإنذار الذى قدمه الإنجليز لحكومة مصر على إثر اغتيال السردار، انفرد الإنجليز بالسودان، وأخذوا يثيرون طائفتى الختمية والمهدية الجديدة (المهدى ختمية) لتوسيع شقة الخلاف بين مصر والسودان. ومع ذلك استمرت القوى الوطنية السياسية فى التجمع والانتشار إلى أن تكون أول تنظيم سياسى وطنى عام ١٩٣٨.

فى عام ١٩٣٨ تكون المؤتمر القومى العام للخريجين يضم الخريجين السودانيين من مراحل التعليم المختلفة ووجد هذا التنظيم مقاومة من الحكومة.

فى عام ١٩٤٢ طالب مؤتمر الخريجين السلطة الحاكمة بحق تقرير المصير وقوبل بما يشبه الرفض وعلى أثر ذلك انشق مؤتمر الخريجين إلى:

(أ) المعتدلين: وأغلبهم من العناصر ذات الولاء للمهدى ختمية وكان على رأسهم إبراهيم أحمد وكانوا على صلة بشكل أو بآخر بالحكومة ويؤيدونها.

(ب) المتشددين: وكانوا من القوى السياسية الوطنية وكانوا يطالبون بالحرية وحق تقرير المصير بزعامة إسماعيل الأزهرى وتجاوب الرأى العام السودانى مع الأزهرى فكون حزب الأشقاء وكان هدفه الاتحاد مع مصر. وكانت الختمية فى هذا الوقت تأخذ جانب التقارب مع مصر غيرة من المهدية فكان حزب الأشقاء تحت رعاية الختمية (على الميرغنى) وكانت مصر تؤيد هذا الحزب. والجانب الآخر من الخريجين انضم تحت لواء عبد الرحمن المهدى، وكونوا حزب الأمة برئاسة ابنه صديق المهدى وكان هذا الحزب ينادى باستقلال السودان التام (السودان للسودانيين)..

- سنة ١٩٤٨ قاطع حزب الأشقاء انتخابات الجمعية التشريعية التى أقامها البريطانيون وعارضتها حكومة مصر، ونظم الحزب المظاهرات ضد الجمعية التشريعية واعتقل زعيم الحزب إسماعيل الأزهرى.

- ثم قامت الختمية بتبنى فكرة تكوين جبهة وطنية، وكان ذلك نتيجة صراع داخل حزب الأشقاء وكانت هذه الجبهة الوطنية

تدعو إلى عدم الارتباط الكامل بمصر. وكانت تحت رعاية الميرغني.

● سنة ١٩٥١ تكون الحزب الجمهوري الاشتراكي يعارض الاتحاد مع مصر.

● بعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ قام الرئيس محمد نجيب بالمبادرة لحل قضية السودان وعمل على جمع الشمل السوداني واندمج حزب الأشقاء مع الجبهة الوطنية في الحزب الوطني الاتحادي بزعامة الأزهري.

وقد خرج الحزب الوطني فجأة بإعلان استقلال السودان الكامل ومعارضا الوحدة مع مصر مدعيا الظروف السابق الإشارة إليها.

ثالثا: تاريخ اللعبة البريطانية في السودان

بدأت الأطماع البريطانية في السودان عقب احتلالها لمصر عام ١٨٨٢وكان للسودان وضع خاص بالنسبة للوجود المصري بها بموجب «الفرمان السلطاني التركي في ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ بنقل ولاية مصر على السودان». توالت على السودان أحداث الثورة المهدية حتى استطاع محمد أحمد المهدي أن يحقق انتصارات متتالية وكانت الجيوش المصرية تسيطر على أجزاء كثيرة من السودان، وبخاصة في الشرق.

وانتهزت بريطانيا الفرصة لابتلاع السودان من يد الإمبراطورية العثمانية المنهارة، ومن الولاية المصرية المحتلة ففرضت على مصر إخلاء السودان، لكن رئيس الوزراء المصري شريف باشا رفض إخلاء السودان بموجب فرمان ١٧ أغسطس سنة ١٨٧٨ لأنه يحظر على مصر التصرف في الأقاليم السودانية. كان ذلك بموجب مذكرة أرسلها شريف باشا إلى سير أفلين بارنج في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٣، ثم استقال شريف باشا بضغط بريطانيا وتولى نوبار باشا الوزارة فنفذ ما طلبه الإنجليز بإخلاء السودان سنة ١٨٨٤.

ولأجل الانفراد كاملا باحتلال السودان فرض على الحكومة المصرية سنة ١٨٩٩ الخاضعة تماما للإرادة البريطانية توقيع وثيقة استعمارية بين حكومتي بريطانيا ومصر، ووجدت بريطانيا في رئيس وزراء مصر الضعيف الشخصية بطرس غالي الرجل المناسب لتسليم مقدرات السودان إلى السلطة البريطانية بموجب اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩.

وبعد ستة أشهرمن توقيع الاتفاقية الأولى وكانت مادتها الأولى تعترف بحق رفع العلم المصري فقط على سواكن والتي لم ينسحب منها الجيش المصري طول فترة الثورة المهدية. أبرم كل من كرومر وبطرس غالي مرة أخرى في ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ اتفاقا آخر أنهى شكل الوجود المصري كلية من سواكن أيضا، وهذا هو ما يطلق عليه اتفاقيتي سنة ١٨٩٩.

اللعبة البريطانية بمياه النيل

منذ تثبيت أوضاع الاستعمار البريطاني في السودان وطبقا لاتفاقيتي سنة ١٨٩٩ المشئومتين، فقد أكدت هاتان الاتفاقيتان على أن يكون الحاكم العام للسودان بريطانيا. وفي الوقت نفسه سرداراً للجيش المصري حتى يضمن الإنجليز السيطرة على أوضاع الجيش المصري، وبموجب هاتين الاتفاقيتين تنبه البريطانيون إلى أهمية مياه النيل بالنسبة لمصر بالمقام الأول ثم السودان وإمكان اللعب بها.

وكان المخطط البريطاني والمتحكم في أمور مصر والسودان يختص مصر بالنصيب الأكبر من مياه النيل وبشكل مبالغ فيه لأسباب في نفس يعقوب وليس من أجل مصالح مصر، فمصر اعتبرها الإنجليز منذ الاحتلال مزرعة القطن التي تشغل مصانع الغزل والنسيج في بريطانيا.. وكان من مصلحتهم ازدهار الزراعة في مصر حتى تزدهر صناعة وتجارة المنسوجات في بريطانيا، وفي الوقت نفسه لم تكن السودان وقتها في حاجة إلى كميات كبيرة من المياه لتخلف الأمور الزراعية فيها، ولاعتمادها بصفة رئيسية على مياه الأمطار كما أن بريطانيا درست نفسية الشعب المصري الذي تعد الزراعة بعداً أساسيا في حياته فهي تقدر مدى حرصه على المياه.

في عام ١٩٢٩ أبرمت اتفاقية مياه النيل مع مصر ونالت مصر نصيب الأسد من مياه النيل على حساب السودان حيث تحددت حصة مصر بـ ٤٨ مليار م٣ سنويا والسودان ٤ مليار م٣ سنويا فقط، وهذا التميز ترك آثارا سيئة على نفسية القوى الوطنية السودانية على مر الزمن. في الوقت نفسه عمل البريطانيون منذ وجودهم في السودان على إقامة مشروع الجزيرة وأنشأوا فيها زراعة القطن بغرض منافسة السودان لمصر في هذه الزراعة وطرح إمكانية حصول السودان على نصيب من مياه النيل على حساب حصة مصر المبالغ فيها، لذلك عقب مقتل سردار الجيش المصري وحاكم عام السودان على يد الوطنيين في القاهرة، قدم البريطانيون إنذارا إلى حكومة سعد زغلول، ومن ضمن شروطهم إعطاء السودان كمية مفتوحة وغير محدودة من مياه النيل، مما أوجد بعض المرارة لدى المصريين وأعطت حقا مستقبلا للسودانيين يصعب استرجاعه منهم بواسطة المصريين.

هذه اللعبة البريطانية الخبيثة خفيت أبعادها في وقتها عن عقلية المصريين والسودانيين، ولكن ثمارها ظهرت بعد اتفاقية السودان (٢فبراير سنة ١٩٥٣) فعندما عقدت مفاوضات مياه النيل بين مصر والسودان بالقاهرة في أبريل سنة ١٩٥٥ ظهرت جذور ما حفره الإنجليز من تناقض بين المطالب المصرية والحقوق السودانية، وفشلت هذه المفاوضات بشكل مأساوي مما كان له أثر بالغ على العلاقات المصرية السودانية بل إنها كانت من الأسباب الرئيسية في استبعاد فكرة الوحدة مع مصر.

أول عملية بالسودان

كان الأستاذ صلاح محمد علي رئيس وكالة الأنباء العربية يعمل مع مدير جريدة (Morning News) وهي جريدة باللغة الإنجليزية تصدر في السودان، وكان المدير بريطانيا أقام بالسودان مدة طويلة جدا، وعلمت من صلاح محمد علي أن لهذا الرجل نشاطا اجتماعيا ورياضيا واسعا فهو حريص على سباق الخيول ويقوم بالتحكيم أثناء السباق، وعند متابعة أخبار ونشاطات هذا الرجل ساورنا أنا وصلاح شك في أن هذا البريطاني يقود شبكة الجاسوسية البريطانية بالسودان، وعن طريق صديق لنا داخل مصلحة التليفونات السودانية وضعت مكالمات هذا المدير تحت المراقبة.

وبعد مدة وجيزة من وضعه تحت المراقبة تأكدنا من أنه على اتصال مريب بجميع المستشارين البريطانيين في حكومة السودان، فهو يتلقى منهم أدق المعلومات وهم بدورهم يعملون بتعليماته، كما ثبت اتصاله بمعظم وكلاء الوزارة الدائمين بحكومة السودان، وظهر أن معظمهم يتعاون تعاونا كاملا مع بريطانيا. إلا أن أخطر ما تأكدنا منه هو علاقته المريبة برئيس مكتب الاتصال الحبشي بالسودان (ملس عندوم) وكان يعتبر من أخطر عملاء الولايات المتحدة الأمريكية في السودان.

وفي الوقت نفسه تمكنا بعد مجهود شاق من استمالة سكرتير مدير جريدة (Morning News) السوداني للعمل معنا، وقد تمكن هذا السكرتير من الحصول على نسخة من مفتاح خزينة المدير الإنجليزي التي يحتفظ فيها بالأوراق السرية فقمنا بتصويرها وإعادتها إلى مكانها ثانية.

وعن طريق هذه المستندات القيمة تأكدنا من أن هذا المدير رئيس شبكة الجاسوسية البريطانية بالسودان وبالتالي حصلنا على المعلومات التي أثبتت أن «ملس عندوم» الذي تعلم بمصر في مدارس أسيوط على علاقة وثيقة بالمخابرات الأمريكية، وعن طريق التنصت على مكالماته التليفونية تبين لنا أنه على اتصال ببعض العناصر المصرية الأصل والسودانية الجنسية التي يهمها بقاء الاستعمار البريطاني في السودان لازدهار أعمالهم.

وللأسف وعلى الرغم من كشف العلاقة المريبة «ملس عندوم» والتي سجلتها في المخابرات المصرية إلا أن مصر وافقت في وقت لاحق أن يكون سفيرا للحبشة بمصر ولفترة طويلة، وكان عميدا للسلك الدبلوماسي الأجنبي في مصر ثم أكرمته مصر فصار لاجئا سياسيا بعد سقوط هيلاسلاسي. كذلك كشفت هذه المستندات السرية عن الخطط والتدابيرالبريطانية لعزل السودان كلية عن مصر.

ولشغفي بالرحلات والاستكشافات قمت فيما بين فترات العمل بعدة رحلات استطلاعية إلى غرب السودان حتى الأبيض وإلى شرقه فوصلت حتى كسلا وبور سودان. ولحسن الحظ وبطريقة موفقة تكشف لي خلال إحدى هذه الرحلات، أحد الأسرار الاقتصادية الذي جعل من السودان مركز اهتمام بريطانيا وبالتالي جعل بريطانيا تخشى التقارب المصري السوداني.

في هذه المذكرات أيضا تفاصيل لجوانب أخرى من كواليس العلاقات «التاريخية» بين مصر والسودان، والتى كثر الحديث عنها أيضا هذه الأيام مع تطورات دارفور، وماتم كشفه عن عمليات غامضةاستهدفت قوافل ربما كانت تعمل فى تهريب السلاح

خلال رحلتى للأبيض اصطحبت معى مساعدى فى المكتب عبد الفتاح فرج السودانى الأصل الجنوبى.. وفى أحد أيام الرحلة استيقظت مبكرا وبعد أن تناولنا الإفطار خرجنا معا فى جولة بالمدينة، واسترعى انتباهى مبنى على النمط الأوربى الحديث، وفى ملابسهم البيضاء الناصعة أحاطت جموع غفيرة من السودانيين بالمبنى، ولاحظت أحد الأجانب الذين يقيمون معنا بالفندق وهو يقف بجوار المبنى ويتحدث مع فريق من جموع السودانيين.

أثار الموقف فضولى فسألت عن سر المبنى وسبب تجمع الناس من حوله، فعلمت أننا فى موسم لتسويق محصول السودان من الصمغ العربى وأن السودان تستأثر بحوالى ٨٥٪ من حصة الإنتاج العالمى لهذا المحصول.

أما المبنى الحديث هذا فهو مبنى بورصة الصمغ العربى.. والرجل الأجنبى الواقف فى وسط السودانيين مندوب الحكومة البريطانية ويعمل مستشارا لشركات تجارة الصمغ العربى.. وقد اعتاد الحضور كل عام فى هذا الموسم ليشرف على عملية تجارة الصمغ العربى. أما باقى السودانيين ذوى الملابس الوطنية البيضاء فمعظمهم مندوبون للشركات الأجنبية التى تقوم بشراء الصمغ العربى من السودان، والأبيض، تعتبر مركز تجميع هذا المحصول.

ودفعنى الفضول لدخول مبنى البورصة فلم يعترضنى أحد إلا أن الجميع أخذوا ينظرون إلى مستغربين ومستفسرين عمن أكون، وتغاضيت عن هذا ووقفت أراقب ما يحدث، فبدأت المزايدات لشراء وبيع الصمغ العربى، ولاحظت أن ثلاثة فقط من مندوبى الشركات هم أنشط المندوبين حيث تمكنوا من الحصول على معظم المحصول المطروح فى البورصة وبأسعار متفاوتة بنسبة ضئيلة جدا، وعند الاستفسار علمت أن مندوب شركة جلاتلى وهانكى Glatly and Hanky هو الذى تمكن من الحصول على معظم الكمية المطروحة، وأن هذه الشركة البريطانية يرأس مجلس إدارتها الجاسوس البريطانى الشهير فى البلاد العربية «عبد الله فلبى» وكان يشغل فى الوقت نفسه منصب المستشار السياسى للملك سعود. أما ما تبقى من المحصول فقد حصلت عليه أيضا شركتان بريطانيتان وهكذا احتكرت بريطانيا الصمغ العربى.

وعند وجودى فى أول إجازة بمصر اتصلت بالدكتور رياض تركى وكان رئيسا لمركز البحوث القومى وبعد سرد القصة كاملة عليه فكر قليلا ثم أجاب إنه يعلم أن الصمغ العربى له استخدام مهم فى تكنولوجيا استخراج البترول. وأشار على بزيارة حقول البترول البريطانية فى البحر التابعة لشركة شل (Shell) وأعطانى اسم أحد المهندسين الجيولوجيين المصريين العاملين هناك وهو من تلاميذه وعلمت بالفعل أن الصمغ العربى يستخدم فى عملية حفر آبار البترول، فعندما تدور البريمة بسرعة فائقة خلال عملية الحفر ينتج عن تلك الحركة السريعة حرارة مرتفعة فيبرد بواسطة خليط من الطفلة والصمغ العربى ويسمى هذا الخليط Draga Gum. وكذلك عندما يتأكد من وجود البترول تصنع ماسورة خاصة من نفس هذا الخليط ليمر من خلالها البترول المتدفق من البئر، فهذه الماسورة الخاصة هى الوحيدة القادرة على مقاومة تيار البترول المتدفق واحتكاكاته كما تحمى البريمة أثناء عملية الحفر من التآكل والكسر. وعند عودتى إلى القاهرة واطلاعى على إحصائيات التجارة الدولية تبين لى أن بريطانيا كانت وقتها هى المحتكر الوحيد لتجارة هذه المادة وأنها تعيد بعد ذلك توزيعه وبيعه إلى جميع الدول المنتجة للبترول. وبناء على ذلك رفعت تقريرا يتضمن قصة الصمغ العربى كاملة مع التوصية بأن تحاول مصر فى السنة التالية وفى موسم المحصول أن تقوم بشراء الصمغ العربى عن طريق بنك مصر فرع السودان وهو فرع كان يرأسه الأستاذ عمارة.

وبالفعل فى السنة التالية، وكنت قد تركت العمل بالسودان، علمت أن بنك مصر هناك قد تمكن من دخول المزاد، ونتيجة للمنافسة تسبب فى رفع السعر لصالح المنتج السودانى وحصلت مصر على حصة مجزية من النصيب الذى احتكرته بريطانيا طويلا.

من المطبخ السياسى إلى جزيرة آبا

خلال عملى فى السودان تناقلت أوساط شباب السودان أخبار صالون تتجمع فيه الشخصيات السياسية ورجال الأعمال السودانيون وبعض المستوطنين الأجانب وأعضاء البرلمان وبعض الدبلوماسيين الأجانب. وعلمت من هؤلاء الشباب أن ضيوف الصالون تقدم لهم الخمور وعندما تلعب الخمر برءوسهم تنطلق ألسنتهم بأسرار الدولة السياسية والاجتماعية فتتلقفها الآذان المتنبهة، وفى أمسيات هذا الصالون كان يتم طبخ سياسة السودان العليا كما كان يحدث فى مصر فى «كلوب» محمد على قبل الثورة.

وفى فيلا كبيرة تملكها أرملة أحد أثرياء الأجانب من الإيطاليين الذين جمعوا أثناء عملهم بالسودان ثروات طائلة، كانت تقام أمسيات الصالون. وكان لهذه الأرملة ابنة على جانب كبير من الجمال، ولها نشاط اجتماعى واسع فى السودان وكانت مخطوبة لأحد الشبان اللبنانيين الذى يعمل فى شركة أجنبية كبيرة فى السودان وكان صديقا لمحمود سليم. وأوعزت لزميلى المصرى أن يدخل فيلا المطبخ السياسى بصحبة صديقه اللبنانى، تم ذلك بأسلوب طبيعى جدا.

وكان محمود سليم وسيما وعلى درجة من الثقافة فأمكن بسهولة اكتساب ثقة أعضاء هذا النادى السياسى الاجتماعى، وأصبح من أكثر أعضاء هذا المنتدى الاجتماعى محبة. وساعدتنى المعلومات التى كنت أحصل عليها منه عما يدور من أحاديث وأسرار فى هذا المطبخ السياسى الفريد فى نوعه على الوقوف على حقيقة أى حدث سياسى أو اقتصادى رسمى لا تعلن عنه الصحف، وكانت هذه المعلومات مادة صحفية فى منتهى الكفاءة، وكنت أرسلها إلى جريدة الجمهورية، أما المعلومات ذات الصبغة السرية فكنت أرسلها أولا بأول كتقارير إلى رئاستى.

وثائق اتفاقية مياه النيل

عن طريق أحد أعضاء هيئة التدريس المصريين فى السودان، الأستاذ «نصر الدين السيد» والذى له صلات اجتماعية ممتازة بكبار الموظفين فى الدوائر السودانية المهمة تعرفت على شخصية سودانية بارزة ذات وعى كامل بألاعيب السياسة الاستعمارية البريطانية فى السودان.

وعندما شعر هذا الصديق السودانى بالدور الذى يقوم به المستشار البريطانى «كارل مايكل» ، وخاصة أثناء مفاوضات اتفاقية مياه النيل سنة ١٩٥٥ والتى كانت تتم بالقاهرة بين وفد حكومة السودان برئاسة خضر حمد وزير الرى السودانى وعضوية مأمون بحيرى وبين الوفد المصرى برئاسة زكريا محيى الدين، أمكن هذا الصديق السودانى الوطنى أن يقدمنى إلى صديق له، يعمل فى أرشيف وزارة الرى السودانية، وكان هو الآخر على درجة عالية من الوعى السياسى.

كان المستشار كارل مايكل يرسل إلى القاهرة يوميا، ودوريا، تقارير إلى وكيل الوزارة مأمون بحيرى، والذى كان يرافق وفد المفاوضات السودانى فى القاهرة، وكان بتلك التقارير توجيهات وإحصائيات كلها تدعو إلى التشدد فى موقف السودان من حصة مياه النيل ومصاغة بدهاء اشتهر به البريطانيون.

كانت كل هذه التقارير ذات السرية العالية تصلنى فى وقت مناسب جدا وكان يتم تصويرها وإعادة المستندات الأصلية. وبالاتفاق مع رجال شركة مصر للطيران كانت صور هذه الوثائق المهمة ترسل أولا بأول لتكون فى متناول يد المفاوض المصرى قبل اجتماعات التفاوض، مما كان له أثر كبير فى كشف المخطط البريطانى، الذى كان يمثله المستشار البريطانى موريس، المرافق لوفد السودان لمفاوضات مياه النيل بالقاهرة، والذى تسبب فى إفشال هذه المفاوضات التى أجريت فى إبريل ١٩٥٥، وتوقفت فى الشهر نفسه. (نجحت تلك المفاوضات عام ١٩٥٩ عندما ابتعد الإنجليز عن الوظائف).

حادث اختناق العمال الفلاتة

وفى مساء أحد الأيام أبلغنى الصديق المصرى صلاح محمد على مدير وكالة الأنباء العربية بالسودان وكان مكتبه بجوار مكتبى الذى استأجرته بالخرطوم، أبلغنى أن برقية وصلته حالا تحمل نبأ سيئا، فقد اختنق أكثر من مائة عامل من الفلاته فى بلدة «كوستى» فى مديرية «النيل الأزرق» وعلى النيل الأبيض وهم عمال أفارقة يفدون فى مواسم خاصة

إلى السودان أو يمثلون القوة العاملة الموسمية وكانت تفرض عليهم الشركات الزراعية السودانية البريطانية أجورا زهيدة يرضون بها تحت وطأة ظروفهم السيئة. وعندما طالب هؤلاء العمال برفع أجورهم رفضت هيئة مشروع الجزيرة طلبهم واستعدت عليهم السلطات السودانية والبوليس، فاعتقلوا لعدم إمكان التفاهم معهم، ووضعهم البوليس مكدسين فى عنبر واحد وكان عددهم حوالى ١٣٥ عاملا. وبعد مدة من الحجز فى هذا العنبر الضيق المساحة، ماتوا جميعا مختنقين من شدة الحرارة Heat Exhaust.

وأفادنى صلاح محمد على أن هذا الحادث اهتمت به صحافة ووكالات الأنباء العالمية وكلفوا مندوبيهم بالتوجه إلى «كوستى» مكان الحادث لتغطية أنبائه، فاتخذت المبادأة وأسرعت فى تجهيز نفسى وسافرت إلى هناك فى الليلة نفسها.. ويصحبنى زميل صحفى سودانى هو الأستاذ سعد الشيخ ومساعدى عبد الفتاح فرج، ووصلنا إلى هناك بعد منتصف الليل وعلى الفور توجهنا إلى مكان الحادث واجتمعنا فور وصولنا مع قائد البوليس السودانى وجمع من أهالى (كوستى) وكانوا مجتمعين فى شبه ثورة ضد حكومتهم وجاء على لسان أحدهم: «الله يرحم أيام الاستعمار البريطانى» وتبادلت الحديث معهم، وأقنعتهم بعد مناقشة هادئة مستنكرا فضل الاستعمار، وأفهمتهم أن استعداء السلطة على هؤلاء المظلومين هو من فعل موظفين سودانيين ولكنهم فى الحقيقة لحساب شركة ما زالت أصبع بريطانيا تعمل فيها.

وفى الصباح الباكر خرجت من المنزل الذى استضافونى للإقامة به إلى منطقة العنبر المشئوم، وهناك أخذت أقيس العنبر الذى حجز فيه ١٣٥ بائسا اختنقوا عن آخرهم بالخطوة طولا وعرضا حتى يمكن أن أقف على الحجم الكلى له. وأخبرنى الأهالى أن العمال لم يقوموا بأى عمل من أعمال العنف، ولكنهم توقفوا فقط عن العمل وتجمعوا فى أماكن إقامتهم المتواضعة حول الأكواخ فحضر رجال البوليس وأخذوا فى جرهم بقسوة. وربطهم بعضهم ببعض بالحبال وهم يصرخون من شدة الألم وعنف المعاملة ثم ساقوهم إلى هذا العنبر وأغلقوا عليهم الأبواب بإحكام. وبعد نصف ساعة بالضبط أخذ المحجوزون داخل العنبر يستغيثون ولا من مجيب، ثم بعد مدة أخرى علا صوتهم وأخذوا يدقون بشدة على الأبواب واعتقد حراس العنبر القلائل أن المحتجزين فى حالة ثورة فلم يبلغوا رؤساءهم. ورويدا أخذت أصوات الاستغاثة والاحتجاج تخفت إلى أن خمدت مرة واحدة ثم ساد صمت الموتى. وعندما علم الرؤساء بهذا الحادث المفجع أرادوا التستر على الجريمة البشعة فقاموا أثناء الليل وقبل بزوغ النهار بنقل جثث الموتى إلى مقبرة كبيرة جدا بالقرب من العنبر وأهالوا عليها التراب. وقادنى الأهالى إلى مكان المقبرة... وتسمرت مكانى فقد هالنى ما رأيت فلم يسعف الوقت والإمكانيات البوليس لتغطية الجثث بالتراب.. فكانت بعض الأذرع المتدلية والأرجل المستسلمة والعيون الجاحظة تطل من بين الأتربة تصرخ فى صمت بليغ ضد عنف الإنسان وعدم آدميته. وأبرقت من الخرطوم بتفاصيل الحادث المؤلم، وأرسلت الصور إلى جريدتى وإلى إذاعة ركن السودان وهما المصدران اللذان انفردا بتفاصيل هذا الحادث المروع.

رحلة وحوار فى جزيرة آبا

استمرت جزيرة أبا مهد الحركة المهدية تلعب دورها فى تعميق جذور تعاليم المهدى الدينية، وأصبحت هذه الجزيرة أيضا معقل الحركة المهدية الاستعمارية الحديثة والتى ظهرت بشكل مخالف تماما للحركة المهدية الأصلية، حيث اشتهر الزعيم السيد عبد الرحمن المهدى قائد الأنصار وراعى حزب الأمة بمعاداته لمصر وتبنى الدعوة الانفصالية عن مصر، بعكس أفكار المهدى الكبير، وقمت برحلة إلى الجزيرة يرافقنى الأستاذ سعد الشيخ وهو صاحب شركة إعلانات سودانية كانت مندمجة مع شركتنا المصرية، وكان شابا واسع الاطلاع بشئون وتاريخ بلده السودان، وأثناء الطريق روى قصة السيد عبد الرحمن المهدى، وكيف كان يتقن القيام بدوره المزدوج وهو تعميق وتثبيت زعامته الدينية ليغرر بأتباعه لمسايرة السياسة البريطانية الاستعمارية. فبعد أن شب السيد عبد الرحمن المهدى أعادته بريطانيا للحياة فى جزيرة أبا بين أتباعه وأنصاره الذين كانوا يتوافدون من جميع أنحاء السودان للتفرغ للعلم والعبادة حسب تعاليم المهدى الكبير داخل أروقة القصر المعد لهذا الغرض. وكان عبد الرحمن المهدى يتعمد الاختفاء قبل موعد الغروب ويتسلل خارجا إلى البرارى والحقول، يتجول فيها. وعندما يخيم الظلام كان يتعمد أن ينير مصباح يد (بطارية يد) كهربائى من تحت عباءته فيبدو فى الليل ومن بعد كأنه شبح منير، ويرى أتباعه المنتشرون فى أرجاء الجزيرة هذه الظاهرة الغريبة ويعتقدون أنها تدل على الخير والبركة والتقوى وأن روح سيدهم عبد الرحمن المهدى الطاهر تتجول فى الليل، ويصيح الأتباع بأعلى أصواتهم منادين: (سيدى بينور سيدى بينور) ولا يجرءون على الاقتراب منه فترتفع مكانته عندهم، وأصبح إيمانهم به واتباعهم له لا يرقى إليه الشك.

وعند وصولنا إلى مقر المهدى بالجزيرة علمنا بالصدفة أن ابن السيد عبد الرحمن المهدى «الأستاذ الصادق المهدى» قد حضر، وانتهزت هذه الفرصة وطلبت مقابلته ورحب هو بهذا اللقاء. وكنت علمت من زميلى الأستاذ سعد الشيخ أنه خريج جامعات بريطانيا ووجدته شابا لبقا عالى الثقافة يتقن الحوار فى لغة عربية محببة باللكنة السودانية ذات النطق العربى السليم، قدم إلينا الشاى على الطريقة البريطانية. وبدأ الحوار فسألته «عن موقف حزب الأمة قبل بداية مفاوضات مصر مع بريطانيا على المسألة السودانية، وتأييده لهذه الاتفاقية فى اجتماعهم بمحمد نجيب ثم تحولهم وتنكرهم للاتفاقية إلى المطالبة بالانفصال وأن يصبحوا أعضاء فى الكومنولث البريطانى علما بأن تحرير وادى النيل شماله وجنوبه كوحدة واحدة كان هدف المهدى الكبير» فقال: «إن مصر منذ احتلالها من وقت عرابى وجميع ساستها برغم وعيهم التام بأنهم غير مستقلين كانوا يعتبرون ويعاملون السودان على أنه مستعمرة مصرية ويتمسكون بحق الفتح وثابت ذلك من جميع محاضر جلسات المفاوضات المتعاقبة بين المصريين والبريطانيين، فكان المصريون يؤكدون دائما على حق مصر فى السودان (حق الفتح) وضرورة تبعيتها لمصر بشكل أو بآخر ولم يضع زعماؤكم وساستكم أى اعتبار أو وزن لرأى السودان والسودانيين أنفسهم. وحتى أيام الاحتلال البريطانى لمصر والسودان كان الاستعمار البريطانى يدعى أن وجوده فى السودان للمحافظة على حقوق مصر فى السودان وكنتم تصدقونه، وهذا الخضوع الذى يعبر عنه الاستعمار البريطانى كنا فى السودان نعرف جيدا أنه خضوع شكلى. لكنكم كنتم فى مصر كالنعام تخبئون رءوسكم أمام عدوكم معتقدين خطأ أنكم مادمتم لا ترون عدوكم فهو لا يراكم. كنتم فى مصر تصدقون بريطانيا فيما تدعيه لحمايتكم حتى من مطالبة السودانيين بحقهم فى بلادهم، وتتناسون أن فى السودان شعبا وساسة وقادة وزعماء وطنيين ينتمون إلى هذه الأرض». وقال أيضا: «إن الوجود البريطانى فى السودان حقيقة والوجود المصرى فى السودان منذ الاحتلال البريطانى لمصر رمز وشكل دون المضمون. المفروض علينا نحن السودانيين أن نتعامل مع الحقيقة لا مع الشكل».

عند هذا الحد من حديثه بدا الانفعال يفرض نفسه على نبرات صوته ويبدو أن سؤالى فى هذا الوقت بالذات أصاب منه موجعا برغم أن رده كان به شىء من الواقع والحقيقة المرة فقررت أن أستمر فى محاورته. فأعدت إلى ذاكرته أن مصر عندما أرادت التفاوض مع بريطانيا على الجلاء عن مصر بدأت أولا بالمطالبة بالجلاء عن السودان، وبادرت مصر بجمع شمل الأنصار (طائفتكم) وطائفة الخاتمية ومختلف الأحزاب فى القاهرة وبذلت مصر خالص جهدها لتوحيد كلمتكم واعترفت بكيانكم وبإرادة الشعب السودانى، وبحقكم الكامل فى تقرير المصير لتختاروا الوضع الذى يحقق مصلحتكم. لكن للأسف كان لحزبكم (حزب الأمة) موقف أثر على مجريات الأمور بشكل عكسى مخالفا بذلك لمبادئ وأهداف الحركة المهدية الأصلية على يد المهدى الكبير.

ووافيت القاهرة بهذا الحديث وتعليقى عليه بأنه يكاد يطابق الرأى العام السودانى الذى يتطلع فى هذا الوقت إلى الاستقلال.

معظم النيران من مستصغر الشرر

كنت قد تقدمت منذ وصولى إلى السودان بأوراق رسمية للسلطات السودانية لتسجيل مكتب الجمهورية

قد لايعلم كثيرون عن محاولة جرت لاختطاف الملك طلال من معتقله / منفاه الجبرى فى تركيا، كما لعلهم قد نسوا تفاصيل المساعدات المصرية للمقاومة الجزائرية على الحدود مع المغرب

للإعلانات والصحافة بمستندات سليمة عن طريق مكتب أحد كبار المحامين السودانيين (محمد أحمد محجوب أحد أقطاب حزب الأمة والذى أصبح وزيرا فيما بعد). وقدمت مع صور هذه المستندات طلبا إلى وزارة الداخلية السودانية والجوازات والجنسية لأحصل على تصريح إقامة للعمل. وكنت أتردد على مكتب الوكيل الدائم لوزارة الداخلية السودانية «محمد عثمان يس» للسؤال عن طلب الإقامة. وفجأة وبعد مرور أكثر من ستة شهور على وصولى للسودان استدعانى محمد عثمان يس وكيل الداخلية الدائم بمكتبه. وأخذ يسألنى عن حقيقة اسمى وعملى السابق قبل العمل الصحفى وأجبته بأننى كنت ضابطا بالجيش المصرى برتبة اليوزباشى وقد استبعدت من العمل بالجيش بعد عملية التطهير بعد الثورة. ولكنى تمكنت من الحصول على عمل فى دار الجمهورية فى شركة الإعلانات الشرقية. وأخرج قصاصة ورق من درج مكتبه قرأ فيها اسم يوزباشى محمد عبد الفتاح أبو الفضل. ورقم التليفون وعنوان المنزل. (ادعائى بأننى من الضباط المصريين فى التطهير كان تغطية فقط بطبيعة الحال).

وبثبات كررت عليه ما قلت له، وأفهمته أنه ليس هناك ما يمنع ضابط الجيش بعد استقالته أو استبعاده من العمل العسكرى أن يمارس عملا مدنيا وليس فى هذا ما يثير الشبهات. وقد تركته وأنا شبه متأكد أن هناك وشاية أو تبليغا من أحد، وأنه أخذ يشك كباقى السودانيين أننى موفد من السلطات المصرية فى مأمورية خاصة، ولكنى قبل مغادرتى مكتبه قلت: إن السلطات المصرية إذا كانت هى التى رتبت وضعى بهذه الصورة لم يكن من الصعب عليها أن تزيف اسمى حتى تكتمل الصورة والغطاء.

وقال لى الزميل صلاح محمد على رئيس وكالة الأنباء العربية بالخرطوم إنه فى لقاء خاص بينه وبين وكيل وزارة الداخلية السودانية علم منه أن هناك أحد المدرسين المصريين المعينين بعقد مع حكومة السودان، يتعاون مع الأمن السودانى وأنه هو الذى أبلغهم ذلك بعد أن رجع إلى دفتر التليفون المصرى ووجد به اسمى بالكامل وعنوان منزلى بالقاهرة وأمام الاسم رتبة اليوزباشى.

وتولانى غضب من هذا الشخص الذى وصل إلى هذه الدرجة من الخسة وأردت أن ألقنه درسا بصورة أو بأخرى وكان يملك عربة فاخرة وكثيرا ما يتركها أمام منزله أثناء الليل فى حى الموجرن الهادئ فى السودان وتمكنت من وضع عدة أقراص من السكر فى تنك بنزين العربة. وعندما قام بتشغيل عربته بعد ذلك احترق الموتور وكبده ذلك مبالغ طائلة لإصلاحها.

وكان فى هذا التصرف شىء من الصبيانية، ولكنى كنت شابا وفى بدء حياتى العملية، ولكنى استدعيته بعد ذلك بمدة، وحذرته من مثل هذه الأعمال الخطرة، وأكدت له أننى الذى قمت بتخريب سيارته انتقاما مما قام به من أعمال تصل إلى مستوى الخيانة.

الاحتكاك بالوكيل الدائم

بعد واقعة استدعائى فى الأمن السودانى ومواجهتى لشكوكهم، تصادف ودعيت إلى حفل عشاء فى منزل الصحفى صالح عرابى رئيس تحرير جريدة الصراحة السودانية وكانت تؤيد سياسة مصر إلى حد كبير. وبعد أن بدأ المدعوون فى تناول الأطعمة من البوفيه وأثناء انتقائى لبعض الأطعمة وكنت بالمصادفة وقتها بجوار وكيل الداخلية الدائم محمد عثمان يس، وكان يتبادل الحديث بالإنجليزية مع رئيس تحرير جريدة المورننج نيوز Morning News، وهو فى الوقت نفسه رئيس شبكة الجاسوسية البريطانية فى السودان الذى أشرت إليه قبلا وجه محمد عثمان يس الكلام لى وهو فى حالة سكر: «كيف حال ولد البق»؟ وهذه إهانة بالغة درج عليها أهل السودان عندما يريدون توجيه إهانة إلى أى مصرى على أساس أن حشرة البق موجودة فى البيوت المصرية الفقيرة وحاولت السيطرة على أعصابى وقلت له: إننى أفتخر بأننى مصرى صميم لأنك وصفتنى بصفة مصرية صميمة لا نخجل منها ولكنك لا أكثر ولا أقل من خائن سودانى وولاؤك فى المقام الأول لهذا البريطانى ولبريطانيا. وكنت متأكدا أن رئيس تحرير المورننج نيوز، يتقن اللغة العربية وواصلت توجيه اللوم الشديد له وبصوت مرتفع وتجمع حولنا كثير من المدعوين من السودانيين والأجانب. وحضر الداعى صالح عرابى وأخذ يعتذر لى هو وجمع كبير من نواب البرلمان الأصدقاء، ورفعت الحرج عن موقف الداعى صالح عرابى وقلت له إننى فى منزلى وقد قمت بالتصرف نيابة عنه وفى اليوم التالى حضر لى فى المنزل الأستاذ صالح عرابى ومعه جمع كبير من الصحفيين السودانيين وكثير من أعضاء البرلمان. وكان الاجتماع مثمرا، قام الصديق العزيز محمد عبد الجواد نيابة عنهم بالكلام وقال: إنهم حضروا ليس للاعتذار ولكن بدافع حبهم وتقديرهم لمصر والمصريين وامتدادا لدور الوطنيين السودانيين الذين يؤمنون بضرورة الوحدة مع مصر، وإنهم على يقين من قدرتى على توصيل ما سيعبرون عنه إلى المسئولين فى مصر. وقال محمد عبد الجواد: «إن السودان منذ احتلال البريطانيين لمصر وللسودان بعد إخماد ثورة عرابى اندلعت فيه ثورة محمد أحمد المهدى تحت علم الدعوة الدينية الصادقة بمعاداة المحتل الأجنبى».

وكان المهدى الكبير فى ثورته ضد الإنجليز يقوم بمحاربة الإنجليز والأتراك ولم يقصد المصريين إطلاقا لأنه فى الوقت نفسه كان يعتبر ثورته امتدادا لثورة المصريين بقيادة أحمد عرابى. وبرغم أن الثورة السودانية تمكنت من تحقيق الاستقلال لمدة حوالى ١٣ سنة. فقد قامت الجاسوسية البريطانية داخل صفوف الثورة المهدية بالفتن بعد أن تجاوبت معها الكثير من الدول العربية والإسلامية وتمكنت بريطانيا بعد ذلك من الاستعانة بالجيش المصرى المغلوب على أمره وبقيادة الضباط البريطانيين من إخماد ثورة المهدى ونجحت بريطانيا فى غرس بذور الخلاف بين السودانى والمصرى. ثم استدارت على المهدية نفسها وخلقت زعامة خائنة لتعاليم المهدى من أبنائه هو عبد الرحمن المهدى، كما استعانت بالطائفة الميرغنية والشريف الهندى فى توطيد دعائم حكم بريطانيا ونفس الشىء تكرر بعد توقيع اتفاقية السودان، وفى غفلة من المسئولين المصريين الذين لم يفطنوا لملابسات الألاعيب البريطانية فى تعاملهم مع الثورة المهدية. فقد قامت بريطانيا، وفى غفلة من المصريين، باللعب داخل صفوف الاتحاديين بزعامة الأزهرى الذى كنتم تعتمدون عليه، وفى زيارته لبريطانيا قبل تقرير المصير تم طبخ الدور بالكامل وعاد وهو ينادى بالاستقلال متخليا عن المتفق عليه مع المصريين من تحقيق الوحدة، وبأموال أمريكا. وبتغلغل النفوذ البريطانى فى السودان وسيطرتهم على الوزارات السودانية عن طريق وكلاء الوزارة السودانيين الدائمين وكلهم عملاء لبريطانيا فشلت الوحدة... وبشكل مؤكد ولا أمل لمصر فى تغيير الوضع داخل السودان وكل ما نرجوه منكم هو تحسين وتقوية العلاقات بين شعب مصر والسودان والتى عن طريقها يمكن تحقيق ما هو أقوى وأثبت من الوحدة.

الواقع أننى لم أجد ما أرد به على كلام هذا الصديق المدعم بالأسانيد التاريخية وكان هذا الحديث مجال تقرير شامل لى عن موضوع الوحدة أو الاستقلال. وأعتقد أنه كان من ضمن الأوراق التى استندت إليها مصر فى مباركة رغبة السودان فى الاستقلال.

الصراع فى منطقة الشرق الأوسط

منذ وصولى إلى الخرطوم فى أول يناير سنة ١٩٥٥ وما قبلها بعد إبرام اتفاقية السودان والتطورات التى حدثت فى الرأى العام السودانى منذ إبرام الاتفاقية فى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣. ومنذ إبرام اتفاقية الجلاء فى أكتوبر سنة ١٩٥٤ اتسم الموقف الداخلى فى مصر بالهدوء، كانت مصر مصممة على التفرغ لمعركة التنمية وذلك بالبدء فى تنفيذ مشروع السد العالى. ومنذ عام ١٩٥٣ حاول دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة، ثم إيدن فى فبراير سنة ١٩٥٤ إقناع مصر بضرورة وأهمية اشتراكها فى حلف عسكرى دفاعى لمنطقة الشرق الأوسط (امتدادا لمشروع صدقى بيفن الذى سبق ورفضته مصر قبل الثورة) لسد الفراغ بعد جلاء القوات البريطانية عن مصر على أن يقوم العرب بمساندة هذا الحلف بمباركة مصر له.

رفضت مصر وعارضت هذا الحلف مشيرة وبكل وسيلة وبخاصة فى وسائل إعلامها وبشكل مركز فى إذاعة صوت العرب المسموعة فى العالم العربى كله بالإضافة إلى الإذاعات الموجهة لدول العالم الثالث وهى مناطق نفوذ الاستعمار القديم والكتلة الغربية. وفوجئت مصر بالدول الغربية العظمى تحاول استئناس مصر وتطويعها لتفرض عليها

التبعية. وكلما كانت تعارض مصر فى قبول ما رسمه لها الاستعمار القديم كالدخول فى أحلاف عسكرية تحتويها، كانت الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة. وطلبت مصر السلاح من الغرب لمواجهة الاعتداءات الإسرائيلية، وأمعن الغرب فى فرض الشروط المجحفة. وحاولت مصر طلب المعونات الاقتصادية والعسكرية من روسيا فلقيت من الغرب التهديد والوعيد، ودخلت مصر فى دوامة.

بعد أكتوبر سنة ١٩٥٤ استخدمت كل من بريطانيا وأمريكا شتى أساليب الضغوط على مصر لتعيد إلى منطقة الشرق الأوسط استكانتها السابقة للاستعمار الغربى خصوصا مع ظهور النفوذ الروسى المتطلع للانتشار وكسر حصار التحالفات الغربية من حوله خاصة فى المناطق حديثة الاستقلال ذات التيارات الوطنية.

كانت المهمة هينة وبسيطة بالنسبة لإنجلترا وأمريكا فى أغلب دول الشرق الأوسط. ولكنها كانت صعبة ومستعصية فى تعاملها مع مصر.

تحسن المــوقف فى الســـودان

كل هذه المواقف الصعبة التى واجهت بها مصر الضغوط المختلفة من الدول العظمى وبخاصة من الكتلة الغربية والولايات المتحدة جعلت الرأى العام العربى يتجاوب مع مواقف مصر المتطلعة لتحرير إرادتها من دوائر التبعية. وحيث إن السودان علاوة على انتمائه للوطن العربى، فإنه برغم ما شاب علاقاته بمصر من تدهور فى فترة تقرير مصيره والتى عاصرت فترة منها، فقد تغير الموقف كلية هناك فى آخر عام ١٩٥٥ ومطلع عام ١٩٥٦ سواء على المستوى الرسمى أو الشعبى. وعادت الثقة المتبادلة بين القطرين الشقيقين.

إجــازة بـــلا عــودة

فى الأيام الأخيرة من يونيو سنة ١٩٥٦ حضرت إلى القاهرة فى إجازة وقبل أن أغادر الخرطوم حصلت على فيزا (تصريح) العودة Re - Entery Visa.

بعد الخلاف المستمر بينى وبين وكيل وزارة الداخلية السودانية الدائم محمد عثمان يس تلافيا لاعتراض المسئولين فى قنصلية السودان بالقاهرة على إعطائى تأشيرة الدخول. ومع ذلك فقد كانت آخر إقامة لى بالسودان. وفى مساء ٢٦ يوليو وكنت فى عربتى قرب ميدان السيدة زينب أستمع من خلال راديو السيارة إلى خطاب الرئيس جمال عبد الناصر فى احتفالات ٢٦ يوليو بالإسكندرية، وأثناء الخطاب أخذ يشرح ملابسات تمويل السد والظروف والمراحل التى مرت بهذا التمويل، وأعلن فى نهاية هذا الاستطراد قرار تأميم شركة القنال.

وفى يوم ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٦ صدرت لى الأوامر بعدم العودة إلى السودان كى أقوم بمهمة فى مصر بعد تتابع الأحداث نتيجة تأميم قنال السويس. كلفت بإعادة تنظيم المقاومة السرية بمنطقة القنال لأن الموقف الدولى الغربى بدأ يشن حملة مسعورة ضد مصر. توحى بأن هناك عدوانا مرتقبا على مصر كرد على عملية تأميم القنال.

وفى الأيام التالية شكلت بريطانيا وفرنسا وباقى دول الكتلة الغربية هيئة دولية مستفزة أسمتها «هيئة المنتفعين» وعن طريق هذه الهيئة مارس الغرب علينا ضغوطا مختلفة جعلت القيادة فى مصر تعد العدة لأسوأ الاحتمالات. وهو العدوان المسلح.

محاولة خطف المــلك طــلال

أثناء عملى بتركيا صدر إعلان فى أول مارس سنة ١٩٥٨ عن قيام وحدة بين الدولتين العربيتين العراق والأردن، والمرتبطتين بشكل أو بآخر بالحلف المركزى، وهما ذات نظام ملكى.

كان هذا الإعلان فى ظاهره تحقيق وحدة عربية وفى باطنه يحمل معنى المناوأة للوحدة العربية بين سوريا ومصر، ومع ذلك فقد اضطررنا إلى مباركة هذه الوحدة على أن أى اتحاد بين أى قطرين عربيين ما هو إلا وحدة فى أى صورة، ولكن كان على مصر بالذات أن تكشف أهداف هذه الوحدة.

قادنى تفكيرى من هذا المنطلق لوضع خطة لاختطاف الملك طلال من معتقله بتركيا. على أن يعلن بعد ذلك على لسان هذا الملك الشرعى عدم موافقته على هذه الوحدة (الملك طلال هو والد الملك حسين ملك الأردن الذى ساعدته والدته الملكة زين وزوجة الملك طلال فى عزل زوجها الملك طلال بحجة مرضه العصبى وأودعته مستشفيات أمراض النساء فى إستامبول كمعتقل دائم له).

وكان الملك طلال داخل مستشفى الولادة موضوعا تحت حراسة أحد رجال الياوران الأردنى الضابط صبحى طوقان وهو فلسطينى الأصل. أبلغت رئاستى ووافقت على خطتى وتعاونت مع الملحق العسكرى زكريا العادلى لتنفيذها. أرسل الملحق العسكرى أحد رجاله لمقابلة صبحى طوقان على أنه صحفى مصرى وكان صبحى طوقان حاد الذكاء، وبسرعة غير متوقعة تجاوب معنا وأثناء حديثه مع مندوبنا أفصح له عن كامل استعداده للمساهمة فى عملية إخراج الملك طلال من تركيا وتسليمه لنا بأية وسيلة نراها، وفى أى مكان أو ميناء حيث إنه كثيرا ما يصحب الملك فى نزهات خارج المستشفى تحت مسئوليته هو خصوصا بعد طول ملازمته إياه.

طلب صبحى طوقان الاجتماع مع المسئولين عن هذه العملية وفعلا اجتمعنا معه، واتفقنا على التفاصيل وأجلنا ميعاد التنفيذ بعض الوقت. وكان طلب صبحى طوقان الوحيد منا بعد نجاح هذه العملية هو أن يلجأ سياسيا إلى مصر. ولسوء الحظ فى هذا التوقيت حضر الصحفى المصرى الأستاذ جميل عارف (صحفى بالمصور) فحام حول المستشفى الموجود به الملك طلال وأخذ كثيرا من الصور بآلة التقريب Telephotao من خارج المستشفى كما أحدث بعض النشاط الصحفى المريب حول المستشفى، ثم صدر عدد من مجلة المصور به ريبورتاج بصور تفصيلية عن حياة الملك طلال وحارسه والمحيطين به داخل المستشفى فى صور واضحة، وكأن الصحفى والمصور كانا مقيمين معه داخل هذا المعتقل الصحى.

لم يكن للصحفى المصرى أى هدف إلا تذكير الرأى العام بمأساة الملك طلال التى طال عليها الزمن، ولكن الملكة زين المدبرة الأولى لاعتقال الملك طلال انزعجت مما جاء بالمصور وتوقعت وجود مؤامرة. وأرادت التحقيق مع الحارس صبحى طوقان بعد الاشتباه فى أن له يدا فى وصول الصحفى المصرى لزوجها داخل المستشفى. كنت فى أنقرة وطلبنى صبحى طوقان عن طريق القنصل المصرى فى إستامبول حيث إنه تم استدعاؤه للأردن وأنه لا يرغب فى تنفيذ هذا الأمر ويخشى أن تستعدى الملكة زين الأمن التركى لاعتقاله وترحيله إلى الأردن لمحاكمته.

سافرت إلى صبحى طوقان فى إستامبول وقابلته بمبنى القنصلية المصرية وأفهمنى أن الملكة زين حضرت بنفسها منذ ساعة وارسلت فى طلبه وأنه رتب هروب أسرته فى عربة جارتهم الصديقة التركية وحضر هو بعربته الخاصة لاجئا إلى القنصلية المصرية فى انتظارى. وتصرفت بسرعة وكان معى مساعدى سعد وفا. جعلت صبحى طوقان يتصل بزوجته وشقيقته ويأمرهما بالسفر بعربة الجارة الصديقة التركية إلى الحدود التركية اليونانية، وقمت أنا بعربتى ومعى صبحى طوقان وقاد عربة صبحى طوقان سعد وفا وتوجهنا إلى أدرنة على الحدود التركية اليونانية حيث تم اللقاء مع أسرة صبحى طوقان، وكان معهم جميع أوراق السفر وتم خروج صبحى طوقان من تركيا عن طريق اليونان واتفقنا على أن نتقابل فى مكان معين فى أثينا وفى ميعاد معين، وعدت إلى إستامبول وقبل بدء العودة وجدت الأمن العام التركى منتشرا وخارجها حتى نقطة الحدود. ولكن سبق السيف العذل فقد خرج الطير من القفص، وسافرت فعلا بعد يومين إلى اليونان وقابلت صبحى طوقان وزودته بما يلزم من النقود وجميع ترتيبات السفر بعربته وأسرته إلى القاهرة ودخل لاجئا سياسيا فى مصر وأقام طول حياته بعد ذلك فى مدينة الإسكندرية، وفشلت خطتنا فى مساعدة الملك الشرعى للأردن.

رحلة إلى غرب إفريقيا

أثناء عملى بمجموعة المصادر العلنية قمت برحلة إلى غرب إفريقيا وزرت أربعا من دولها واحدة كانت مستقلة من مدة طويلة وهى ليبيريا، ولكن كانت تسيطر على حكومتها شركة دانلوب الأمريكية لصناعة المطاط حيث إن ليبيريا من أغنى بلاد العالم فى خام المطاط الطبيعى، وزرت ثلاث دول مستقلة حديثا هى غينيا وغانا والكاميرون. والملحوظة العامة التى لفتت نظرى عن هذه الدول الإفريقية حديثة الاستقلال أن بها إمكانات كبيرة للتواجد العربى برءوس أمواله البترولية

للاستثمار بصفة عامة هناك ولتواجد مصرى بطاقاته العلمية والبشرية بصفة خاصة.

كان يمكن تزاوج رأس المال العربى مع الخبرة المصرية للمساهمة فى التنمية الصناعية لمشاريع استثمارية تعود على الأطراف الثلاثة (الدول الإفريقية والرأسمال العربى ومصر) بالخير، على الأقل فى مجال المنتجات الاستهلاكية والمثل الصارخ على هذا الخلل الاقتصادى كان واضحا بشكل بارز فى ليبيريا Liberia حيث إن المحال التجارية هناك تعرض للبيع معظم السلع من مواد تموين إلى مفروشات وأثاث والضرورى لجميع مطالب الحياة ولكن معظم خاماته من إفريقيا ولكنها مصنعة فى امريكا وتباع بأغلى الأسعار إلى المستهلكين هناك وكان المثل على ذلك وجود كراسى الجلوس هناك كلها مصنوعة فى أمريكا من خشب المامبو المنتج والمستزرع فى غرب إفريقيا وليبيريا نفسها، كانت شركة النصر المصرية للاستيراد والتصدير والتى كانت تعمل فى غينيا مثلا ممتازا لهذا النجاح ولو أنها اعتمدت فقط على الاستثمار المصرى.

● فى طريق العودة من هذه الرحلة قمت بزيارة تونس والمغرب. وفى المغرب تصادف ميعاد زيارتى لها أن يكون عقب زيارة المرحوم الملك محمد الخامس لمصر، وعودته على طائرة حربية مصرية يرافقه وفد مصرى صحفى من رؤساء تحرير الصحف وكبار الكتاب المصريين بدعوة من الملك. تقابلت فى الفندق مع هذا الوفد وكنت أعرف بعض أعضائه ودعيت معهم إلى حفل عشاء فى قصر الملك. أثناء الحفل جلس معنا رئيس مكتب جبهة التحرير الجزائرية، وهو صحفى وأخذ يدعو الصحفيين المصريين لزيارة إحدى قواعد جيش جبهة التحرير الجزائرية فى قاعدة له بالمغرب على الحدود الجزائرية. شعرت بعدم حماس معظم الصحفيين المصريين اللهم إلا المرحوم الأستاذ إسماعيل الحبروك رئيس تحرير جريدة الجمهورية فشجعته، وعرضت ذهابى معه.

لم يضيع رئيس مكتب جبهة التحرير الجزائرية الوقت. وأبلغنا أن الرحلة ستبدأ بعد نهاية حفل العشاء مباشرة. وبعد الحفل مر بنا مندوب الجزائر ونحن بعربته على الفندق حيث أخذ كل منا ما خف حمله من حاجيات المبيت لمدة يومين وتوجهنا فى عربة مدنية قوية إلى القاعدة الجزائرية فى داخل أراضى المغرب. واختلطنا هناك مع شباب الجزائر أثناء تدريباتهم ووقف المرحوم إسماعيل الحبروك خطيبا واشتركت أنا معهم فى ضرب النار وجمعتنا بهم موائد الطعام فى مواعيد المعسكر وأخذنا صورا معهم وانتظرنا إلى المساء، وأخذنا عربة إلى ما قبل الحدود المغربية الجزائرية وعلى تل فى العراء وجدنا هناك أحد أفراد قوات المقاومة الجزائرية. حضر باتفاق يبدو أنه تم باللاسلكى من داخل الحدود ليقودنا كدليل فى تسللنا إلى داخل الجزائر. وعلى الحدود جعلنا نزحف. خلال نفق محفور تحت سور الأسلاك الشائكة وعلمت فيما بعد أن مثل هذا النفق يجهز مسبقا عند ما تكون هناك عملية إدخال لقوات من الخارج. ويضطر بعد التسلل إلى إزالته لإخفائه عن العدو الفرنسى.

كان يرافقنا عدد كبير لا يقل عن عشرين فردا ممن تم تدريبهم. وفى الداخل وجدنا مندوبا آخر كان يختبئ فى الليل خلف تل وينتظر وصولنا. قادنا الفدائيون خلال دروب الصحراء مشيا على الأقدام لمدة ساعة ونصف وفجأة وجدنا أنوار قرية صغيرة. دخلنا القرية الجزائرية فى حماية الفدائيين والمرافقين من أبطال تحرير الجزائر. فى الصباح تناولنا مع عدد من كبار أهل القرية الإفطار. وأمضينا وقتا طيبا بينهم أطلعونا على أسباب استقلال هذه المنطقة عن السيطرة الفرنسية. وعلمنا منهم أن جميع التلال المحيطة بهذه القرية تنتشر فيها نقط حراسة حصينة من جيش التحرير. وكثيرا ما قدمت حملات من الجيش الفرنسى لاحتلال هذه القرية، وفشلت جميعها بعد تكبد الفرنسيين الخسائر الجسيمة.

مكثنا إلى وقت الليل فى هذه القرية الصامدة الباسلة. وعدنا من نفس الطريق وبنفس الأسلوب فى أثناء الليل وانتهت الرحلة داخل الجزائر ولكنى مكثت فى القاعدة الخارجية حسب طلبهم بعد أن علموا منى سابق خبرتى فى حرب العصابات فى القتال وكانت لقاءات مثمرة تناولنا فيها تبادل الخبرات واستمرت لمدة أسبوع تعايشت فيه مع هؤلاء المكافحين وقام المرحوم إسماعيل الحبروك عند عودته إلى القاهرة بعمل ريبورتاج بالصور فى جريدة الجمهورية عن هذه الرحلة الفريدة. ■

كتاب الزاوية

الآخر.. فى التلمود (٢)

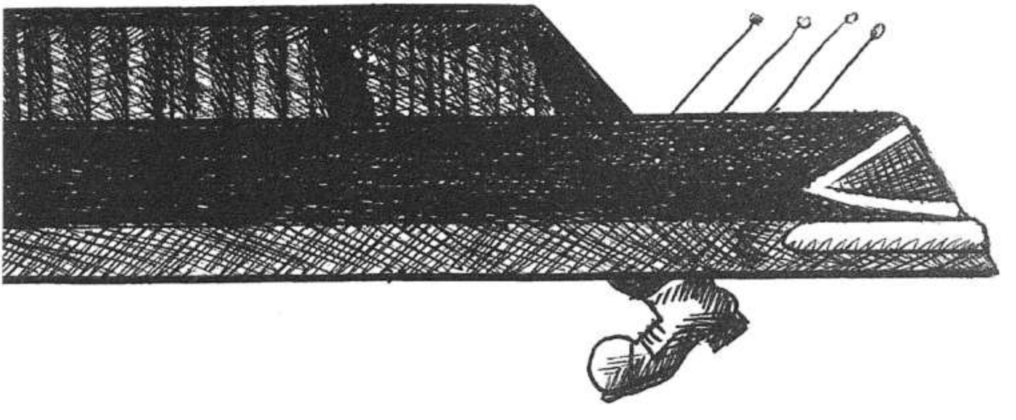
التلمود هو الشريعة الشفاهية لبنى إسرائيل. ويعد فى وقتنا الحاضر المرجعية الدينية لليهود المتشددين فى إسرائيل وخارجها . ويحتل المرتبة الأولى قبل توراة موسى عليه السلام التى تعرف بالشريعة المكتوبة.

والتلمود مؤلف فقهى يقع فى حوالى عشرين مجلداً من القطع الكبير ، ويضم ستة أقسام رئيسية هى : الزروع، المواسم والأعياد ، النساء ، الأضرار أو العقوبات ، المقدسات ، الطهارة.

وكان اليهود قد أحاطوا التلمود بسرية شديدة ، ولم يعرف عنه شيء إلا مع مطلع القرن ١٣م بعد ظهور نسخ مدونة منه. وعندما قدم المتنصر اليهودى نيقولاوس دونين (١٢٣٦ ـ ١٢٣٨م) للبابا جريجوريوس التاسع بابا الكنيسة الكاثوليكية مادة تلمودية مترجمة للاتينية عبارة عن ٥٥ فقرة مأخوذة من ٢٣ بابا من التلمود ، تجمعت للكنيسة الأدلة التى تدمغ التلمود وتدينه باعتباره كتاباً معادياً للنصرانية ، وسبباً أساسياً لتطرف اليهود الدينى ، فأصدر البابا عام ١٢٣٩م قراراً لملوك فرنسا وإنجلترا وأراجون ونفارا وقشتالة وليون وبرتغال حرم فيه كل أسفار اليهود وأمر بحرقها.

وقد سمح المجمع الكنسى الذى انعقد فى ترنت ١٥٦٤م بتداول التلمود شريطة أن تحذف من طبعاته تلك الفقرات التى تسيء للعقيدة المسيحية ، وفى أعقاب هذا القرار ، طبع التلمود فى بازل تحت رقابة من الرهبان الكاثوليك.

وهذه أول ترجمة عربية لباب من أبواب التلمود اعتمادا على النص الأصلى المكتوب بلغة خليط من الآرامية والعبرية واليونانية ، وتكمن أهمية هذا الباب في كونه يدور فى معظمه حول موقف فقهاء التلمود من غير اليهود.



نظـــــام.. وفـــوضـــى

الشـــارع القاهرى

مــحـــمـــد شــــومـــان

■ ■ حركة الناس والسيارات فى شوارع القاهرة، تجسد خطاباً ذا خصوصية متميزة بكل المعايير، خطاب بالغ التنوع والتفرد والتعقيد، فهو لا يتشابه مع أى خطاب فى أى مدينة أخرى من مدن العرب أو العجم. خطاب يعكس حال المجتمع والناس فى مصر والعلاقات التى تربط بينهم مادياً ورمزياً من ناحية، وتربطهم بالسلطة من ناحية أخرى. كما يعكس الكثير من مكونات ثقافة المجتمع المصرى، وما طرأ عليها من تغيرات بفعل ضغوط الحياة الاقتصادية والمشكلات الاجتماعية التى نجمت عن ضعف وتراجع دور الدولة نتيجة التحول المشوه والمتعثر إلى رأسمالية السوق والاندفاع نحو الخصخصة علاوة على الآثار السلبية للعولمة.

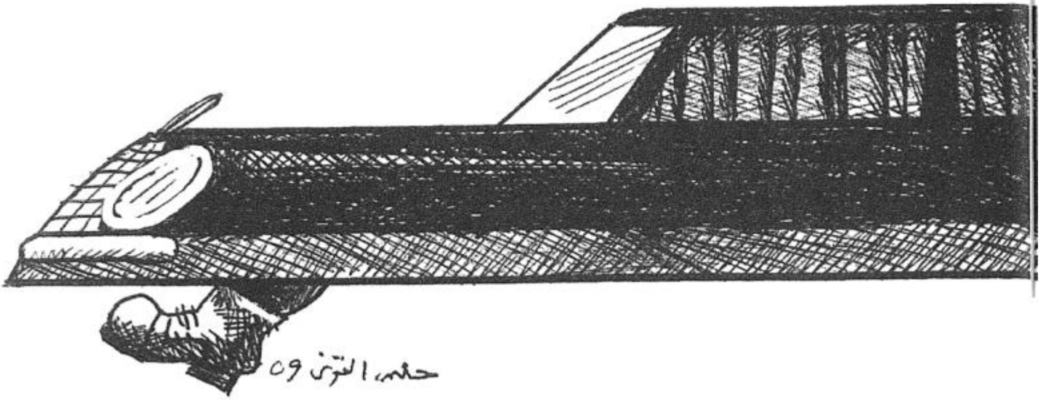
ضجيج وفوضى وأحيانا التزام بالنظام، وتحايل على سلطة القانون والدولة، وممارسة للسلطة كلٌ فى نطاق المساحة التى يتحرك فيها أو يحاول التحرك فيها أو الاستيلاء عليها من فضاء الشارع. إننا أمام خطاب متناقض ومتصارع إلى أقصى حد، ومع ذلك يشارك فيه الجميع ويتعايشون، صراع يتسم بقدر كبير من العنف غير المادى أو اللفظى، وقدر قليل من العنف المادى المباشر، وهى سمة من سمات الشعب الذى لا يميل كثيراً إلى الصدام العنيف.

إن فوضى الشارع وغياب سلطة الدولة وأنظمة المرور يفتح المجال أمام صراع إرادات بين السيارات المختلفة والمارة وأحياناً بعض مجندى الشرطة، كل هذه الصراعات يفترض أن تؤدى إلى أزمة بل كارثة مرورية، وحوادث كثيرة وكبيرة، ومع ذلك لا يحدث شىء من ذلك، ويتكيف الجميع على الضجيج والتلوث والبطء فى التحرك بين أحياء المدينة بل وفى داخل الحى الواحد، والمدهش أن الجميع ركاباً وقائدى سيارات ومارة ورجال شرطة قد تكيفوا مع الأوضاع الأسوأ مرورياً وتقبلوها، فبعد أن كان كل منهم يقطع المسافة من العمل إلى المنزل أو العكس فى نصف ساعة كما كان يعيش لسنوات خلت، تقبل الآن أن يقطع نفس هذه المسافة فى ساعة كاملة، ورتب حياته على هذا التغيير إلى الأسوأ.

والمفارقة أن الجميع يشكون لكنهم لا يحتجون بقوة أو يترجموا شكواهم إلى فعل، أى فعل، بل يتكيفون ويتعايشون ويتعاونون فى حل بعض الاختناقات المرورية أو فض المشاجرات التى تقع فى وسط الطريق. الكل يساهم فى إنتاج خطاب العجائب والمتناقضات فى الشارع المصرى ويشتكى، ولا يبادر لاتخاذ أى فعل، ربما عملاً بحكمة «الصبر مفتاح الفرج»، والتى تشكل مكوناً رئيسياً من مكونات الثقافة المصرية والشخصية المصرية، أو ربما لسطوة الأنا والمصلحة الذاتية على العمل الجماعى أو المصلحة العامة. فالفضاء الخاص هو الأصل، سواء فى الشقة أو السيارة أو مساحة الطريق التى يتمكن منها كل فرد. أما الفضاء العام فهو شأن لا يهم أحداً، فالأنا مالية صارت أحد مكونات الشخصية والثقافة المصرية.. ربما لضعف الوعى أو غياب الثقة فى إمكانية أن يقود العمل الجماعى بين الأفراد، وبينهم وبين الدولة إلى حل لأزمة المرور أو حتى التخفيف منها.

لا أستطيع أن أغلب سببا على آخر، ولكن ربما تكون كل الأسباب السابقة مجتمعة قادرة على تفسير ممارستنا فى شوارع القاهرة وتعايشنا معها وشكوانا الدائمة دون فعل أى شىء. ومشاركتنا اليومية فى إنتاج ذات الخطاب، تارة بقدر أكبر من الشكوى، وتارة بقدر أكبر من التسامح والتعاون، وتارة أخرى بقدر أعلى من التبرم والدعاء على هذا المسئول أو تلك الزيارة الرسمية التى تمنح القاهرة مزيدا من الزحام وتعطل حركة المرور، انتظارا لمرور موكب أو تشييع جنازة مسئول كبير. وفى كل الأحوال يظل الخطاب بكل مكوناته يكرر ذاته، ونظل نحن سكان القاهرة

حـركة النـاس والسيارات فى شـوارع القاهـرة
تعكس حال المجتمع والنـاس فى مصر والعلاقـات التـى تـربـط بـينـهـم ماديـاً ورمـزيـاً



وصـــــــــــراع ســـــــــــلطة!!!

وزائريها - الذين يتحركون فى شوارعها على طريقة إذا ذهبت إلى روما - ننتج بممارساتنا نفس الخطاب، ونعيد إنتاجه كل يوم.

مكونات الخطاب:

خطاب حركة الشارع فى القاهرة، الناس والمركبات بأنواعها، مثل أى خطاب له بنية ومكونات وتحولات، وبعض تلك المكونات قديمة وموروثة وبعضها حديث، وقد شهد هذا الخطاب أيضاً تحولات سأتوقف عندها أثناء العرض التفصيلى لمكوناته الراهنة. ويظل الخطاب بمكوناته وتحولاته كياناً مترابطاً شديد التنوع والتعقيد والتناقض. وفى محاولة لفهم هذا الخطاب أعرض لبعض مكوناته وتحولاته مع الحرص البالغ على فهم البنية الكلية المتماسكة للخطاب والتى تسم القاهرة بخصوصية فريدة وغريبة تجسد حال الناس والثقافة فى مصر.

١- ضجيج متواصل: فى شوارع القاهرة خليط عجيب وغريب من الأصوات، استحقت به المحروسة أن تكون واحدة من أكثر عواصم العالم صخباً وضجيجاً، صخب تصنعه بلا ملل أو كلل المركبات بأنواعها المختلفة والمشاة والباعة الجائلون ورجال الشرطة والمرور. ومع تدفق السيارات المستمر فى شوارع القاهرة التى صممت أصلاً لاحتواء عشر الأعداد الحالية، تبدو الشوارع بالغة الضيق، وبالتالى ترتفع معدلات التلوث، ويرتفع الضجيج. ومع مرور كل سيارة يضاف نوع جديد من الضجيج والتلوث بحسب عمر ونوع السيارة ومدى تهالكها، ومن المعتاد أن تجد سيارات مضى على تصنيعها أكثر من نصف قرن تسير إلى جانب سيارات حديثة آخر موديل. وهذا المشهد يعكس درجة عالية من التفاوت الاجتماعى بين أصحاب السيارات ويؤكد فى الوقت ذاته إمكانية العيش المشترك بين أفراد وشرائح اجتماعية متفاوتة، بل يبدو أحيانا صراعهم على أولوية السير أو الاستيلاء المؤقت على مساحة من الشارع ليصف سيارته، كأحد مظاهر المساواة بين أفراد مختلفين طبقياً وثقافياً إلى أبعد الحدود.

الضجيج الناجم عن التدفق المستمر للمركبات أو أصوات المحركات المتهالكة قد يبدو أمراً مفروضاً على الجميع، ومتجاوزاً لإرادتهم الفردية. لكن أصوات آلات التنبيه أمر آخر، فهى فعل إرادة، وسمة من سمات قيادة المركبات فى القاهرة، فمعظم إن لم يكن كل قائدى المركبات يستخدمون آلات التنبيه على الفاضى والمليان كما يقول المثل الشعبى المصرى. حتى فقدت دلالاتها الرمزية الحقيقية المتفق عليها فى العالم، وصارت لها معان ودلالات متعددة تختلف بحسب السياق. فمثلاً صار من المألوف أن يستمع المارة إلى آلة التنبيه ولا يكترثون، وأن تستخدم آلة التنبيه بقوة وبشكل متواصل ومرتفع كنوع من الاحتجاج أو إبداء التذمر، أو المناداة على صديق أو عامل فى محل، أو الإعلان عن وصول قائد السيارة سالماً لأهل بيته.

كما أن قائد السيارة المتعجل والذى يريد أن يتجاوز سيارة أخرى يضغط بقوة على آلة التنبيه،ليرفع من صوتها إلى أقصى درجة، ليس بهدف التنبيه على زميله فى الطريق بل لتهديده أو لتخويفه بأنه سيتجاوزه مهما كان الثمن وحتى وإن كانت المسافة لا تسمح. لكن فى بعض الأحيان يكون استخدام آلة التنبيه بصوت منخفض وسريع كنوع من التحية لزميل الطريق الذى انتظره لكى يقطع الطريق أو سمح له بتجاوزه. أما عن استخدام آلة التنبيه فى الشارع للاحتفال بفوز فريق كرة قدم أو الإعلان عن الفرح بزفاف أو خطبة فهو أمر شائع وصار من ضمن العادات المصرية، وقد يشارك فيه كل المارة حتى وإن لم تربطهم علاقة صداقة أو قرابة أو حتى معرفة بالعروسين، فالمشاركة هنا صارت جزءاً من تقليد إنتاج الضجيج واستهلاكه.

الدلالات متعددة وغريبة لكنها تؤكد أن آله التنبيه أصبح لها استخدامات متعددة، بل يمكن القول إنها صارت عادة أو إحدى قواعد القيادة فى شوارع القاهرة بل وربما فى ثقافة أغلب المصريين، فمن الشائع أن تجد شخصاً يقود سيارة، خاصة سائقى التاكسى والميكروباص، فى منتصف الليل والطريق شبه خال ومع ذلك يستخدم آلة التنبيه كل دقيقة، وقد سألت أحدهم ذات مرة وكان سائق تاكسى عن أسباب استخدامه آله التنبيه فى هذا الوقت المتأخر من الليل، فقال إنها العادة ثم ابتسم وقال: «ويمكن بأسلى نفسى عشان مانمشى». هكذا تصبح آلة التنبيه أداة للحفاظ على يقظة السائق، ولكن الأعجب أن هناك شبه اتفاق على استخدام آلة التنبيه بطرق منغمة، يتم فيها تمديد أو تقطيع صوت آلة التنبيه ليشكل سباباً وشتائم بذيئة يتبادلها سائقو المركبات ويفهمون دلالاتها. أما الذين لا يدركون دلالاتها فيصبحون دون أن يدركوا ضحية لممارسة أحد أشكال العنف اللفظى أو بالأحرى العنف الصوتى.

ولا يقتصر أمر استخدام آلة التنبيه على كونها عادة أو وسيلة للتعبير عن المشاعر لكنها أيضاً وسيلة لممارسة السلطة فى الشارع المصرى، وإعلان الوجود المادى فى صراع الطريق. بل وربما ممارسة نوع من العنف اللامادى فى الطريق وإيذاء الآخرين. فصاحب آلة التنبيه الأعلى صوتاً قد يتمكن من تخويف الآخرين فيفسحوا له الطريق، أو على الأقل يتسبب فى إزعاجهم. لذلك

يعكس الشارع القاهرى درجة عالية من التفاوت الاجتماعى ويطرح سؤالا عن إمكانية العيش المشترك بين أفراد وشرائح اجتماعية متفاوتة



يبدو أحيانا الصراع على أولوية السير أو الاستيلاء المؤقت على مساحة من الشارع لصف السيارة، كأحد مظاهر الصراع على السلطة، وتأكيد الهوية بين أفراد مختلفين طبقياً وثقافياً إلى أبعد الحدود

من المألوف أن يهتم كثير من المصريين بسلامة وقوة آلة التنبيه، من هنا قد يكون الاستخدام المتكرر وغير المبرر لآلة التنبيه نوعاً من التنفيس عن الذات المحبطة من مشكلات البيت والعمل وزحام الطريق.

وفى ظل غياب القانون والنظام تتعدد أنواع آلات التنبيه وتختلف فى قدرتها على الإزعاج، وتبرز هنا علاقتها بالسلطة عندما يستعمل بعض الأشخاص آلات تنبيه كالتى تستخدمها الشرطة أو سيارات الإسعاف. فيستخدمها عندما يزدحم الطريق ويغيب رجال الشرطة وذلك كنوع من التماهى مع السلطة وممارستها حتى لو تحقق ذلك عن طريق خداع باقى المتصارعين فى الشارع. ويتنافس سائقو التاكسيات والمينى باص وأصحاب السيارات القديمة فى شراء واستخدام آلات تنبيه ذات أصوات قوية لا تستعملها سوى شاحنات النقل، بحيث يبدو ارتفاع صوت آلة التنبيه الخاص بهم كنوع من ممارسة السلطة أو حتى التعويض عن التهميش الاجتماعى ونظرة الاستعلاء التى يمارسها أصحاب السيارات الجديدة أو الفارهة.

وإلى جانب آلة التنبيه يستخدم أغلب قادة المركبات فى مصر على اختلاف أنواعها - بداية من «التوك توك» إلى أتوبيس النقل العام - الراديو أو الكاسيت بطريقة تضيف مزيداً من الضجيج إلى الشارع. فالصوت المرتفع قد يبدو وكأنه عادة لدى البعض، أو إعلاء من شأن صاحب الصوت الذى يستمع إليه كل سائق ويفضله عن غيره، سواء كان مطرباً أو مقرئاً أو داعية أو قسا، لكنه فى الوقت ذاته يعتبر نوعاً من ممارسة السلطة وإعلان الوجود، وفرض ذوقه الخاص على الآخرين، خاصة عندما يتعلق الصوت المنبعث من هذه المركبة أو تلك بأغان أو شعائر دينية. أيضاً يمكن النظر إلى رفع صوت الراديو أو المسجل باعتباره نوعاً من التنفيس عن مكبوت أو إخفاق ما أو هروب من ضجيج أكبر إلى ضجيج خاص. وفى كل الأحوال تبدو التناقضات واضحة لصراعات الصوت المنبعث من كل مركبة عند إشارات المرور وعند الاختناقات المرورية، إذ يتجاور الجميع وتختلط الأصوات وتتداخل فتستمع دون رغبة منك إلى الصوت المرتفع والقوى لمطرب شعبى مثل شعبان عبد الرحيم والذى ينبعث من المركبة المجاورة، ويتصادف أن يتحرك نهر السيارات ببطء ليتجاور مع «شعبله» صوت داعية إسلامى أو رجل دين مسيحى شهير، أو صراخ مطرب أو مطربة شابة من نجوم الفيديو كليب.

قد يبدو هذا التشابك الصوتى بين متناقضات فى الصوت والموسيقى والمضامين وكأنه حلم أو نوع من المجون فى عصر ما بعد الحداثة وضياع المعنى، قد يبدو كذلك.. لكن من الصعب أن نصدق أننا فى مصر نعيش ما بعد الحداثة، لأننا لم ننجز الحداثة بعد. إنها بحق لحظة غريبة وماجنة، غير أنها صادقة وواقعية تماماً، فقد جلبت دون إعداد أو تنظيم مسبق تفضيلات المضامين الغنائية والدينية لعينة عشوائية من المصريين ومن كافة الشرائح الاجتماعية جمعتهم بالصدفة إشارة مرور أو زحام مفاجئ. هى لحظة عابرة تكشف عن تنوع وغرابة ما يستمع إليه المصريون، ويشكل وجدانهم وأذواقهم الفنية وثقافتهم ووعيهم السياسى. والمدهش أن كثيرا مما يستمعون إليه يتعارض مع ما تبثه وسائل الإعلام الرسمية، وما تقدمه لهم مناهج التعليم الحكومية، وكأن كثيراً من المصريين اتفقوا - دون تنسيق بينهم - على اختيار مضامين ترفيهية، وممارسة نوع من التثقيف الدينى أو السياسى، مغاير لما تقدمه لهم الدولة، خلال رحلات السير الطويلة والمعاناة المرورية اليومية.

٢- الكتابة والرموز على هياكل السيارات: لا تكاد تخلو مركبة تسير فى شوارع المحروسة من كتابات أو رموز ذات طابع اجتماعى أو ثقافى أو سياسى أو دينى أو مهنى. وكل منها يحمل فيضاً عجيباً من المعانى والدلالات متعددة الطبقات. فبعضها يحمل دلالات طبقية ومهنية فى آن واحد، وبعضها يعكس المكانة الاجتماعية والمهنية والمستوى الثقافى فى آن واحد، وكلها تصنع هويات مشتركة أو تتلمس وجودها فى مدينة مليونية مثل القاهرة، وفى عصر تشظت فيه الهويات وتعولمت. وصناعة الهوية صارت صناعة وتجارة وممارسة سهلة مراوغة لا تتطلب مجهوداً، بل تقتصر على وضع شعار أو حتى كتابة عبارة باللغة العربية أو الإنجليزية.

الأطباء يضعون علامات تميزهم، وكذلك الصحفيون، ورجال القضاء وأعضاء البرلمان بنوعيه، والعاملون فى شركة أو مؤسسة مرموقة. الكل يضع علامته التى تميزه من خلال ملصقات صغيرة على زجاج السيارة الأمامى بشكل واضح وفى نوع من التباهى الاجتماعى، ويبدو أن النقابات وبعض الشركات والأندية ترحب بذلك وتدعمه، فهو إعلان مجانى متحرك عن وجودها ونشاطها من جهة، وتأكيد على هوية فئوية أو مهنية من جهة أخرى. وعلاوة على تلك الملصقات الصغيرة هناك من يتعمد وضع قبعة رأس أو جاكت لضابط شرطة أو جيش، وذلك سواء كان مالك السيارة ضابطاً بالفعل أو مواطنا عاديا، فقوانين الدولة لن تحاسبه، وسيكسب نوعاً من التماهى مع السلطة أو الشعور بذلك، خاصة أن بعض المواطنين أو حتى عساكر المرور قد يخشون تسجيل المخالفات المرورية ضده أو على الأقل يعاملونه بطريقة تليق والرتبة العسكرية التى اختار أن يتماهى معها ويضعها فى سيارته. بل وصل الأمر إلى تبديل لوحة أرقام السيارة بلوحات الهيئات الدبلوماسية حتى يصبح صاحب السيارة بعيداً عن المساءلة ويتماهى مع أصحاب السلطة من الدبلوماسيين الأجانب.

ومن العجيب أن الجامعات دخلت سباق التمايز الهوياتى، وروجت له على نطاق واسع الجامعات الخاصة والأجنبية تحديداً، فكل جامعة توزع على طلبتها - ربما من باب الدعاية لنفسها - ملصقاً أو شعاراً لها يتضمن غالباً اختصاراً بعدة حروف لاسم الجامعة والكلية، وغالباً ما يكون باللغة الأجنبية التى تدرس بها الجامعة، فالجامعة الأمريكية شعارها باللغة الإنجليزية، والجامعة الألمانية بالحروف الألمانية، وهكذا الحال مع كل من الجامعة الفرنسية والروسية. لكن شعار كل جامعة أجنبية أو خاصة محمل بدلالات طبقية صارخة، ليس فقط بين طلبة كل جامعة بل بين هؤلاء الطلبة وأغلبية المصريين من خريجى الجامعات الحكومية. فأغلب طلبة هذه الجامعات يمتلكون سيارات خاصة بهم أو يستعملون سيارات أحد أفراد الأسرة، كما أن التحاقهم بالدراسة فى هذه الجامعة أو تلك، وبحسب ما هو معروف عن تكلفتها المالية، يعكس المكانة الاجتماعية المتميزة، وهنا تكمن المفارقة مع أغلب المصريين بما فى ذلك طلبة الجامعات المصرية الحكومية الذين تعلموا بالمجان، وحتى إذا امتلك بعض طلبة الجامعات الحكومية سيارات خاصة فأغلبهم لا يفكرون فى وضع شعارات أو ملصقات تعلن عن هويتهم الجامعية التى أشيع عنها وصارت تقدم فى صورة أدنى من الجامعات الأجنبية من الناحيتين التعليمية والطبقية، ولذلك فهم يرون أنها لن تضيف إليهم وربما تنتقص منهم.

وعلى كل حال فإن كثيراً من الملصقات والشعارات يمكن تزويرها، أو ادعاء الانتساب إليها على زجاج السيارات، وقد ظهرت صناعة وتجارة بيع الملصقات والشعارات والرموز من كل نوع، لذلك تحرص بعض النقابات والشركات والجامعات على التدقيق الشديد فى منح تلك الملصقات ذات الدلالات المهنية والطبقية.

وتنشط صناعة الملصقات والرموز وتوزيعها فى مواسم الانتخابات ومع الأحداث السياسية الكبيرة والمواجهات الثقافية الساخنة، فتظهر بعض الشعارات أو الرموز كما حدث أثناء الحملة الرافضة للرسوم المسيئة للرسول الكريم، أو مع الانتفاضة الفلسطينية وأحداث العدوان على غزة وفى غيرها من الأحداث والمواجهات الصاخبة. وكانت الحكومة قد منعت الكتابات والرموز الدينية أو السياسية التى تعلن عن هويات سياسية أو دينية مسيحية أو إسلامية، وقد خفت هذه الظاهرة بالفعل



وصل سباق التمايز الهوياتى
إلى تبديل لوحة أرقام السيارة بلوحات الهيئات الدبلوماسية حتى يتماهى راكب السيارة مع أصحاب السلطة من الدبلوماسيين الأجانب

لكنها عادت فى رموز لا يمكن معاقبة صاحبها مثل وضع مصحف فى داخل السيارة أو وضع صليب صغير أو صورة تمثال للعذراء مريم أو السيد المسيح.

ملصق المهنة أوالطبقة يتجاور مع الأيقونة الدينية لتصبح هياكل أغلب السيارات الخاصة، إلى جانب نوعها وسنة صنعها طبقية ودينية بامتياز. لكن لا تكتمل أيقنة السيارات الخاصة إلا بالنظر إلى ملصقات تصاريح المرور والتى تلصق عادة إلى جوار ملصق المهنة أو تحل محلها أحياناً. فيتباهى البعض بتصريح دخول وزارة الداخلية إلى جانب تصريح الدخول إلى مارينا، إلى جانب تصريح دخول أحد الأندية الرياضية المرموقة. تتجاور كل تلك الأيقونات فى شكل من أشكال ممارسة السلطة والتمايز عن الآخرين، وأحياناً تغطى أربعة تصاريح مرور أو أكثر جانباً من زجاج السيارة لكنها تكشف مكانة صاحب السيارة أولاً أمام نفسه، وثانياً أمام كل من يشاهده أو يشاهد سيارته. فحتى إذا كانت السيارة واقفة بدون ركاب فإن صاحبها حاضر لدى كل من يشاهدها، إنه حضور معنوى متجاوز الحضور المادى لصاحب السيارة - السلطة، حضور عبر أيقونات تعكس الاقتراب من السلطة وممارستها، فكل الأبواب المهمة مفتوحة أمام صاحب هذه السيارة.

تجليات أخرى للأيقونة وممارسة السلطة تمارس من خلال تركيب ستائر غامقة اللون على الزجاج الخلفى للسيارة، أو تظليل الزجاج «الفيما» مما يضع حاجزاً ذا طابع سلطوى بين الراكب والشارع من حوله بكل ما فيه من مركبات وراكبين ومشاة. ورغم أن هذا الحاجز قد يكون مصطنعاً وزائفاً تماماً، ولايقره قانون المرور إلا أنه يحقق نوعاً من الترضية السلطوية للراكب بمعنى أن الراكب ينجح فى تحقيق أهدافه فهو يتماهى مع رجال السلطة ويمارس السلطة تجاه الآخرين، فرجال المرور يظهرون له قدراً من الاحترام، وقد لا يوقفون السيارة للتدقيق فى سلامة أوراقها، فى الوقت ذاته فإن هذا الحاجز قد يمنع تلصص الأعين على الراكب ويجعل شخصيته المجهولة تثير خيال الآخرين حول من يكون صاحب السيارة وتجعلهم يعتقدون بأهميته لاسيما إذا كانت سيارة حديثة ومن الأنواع التى يقدرها المصريون تماماً كالسيارات المرسيدس، والتى باتت أحد رموز المكانة الطبقية فى مصر بغض النظر عن سنة صنعها وسعرها. والمؤكد أن أيقنة السيارة صارت جزءا من ثقافة أغلبية الناس فى المحروسة، فالمتلقون سواء كانوا من المارة أو أصحاب السيارات الأخرى قادرون ولا شك على قراءة معانى ودلالات تلك الأيقونات المتعددة، وإلا لما كان صاحبها قد اجتهد فى الحصول عليها وحرص على إبرازها. إنها باختصار صارت لغة غير محكية ولكنها مقروءة ومستوعبة ومفهومة على نطاق واسع.

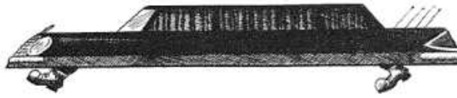
أيقنة ورمزية السيارات الخاصة ربما لم تكن حاضرة أو منتشرة عندما أبدع أستاذى العالم الجليل سيد عويس بحثه الرائد: هتاف الصامتين، عن ظاهرة الكتابة على هياكل السيارات فى ستينيات القرن الماضى، ذلك أنه ركز فى بحثه على الشعارات والكلمات المكتوبة على سيارات النقل والتاكسيات، وكلها تعكس بأمانة حال وثقافة ملاك وسائقى هذه السيارات، كما تعكس فى الوقت نفسه جوانب مهمة من ثقافة المجتمع المصرى كالتدين والصبر ورفض الظلم والإيمان بالحسد والرزق والرضا بالقسمة والنصيب وغيرها من القيم السائدة فى ثقافة المجتمع آنذاك.

والشاهد أن هذه الظاهرة استمرت وانتشرت على سيارات النقل والأجرة فى المحروسة حتى كتابة هذه السطور. ورغم اختلاف أنواع السيارات وانتشار الميكروباص والسيارات نصف النقل وثلاثة أرباع النقل بل والثلث نقل والتوك توك، إلا أن الظاهرة لا تزال منتشرة مع اختلاف الشعارات والكلمات والرموز. فقد ظهرت مفردات وتراكيب لغوية وشعارات جديدة، بعضها غريب وعدوانى تجاه الآخرين، لكن يظل هيكله العام مسالماً، فهو خطاب الصامتين أو المهمشين الكادحين يومياً وراء أرزاقهم فى مدينة بلا قلب، مدينة تتعملق وتتوحش كأخطبوط كبير من الأسمنت يتحرك بلا عقل أو ضمير. ومن ثم تتضاعف مخاوف هؤلاء المهمشين ومشاعرهم بالضياع والعجز. نحن بحق أمام خطاب مصرى أصيل فى كل مكوناته ورموزه، خطاب يعكس صدق ثقافة ابن البلد، ومعاناته، بعيداً عن التقليد أو التغريب أو رموز وأيقونات العولمة، فهو خطاب لايتباهى بمكانة منتجيه أو وضعهم الطبقى أو الثقافى، كما لا يتماهى مع السلطة بل يخشاها ويخاف من ظلمها ويدعو الله أن يتجنب أذاها ومكر الأيام وتقلب الأحوال، ويدعو بالستر ويتمسك بالإيمان والصبر. لذلك تجد أغلب الكتابات على سيارات الأجرة والنقل والميكروباص تدعو الله بالسلامة أو منع الحسد والشر، وتستعير آيات قرآنية أو أمثالا شعبية وحكما قديمة. ومع الدعوات والأمثال قد تجد اسم أبناء وبنات صاحب التاكسى أو رسما لعين الحسود أو حذاء لطفل صغير أو علم أمريكا أو بريطانيا أو شعار أحد أندية كرة القدم. وقد عبر أحدهم عن كل هذا التخبط واللا معنى عندما كتب على زجاج سيارته الخلفى «ما حدش فاهم حاجة».

٣- كرنفال من المركبات: شوارع القاهرة هى بحق فضاء ثرى وبالغ التعقيد لعشرات الأنواع من المركبات. سيارات خاصة، حافلات فاخرة وشعبية للنقل الجماعى، أتوبيسات النقل العام، سيارات نقل خاصة وعامة، مركبات للجيش والشرطة، عربات كارو تتجاور مع أحدث أنواع السيارات الخاصة وأغلاها ثمناً، دراجات نارية ودراجات هوائية، ومؤخراً أضيف التوك توك (الراكشا الهندية). طيف لا ينتهى من الألوان والماركات والأنواع لمركبات تتحرك فى صخب وضجر، صراع وتوتر لا ينتهى ولا يصل إلى درجة الصدام أو الانفجار. وفى القلب من التعدد والزحام تبرز قيم الحداثة والمعاصرة، ودلالات طبقية وثقافية لكل مركبة ولمن يستخدمها. سيارات خاصة فارهة، وتاكسيات متهالكة، عربات كارو تنقل زبالة القاهرة أو تنقل نساء ورجال وأطفال بين بعض أحياء القاهرة، كل ذلك جنباً إلى جنب مع سيارات نقل عملاقة تحولت إلى ما يشبه القلاع أو السجون الحديدية تستخدم لنقل جنود الأمن المركزى، وسيارات عسكرية عملاقة تنقل مدرعة أو مدفعا ضخما. سيارات نصف نقل وسيارات نقل تنقل مواشى أو أثاثا لأسرة قاهرية فقيرة أو أثاثا جديدا لعروس فقير أو ثرى، ويمكنك أن تتأمل الأثاث وتبارك للسائق أو من يركب بجواره أثناء توقف حركة السير. ويمكنك أيضاً أن تطلب من سيارة نصف نقل تنقل فاكهة أو خضارا أن يقذف لك ببرتقالة مما يحمله، والمدهش أن الشخص الذى يحرس الفاكهة غالباً ما يستجيب ويلبى طلبك.

أما المركبات السياحية الفاخرة فعادة ما تكون مرتفعة عن بقية مركبات الشارع، وعندما تتطلع إليها بعيونك، تجد عشرات العيون والكاميرات المشهرة نحوك ونحو الآخرين فى الشارع، عيون وكاميرات لسائحين أجانب يتأملون فى استرخاء أو فى دهشة وربما صدمة خطاب الشارع المصرى. المشهد برمته يبدو غريباً للغاية. فالسائحون ببشرتهم البيضاء التى ضربتها حمرة شمس النيل يبدون وكأنهم كائنات فضائية هبطت للتو فى شوارع القاهرة تلاحقهم عيون المارة فى كل مكان. المشهد بالغ التناقض بين بشر تطفح من وجوههم دلالات النعمة والعيش الرغد الكريم والراحة الاختيارية، وبين عامة الناس فى القاهرة من المشاة المكدودين المهمومين. وركاب الأتوبيسات العامة المحشورين كالسردين فى صفيح الأتوبيس الساخن.

عالم من المتناقضات المتجاورة والمتعايشة فى سلام، حياة عابرة أو بالأحرى تعايش عابر بطول رحلة السير فى الطريق، وتنتهى الحياة بعودة كل راكب أو سائق إلى أسرته أوعالمه الخاص، سواء كان داخل القاهرة أو فى إحدى قرى أو مدن الدلتا أو الصعيد. هذا التجاور المكانى لا يتحقق إلا لدقائق، كما أنه لا يتجاور فى الزمن، والزمن هنا بمعنى عصور ومراحل



شهدنا تجليات أخرى للأيقونة وممارسة السلطة تمارس من خلال تركيب ستائر غامقة اللون على الزجاج الخلفى للسيارة، أو تظليل الزجاج

التقدم. فالسائح قد ينتمى زمنياً إلى مجتمع أو مدينة حداثية أو ما بعد حداثية، بينما راكب الميكروباص ربما ينتمى زمنياً على المستويين الفكرى والمادى إلى عصر الزراعة أو حتى الرعى. مصريون يعيشون عصور ما قبل صناعية جنباً إلى جنب مع مصرى آخر يعيش فى القاهرة ويركب نفس الميكروباص ويعمل فى شركة متعددة الجنسيات فى مجال البرمجيات، بينما مصرى ثالث يركب إلى جانبهم سيارته الحديثة المزودة بأحدث تكنولوجيا العصر بينما ينتمى ذهنياً وفكرياً إلى عصر الزراعة أو البداوة.

تجاور مكانى ولا تزامن عجيب، لكنه ضمن خطاب الشارع والناس فى المحروسة. وتجاور آخر بدون مساواة أو عدالة اجتماعية. لكن هناك إذا شئنا الدقة مساواة افتراضية، حيث يحقق الشارع القاهرى تجاوراً وتعايشاً بين أنواع شتى من السيارات والبشر من طبقات وشرائح اجتماعية متفاوتة، يجمعهم الشارع فقط وتفرقهم الفوارق الطبقية والمهنية والمادية والثقافية. وفى كل الطرقات يسير كل قادة المركبات وبغض النظر عن وضعية كل منهم الطبقية والثقافية ونصيبه من السلطة ورموزها، الكل سواء فى الشارع، ومن حقه أن يحاول المرور قبل الآخر، أو السيطرة على مكان ليصف فيه سيارته. لكن تظل هذه المساواة أمراً افتراضياً فهى زائلة بانتهاء التجاور المكانى لعدة دقائق فى الطريق، حيث سيعود كل شخص إلى عالمه أو طبقته. كما أن سيارة كل شخص ونوعها ورموزها تعكس تراتبية طبقية لها دلالات ورموز ثقافية واضحة. من جانب آخر عادة ما تنهار المساواة الافتراضية عندما يمر موكب وزير أو مسئول كبير، حيث تنقض سيارات الحراسة الرباعية الدفع على الطريق، ويلوح راكبوها من الحراس فى توتر وعنف بأيديهم وبأجهزة الاتصال وأحياناً بالمسدسات للمركبات كافة ليطالبوها بالتوقف أو إفساح الطريق لمرور موكب الوزير أو المسئول. المشهد غريب ويقدم نوعاً من الممارسة الفجة للسلطة فى الطريق بأكثر ما يقدم نوعاً من الحماية والتأمين لشخصية المسئول. وبالطبع هناك عشرات المواكب ومئات الحراس للمسئولين فى الدولة ممن يستخدمون شوارع وطرقات المحروسة، وبالتالى يتكرر المشهد ويصبح ممارسة يومية تنهى أولاً المساواة الافتراضية بين المركبات وراكبيها، كما تنهى صراع السلطة بينهم وتجعلهم سواء فى الشعور بالقهر والضيق والضجر من خضوعهم لسلطة أكبر ظالمة جعلت نفسها فوق الجميع، وتؤكد على أن الشارع هو مجال مميز وعام لممارسة السلطة وقهر الآخرين.

تجاور بدون مساواة فى شوارع المحروسة، بل ربما يكون تجاوراً قهرياً لممارسة السلطة ضد الآخرين، بل وتخويفهم، دون أن يصل الأمر إلى النيل منهم، أو إلحاق الأذى المادى بهم أو بسياراتهم. فى مشهد مواكب السلطة ورجالها نجد التخويف دون إلحاق الأذى المادى. كما نجده فى عدوانية أتوبيسات النقل العام والميكروباص ضد كل المركبات الأصغر اعتماداً على ضخامة الحجم وصعوبة التعامل القانونى مع سائق الأتوبيس أو هيئة النقل العام، علاوة على أن هذا الكائن العملاق (الأتوبيس) الذى يسير طوال ساعات النهار يحمل عشرات المواطنين، وبالتالى يصعب توقيف أو تعطيل مصالح هؤلاء الناس فى حالة حدوث احتكاك بسيط بين الأتوبيس وسيارة خاصة يستعملها شخص بمفرده وإلا واجه ثورة جماعية ضده من ركاب الأتوبيس، وهنا أيضاً ممارسة لنوع آخر من السلطة وهى سلطة الجماعة التى قد تفوق فى قوتها سلطة صاحب السيارة الخاصة. هذا التقابل بين الوجود الفردى لسائق السيارة الخاصة، والوجود الجمعى لراكبى الأتوبيس ربما يخول للأخير مشروعية غير معلنة لكنها متفق عليها ضمناً وتمارس بدون إعلان، وتتعلق بمنح الأولوية فى الطريق لهذا الكائن العملاق بحجمه وبالناس الذين يحملهم. فالأولوية للمجموع مقابل الفرد، بما قد يعنى ممارسة نوع من العدالة الاجتماعية على الطريق.

وبغض النظر عن صحة هذا الاتفاق غير المعلن فإنه يمكن تفسير سلوك أتوبيسات النقل العام كشكل من أشكال التعويض أو الانتقام من أصحاب السيارات الخاصة المسترخين خلف مقود سياراتهم المكيفة ولايعانون من مشكلات الأتوبيس وزحامه.

وتختلف عدوانية الميكروباص عن عدوانية أتوبيس النقل العام، فهى أكثر مراوغة وسرعة، اعتماداً على حداثة كثير من الميكروباصات وتقدمها التكنولوجى وصغر حجمها مقارنة بديناصورات هيئة النقل العام المتهالكة، ومن ثم فإن الأخيرة عدوانيتها فجة ومباشرة وتتسم بالبطء، ويبدو سائقو أتوبيسات النقل العام كمن يقود بعيراً عجوزاً، وفى المقابل فإن عدوانية الميكروباصات واستيلاءها على الطريق تشبه النشل أو الخطف. وهنا قد يبدو الفارق بين الاثنين كالفارق بين حيوية ومغامرة القطاع الخاص وبطء وبيروقراطية القطاع العام. فأتوبيسات النقل العام لها خطوط سير محددة ومحطات معروفة تتوقف عندها، كما أنها لا تسعى للربح فأسعارها أقل بكثير من الميكروباصات. أما الميكروباصات فهى على العكس تعمل بهدف تسديد ثمنها فى شكل أقساط مستحقة للبنوك إضافة إلى تغطية تكلفة تشغيلها وتحقيق ربح للمالك أو الملاك، لذلك فإن أغلب الميكروباصات تعمل على مدار الساعة تقريباً وتلهث مسرعة ليل نهار من أجل بيع خدمة النقل لأكبر عدد من الناس. وهى فى سرعتها وسباقها للزمن تعانى من ضغوط متعددة وإكراهات كثيرة، قد تدفعها إلى ممارسات عدوانية ضد الجميع. فهى عندما تراوغ وتتلوى وتتحايل وتهرب من الزحام عبر طرق جانبيه من أجل الحصول على أولوية المرور تحقق شكلاً من أشكال الانتصار أو التعويض عن كل الإكراهات التى تطاردها، فالمسألة معها حياة أو موت عكس عدوانية الأتوبيس التى تبدو كانعكاس لضخامته وتهالك حالته، وكتنفيس طبقى وثقافى لركابه ضد أصحاب السيارات الخاصة.

على مستوى آخر قد يمارس بعض قادة السيارات الخاصة ومعظمهم من الشباب المراهقين عدوانية من نوع ثالث تعتمد على إرهاب الآخرين بهدف استعراض مهاراتهم فى القيادة وقدرات السيارة التى بحوزاتهم والتى غالباً لم يحصلوا عليها مقابل عمل أو جهد، فهى عادة هبة من الوالد أو الوالدة. ويبدو أن استعراض وضجيج هؤلاء الشباب هو نوع من البحث عن المعنى أو إثبات لوجود ضائع لدى فئة محدودة من الشباب المرفه.

ومع الممارسات العدوانية لقائدى المركبات فى شوارع القاهرة، وفى ظل غياب القانون وعدالته البطيئة، من الطبيعى أن تجد هياكل كل المركبات التى تتحرك فى شوارع القاهرة مصابة بكدمة أو خربشات هنا أو هناك. كما أن زجاج مصابيح السيارات الخلفية عادة ما تكون محطمة كلياً أو جزئياً. ومن النادر حقيقة أن تجد هيكل سيارة قاهرية سليما تماماً، وإذا صادفت مثل هذه السيارة فإما أن تكون سيارة جديدة عمرها لا يتجاوز أياما أو أسابيع قليلة أو أن تكون سيارة خارجة للتو من ورشة إصلاح أو تجديد. لذلك فالقاعدة أن تسير المركبات فى شوارع المحروسة وبها تشوهات أو كدمات ناتجة عن الزحام وعدوانية البعض أو عدم معرفة البعض الآخر بقواعد ونظم القيادة فى المحروسة، وهى بالمناسبة نظم تعتمد اللا قواعد واللا قانون أساساً فى القيادة. وبهذا المعنى يعجز كثير من الناس الذين تعودوا على القيادة فى عواصم تلتزم بقوانين المرور عن القيادة فى المحروسة.

وفى هذا الإطار قد تصطدم سيارتان فى القاهرة دون أن يصل الأمر إلى إبلاغ الشرطة أو تحرير محضر بالواقعة للحصول على إذن لإصلاح السيارتين، خاصة أن أغلب السيارات غير مؤمن عليها ضد الحوادث، رغم كثرة الاحتكاكات والمصادمات. ويبدو أن كثرة الاحتكاكات والمصادمات قد جعل الناس فى المحروسة يتعودون على مشاهدة واستخدام سيارات مشوهة أو بها كدمات وخربشات. حتى صار البعض لا يصلح سيارته من أول كدمة وينتظر حدوث كدمة أو اصطدام ثان وربما ثالث حتى



الغريب أن هذا التمايز المصطنع والمزيف ينطلى أحيانا على رجال المرور فيظهرون قدراً من الاحترام والمعاملة المتميزة لراكب السيارة

يذهب لإصلاح كل التشوهات دفعة واحدة، مما يقلل تكلفة إصلاحها فى إحدى الورش الصغيرة المنتشرة داخل حدود القاهرة وعلى هوامشها، ويعمل بها عشرات الألوف من العمال والصبية الصغار وأصبحت جزءا من حياة القاهرة.

وفى مدينة عملاقة مثل القاهرة ينتشر فى شوارعها وبين سكانها وزائريها مظاهر الحرمان أو الإحباط يمارس الآلاف من أطفال الشوارع والمراهقين ذوى النزعات العدوانية لعبة خربشة السيارات بمفتاح شقة صغير أو مطواة، ويتركز هذا السلوك العدوانى على السيارات الحديثة والفارهة التى تقف على جوانب الطرقات أو فى أماكن الانتظار، وذلك كشكل من التنفيس عن غضب طبقى أو إحباط نفسى أو عن الاثنين معاً. من هنا تحمل أغلب سيارات القاهرة الخاصة خربشة ما كدليل على حرمان طبقى أو نزعة عدوانية حبيسة النفوس ولا تنطلق إلى فضاء العام إلا عبر خربشة هياكل السيارات وتشويهها.

وهكذا تصبح الخربشات والخطوط التى تشوه كثيرا من هياكل المركبات فى القاهرة، بمثابة خطاب عنف لبعض الفئات الرافضة او الهامشية لما يدور حولها. غير أن هذه الفئات اختارت هياكل السيارات كفضاء للبوح بخطابها إلى الناس، وهو خطاب لا يحمل علامات أو معانى محددة سوى التمرد والانتقام من أصحاب هذه السيارات الضحية أو المفعول بها. فى الوقت نفسه فإن هياكل السيارات تصبح فضاءً أو مجالاً لصراع السلطة، سلطة أصحاب وقائدى السيارات عندما يحملون تلك الهياكل بفيض من العلامات والدلالات التى تعكس مكانتهم وسلطتهم داخل المجتمع، وفى المقابل يرد أولاد الشوارع والشباب المتمرد وبعض الأشخاص العدوانيين على هذا الخطاب بممارسة خطاب مضاد لسلطة ومكانة أصحاب السيارات، حيث يلجأون ليس فقط لخربشة هياكل السيارات وانما لخربشة سلطة أصحابها ومكانتهم وتحدى أعراف وتقاليد المجتمع بعدم احترام ملكية الآخرين واحترام خصوصيتهم.

٤- حضور مراوغ للدولة والقانون:

رغم القوة التاريخية والوجود الثقيل للدولة المصرية ومؤسساتها عبر التاريخ إلا أن هذا الوجود بكل تجلياته المادية والرمزية، اتسم فى السنوات الأخيرة بطابع مراوغ شديد الغرابة. فكثير من الشوارع بلا إشارات للمرور، كما يغيب عنها أى وجود مادى أو رمزى للدولة. بينما تجد هناك حضوراً مكثفاً لرجال الشرطة والمرور فى شوارع وتقاطعات أخرى بحسب الأهمية الأمنية أو السياسية لكل شارع أو حى. وفى نفس الشارع تجد فى بعض أجزائه تسامحاً فى تطبيق قوانين المرور خاصة أماكن الانتظار، والتزاماً وتشددا فى أجزاء أخرى. أكثر من ذلك فتطبيق قوانين المرور يختلف بحسب أشهر السنة، وبحسب بعض المناسبات كما يحدث فى شهر رمضان أو شهر ديسمبر.

أما إشارات المرور فهى لا تعمل فى أغلب التقاطعات، بل ومتوقفة فى كثير من الشوارع منذ شهور. وحتى إن عملت فإنها بلا معنى أو دلالة أو حضور، فالإشارة عندما تكون حمراء مما يعنى فى كل العالم توقف عبور السيارات تجد السيارات فى المحروسة تعبر بل وتجد ضابط أو شرطى المرور يشير لك بالعبور، باختصار تلغى آلية وحيادية إشارات المرور، وتدار حركة المركبات والمشاة فى التقاطعات والإشارات المهمة فى القاهرة بشكل يدوى وباستخدام إشارة اليد لشرطى المرور أو الصافرة أو الاثنتين معاً. وفى مشهد غير معروف فى عواصم العالم يقف أحياناً ضابط كبير برتبة لواء فى الشارع وإلى جانبه عدد من الضباط الأقل رتبة لتنظيم المرور. وقد يعلو صراخ هؤلاء إلى جندى المرور فى الطرف الثانى من الميدان لكى يفتح الإشارة أو يغلقها، وبالطبع يقوم الجندى بتنفيذ الأمر يدوياً، أى يشير إلى السيارات، لكن سائقيها قد لا يحترمون الجندى لضآلة رتبته أو لكونه مجرد مجند، وليس جندى مرور عاملاً ممن يحق له تسجيل المخالفات المرورية، وبالتالى يضطر المجند المسكين إلى الوقوف بجسمه أمام تدفق السيارات فى الطريق حتى يوقفها.

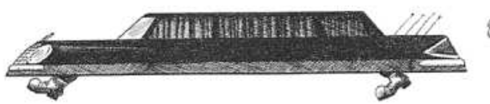
كان الشارع المصرى قبل ثلاثين عاماً يتسم بقدر مقبول من الانضباط والحضور القوى والمؤثر لسلطة الدولة والقانون، فضلاً عن الالتزام الطوعى للمواطنين بالإذعان لسلطة قانون المرور وعلاماته ورموزه. لكن هذه الأوضاع انقلبت رأساً على عقب، وتبدلت الأحوال إلى النقيض فى معظم شوارع القاهرة، وأعتقد أن اللحظة التى شهدت النهاية الرمزية المادية والمعنوية لاحترام إشارة المرور والإذعان لها، كانت هى بداية ضياع سلطة القانون وضعف الدولة، ومن ثم حضورها المراوغ فى كافة المجالات، بما فيها تنظيم حركة المرور. فقد تنازلت الدولة والمجتمع عن الآلية المنضبطة والمحايدة للقانون، ولإشارة المرور بكل رمزيتها التى تنتمى إلى دولة المؤسسات والدولة الحديثة، وجرى الاعتماد على آليات تنتمى إلى مجتمع ما قبل الدولة الحديثة لتنظيم حياة الناس والمجتمع. فتنظيم المرور يتم بشكل يدوى غير محايد، ومن ثم اتسعت دائرة الأمور النسبية وسادت ثقافة الفهلوة، واحتلت الواسطة والمحسوبية وتوريث المهن والوظائف العامة مساحة أوسع فى حياتنا، وذلك كله عوضاً عن التنظيم الحديث للمجتمع المعتمد على الأداء الاحترافى للبيروقراطية فى كل المجالات بما فيها مجال المرور.

تراجع الأداء إلى ما قبل المجتمع الحديث، وسادت الصافرة والإشارة اليدوية بدلاً من الإشارات الضوئية والعلامات المرورية الثابتة والمتغيرة، وسادت ثقافة الفهلوة المرورية فى سلوك قادة المركبات بأنواعها والمارة ورجال المرور، ولا شك أن ثقافة الفهلوة أصبحت أحد مكونات ثقافة الحياة والناس فى مصر، وعلى كافة المستويات، وهى ثقافة تعادى النظام، وترفض القانون وتتحايل عليه، وتتسم بطابع برجماتى قصير النظر يؤدى عادة إلى وقوع خسائر هائلة وكوارث بالجملة.

ثقافة الفهلوة قادت الفكر والأداء المرورى إلى عدم التصدى لمشكلة ضياع معنى الإشارات المرورية الضوئية، والالتفاف حولها توفيراً للوقت والجهد، ومن ثم اخترع أحد أو بعض الفهلاويين الكبار نظام اليوتيرن، فألغى كثيراً من إشارات المرور عند التقاطعات، واعتمد نظام اليوتيرن، الذى أثبتت التجربة بعد عدة سنوات فشله وتحوله إلى أحد أسباب الأزمة المرورية الدائمة فى القاهرة، فهذا النظام لا يتناسب مع مدينة عملاقة ومزدحمة مثل القاهرة، ولكنها الفهلوة التى أوجدته وسمحت باستمراره، ربما للتخفيف عن كاهل رجال المرور، وربما لأن هذا النظام الذى يفتقر إلى المعيارية والوضوح يتماشى مع الثقافة السياسية السائدة.

اختفت من المحروسة تقريباً النظم الآلية المتعارف عليها لاحترام إشارات المرور، فعند أى إشارة أو يوتيرن تجد أحد ضباط المرور أو جنود المرور حيث يتعايش النظام الآلى مع النظام البشرى اليدوى، وغالباً ما تكون السيادة والغلبة للعنصر البشرى عندما يقع أى تضارب بين النظامين، وغالباً أيضاً ما لا يحترم قادة المركبات أو على الأقل يظهرون قدراً أكبر من الاحترام لجنود المرور وإشاراتهم إلا عندما يقف أحد الضباط عند إشارة المرور، هكذا يتفتت مفهوم ورمز السلطة ونصبح إزاء سلطة يتحايل عليها المواطنون، ويصبح مفهوم السلطة مرتبطا بالرتبة الأعلى أو تحديداً بالقدرة على توقيع العقاب على قادة المركبات.

ومهما تكن مسئولية المواطنين وعدم وعيهم أو محاولتهم التهرب والالتفاف على القانون وفق ثقافة الفهلوة وآلياتها العجيبة، فلا ريب أن هناك مسئولية للدولة التى سمحت بغياب القانون أحياناً أو حضوره فى شكل مراوغ وغير حيادى، ويتجلى الوجود المراوغ للقانون عند تسجيل المخالفات أو تطبيقها على المركبات المخالفة أو قادة المركبات، حيث نجد تفاوتاً واضحاً بحسب نوع السيارة والشخص الذى يقودها ومكان وزمان وقوع المخالفة. من جانب آخر يلعب قادة المركبات دوراً فى إنهاء ما تبقى من سلطة القانون ورمزيته حيث يمارسون السلطة ضد



في القلب من التعدد والزحام
تبرز قيم الحداثة والمعاصرة، ودلالات طبقية وثقافية لكل مركبة ولمن يستخدمها

المنوط بهم تطبيق القانون، خاصة عندما يغيب ضابط المرور ويبقى جنود المرور، عندها نسمع دائماً «إنت مش عارف أنا مين»، و«شوف إنت بتكلم مين». وحتى في وجود ضابط صغير أو متوسط الرتبة تتكرر نفس العبارات أو تبرز عبارة «اكتب المخالفة أو اسحب الرخصة وانا هاعرف أجيبها إزاى» !!

هكذا تتصارع السلطات وتتجاور وتتصالح أحياناً في شوارع القاهرة، لكن المدهش أن سلطة المواطنين أو ادعاءاتهم بالسلطة والنفوذ تكون على حساب الحياة الحقيقية والرمزية لقانون المرور نفسه، والجنود والضباط المخولين بتطبيقه على الجميع وعلى قدم المساواة. فتحدث الفوضى متعددة الأبعاد، فوضى مرورية، وفوضى في ممارسة السلطة ورمزيتها، وفوضى في امتهان قانون المرور.

هكذا تفتقد شوارع المحروسة للمعنى والمعيارية، ويسودها خطاب سلطة مراوغ ومختل، لا تسيطر عليه أو تمارسه الدولة بل تشاركها فيه سلطات عديدة متنافسة. فهناك أولاً السلطة الأصلية، وهي سلطة الدولة كما تتجسد في ضباط وجنود المرور، لكن سلطة هؤلاء تتفتت بين الضباط والجنود. وفي كثير من الأحيان يبيع هؤلاء الجنود و بعض أمناء الشرطة - وبمساعدة البلطجية - خدماتهم لمن يدفع من سائقي الميكروباص والتاكسي وعربات النقل، أو يشتري قادة المركبات بأنواعها سلطة هؤلاء الجنود الذين يحصلون على رواتب هزيلة لا تسد الحاجات الأساسية لهم مما يجعلهم يتقاضون الرشاوى والإكراميات بمختلف أنواعها من قادة المركبات، خاصة أن الفوضى عارمة والسلطة مراوغة والوعي القانوني لدى هؤلاء الجنود جد متواضع. وربما تبرز ثقافة الفهلوة لدى قادة المركبات بأنواعها في ممارسة الرشوة لشراء أضعف حلقات السلطة، كذلك فإن ثقافة الفهلوة وحدها هي القادرة على تأويل الموقف كله من خلال فتوى تزعم أنها دينية بأن الرشاوى الصغيرة نوع من المساعدة أو الصدقة، لذلك تنتشر على نطاق ملحوظ ظواهر توقف المركبات الخاصة لتوزيع نقود على جنود المرور وعمال النظافة في كثير من شوارع القاهرة. والمدهش أن الجنود وعمال النظافة أصبحوا يبادرون بطلب هذه المساعدات، والتي تتحول إلى ممارسة عامة خاصة في شهر رمضان من كل عام، حيث يشارك فيها الجميع بحماس وتراحم لا يخلو من متعة ممارسة السلطة وتهميش دورها عبر تغيير مفهوم وصورة الموظف العام.

وهناك ثانياً سلطة قادة المركبات، خاصة عندما تكون المركبة تابعة إلى إحدى جهات الدولة السيادية. وهناك ثالثاً سلطة سائقي الميكروباص وأتوبيسات النقل العام، وسأكتفي بالأخير والذي تمتد سلطته في قيادة كائن معدني ضخم ومتهالك في إرهاب المركبات الأخرى والمشاة والحصول على أولوية المرور. كما أن سلطته تمتد ليمارسها على راكبي الأتوبيس، فقد لا يتوقف عند المحطة المحددة لسبب أو لآخر. وقد يتوقف عند بائع كشري أو سندوتشات ليحصل على وجبه له وللكمساري. وقد يتوقف في غير أماكن المحطات الرسمية ليلتقط من الطريق سيدة عجوزا أو فتاة جميلة أو صديقا.

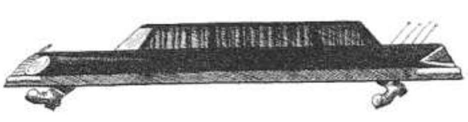
وهناك رابعاً سلطة سائق التاكسي والتي قد تبدأ باختيار من يقوم بتوصيله حسب مظهره والجهة التي يريدها، وبالتالي توقع المردود المالي من الزبون، وفي بعض الحالات قد يقوم بالتفاوض والاتفاق معه على المبلغ المطلوب. ويمارس سائق التاكسي سلطته أيضاً عبر التقاط راكب ثان وربما ثالث إلى جوارك، وذلك بحسب «تساهيل ربنا» كما يقول، ووجود أكثر من راكب على نفس خط مسار الراكب الأول، وأحيانا لا يكون نفس المسار تحديداً مما يعني توصيل الراكب الأول في وقت أطول نسبياً. غير أن سلطة سائق التاكسي تتواصل عبر ممارسة ناعمة لسلطته على الراكب الأول من خلال ابتسامة وكلمة استسماح طيبة عن التعاون وروح الأخوة في الإسلام مثلاً أو غيرها من العبارات التي تبدو بدون معنى. وبطبيعة الحال لايمتلك الراكب الأول سوى الموافقة أو الصمت. فلا مجال أمامه للتراجع، ففي حالة غياب القانون وسلطة الدولة وانتشار اللا معيارية في استخدام التاكسي في شوارع المحروسة يكون من الأفضل للراكب أن يتحمل إلى أن يصل إلى غايته.

فاللقاء عابر، والتجاور مؤقت، ولن يتكرر اللقاء بين الطرفين. وقد يتحمل الراكب الحالة السيئة للتاكسي المتهالك، وأصوات الغناء الهابط أو الداعية السطحي ذي الصوت المزعج المنبعث من كاسيت التاكسي، لكنه مع ذلك قد يمارس سلطته ضد سائق التاكسي عندما تحين ساعه الحساب ودفع الأجرة، وهي عملية تقديرية ونسبية تماماً تتصارع فيها سلطات السائق والراكب. فمع اللامعيارية المهيمنة على شوارع المحروسة بل وربما مناخ السياسة والاقتصاد والحكم في مصر، لا وجود فعلي لعدادات حساب تعريفة استخدام التاكسي، رغم أنها تعمل، والأهم أنها تعتبر أحد شروط تجديد الترخيص السنوي للتاكسي. لكن التسعيرة غير الواقعية التي تفرضها الدولة، وخوفها أو تقاعسها عن رفع التسعيرة جعل هناك اتفاقا غير معلن بين سائقي التاكسي والمواطنين ورجال المرور على عدم الاحتكام للتعريفة المعلنة من خلال العداد. وبالتالي ينفتح المجال بدون ضابط أو معيار أمام سائقي التاكسي والركاب لممارسة أنواع شتى من الصراع وفي أحيان أخرى التراحم والتعاطف.

وهناك خامساً سلطة السياس الذين ينظمون ساحات انتظار السيارات وجوانب الطريق، وهؤلاء أصبحوا فئة لها حضور مادي ورمزي في معظم شوارع المحروسة، ويعملون وفق أعراف ونظم غير مدونة، لكن كلا منهم يمارس سلطة في الشارع ولايخضع لرقابة واضحة أو نظام للمحاسبة. ويبدو أن الدولة فشلت تماماً في تنظيم أوضاع هذه الفئة أو أن تحل مكانهم في بعض ساحات الانتظار. لقد اكتفت الدولة بتوظيف بعضهم وفرضت عليهم رسوماً محددة ينبغي عليهم تسديدها، أي استفادت مالياً من وجود هذه الفئة دون أن ترتقي بنوعية الخدمة المقدمة والتي أصبح قادة المركبات بل وشرطة المرور في حاجة إليها.

وعادة ما يقدم السياس خدماتهم مقابل رسم مراوغ بحسب نوع السيارة وشخصية ومكانة من يستعملها أو مدى كرمه، كما توجد نظم واتفاقات بين هؤلاء السياس وقادة المركبات، فكي تصف سيارتك في جوار الرصيف وفي المكان المخصص قانوناً عليك أن تأتي مبكراً أو تدفع أكثر، بينما يمكنك في بعض الشوارع أن تدفع أقل لكي تصف سيارتك صفا ثانيا. ومن ضمن الاتفاقات أيضاً أن تترك السيارة بدون فرامل اليد أو أن تسلم للسايس السيارة ومفتاح التشغيل حيث تخوله في هذه الحالة سلطة التحرك بها والابتعاد عن مطاردات رجال الشرطة، أو ترقب توافر مكان شاغر لكي يصف فيه سيارتك. ومن الاتفاقات أيضاً أن تدفع للسايس مبلغا كل شهر أو كل أسبوع وهذا النظام يسري مع قادة المركبات المقيمين في الشارع أو الموظفين الذين يترددون على الشارع يومياً.

وهناك سادساً أصحاب المحلات وبعض ملاك وساكني العمارات الذين قرروا التخلص من سلطة السياس بل ومن سلطة الدولة على الطريق العام المار بموازاة ملكيتهم الخاصة. وقرروا ممارسة سلطة من نوع جديد في الطريق، هي سلطة الاستحواذ على أماكن من الطريق العام والتعامل معها على أنها ملكية خاصة اعتماداً على حق الجوار إذا جاز القول، ونجحوا في الاستحواذ على مساحات من الطريق العام تخصص لوقوف سياراتهم، وبعض هؤلاء المواطنين وضعوا علامات أو سلاسل حديدية وغيرها لإعلان سيطرتهم أو ملكيتهم لهذه المساحات من الطريق العام. وتعجب أشد العجب من غرابة وطرافة الإعلانات والتحذيرات التي كتبها ملاك المواقف الخاصة - غالباً على لوحات رديئة وبخط سيئ ولغة ركيكة - لحجز مساحة أمام بيوتهم أو محلاتهم، وتحذير المواطنين الأخرين من الاقتراب أو صف سياراتهم، فهناك من كتب «ممنوع الانتظار»، والبعض مارس سلطته وتخويفه للآخرين بكتابة تحذير «ممنوع الانتظار المكان مكهرب»، وهناك من مارس سلطته عبر الاستعطاف فكتب «المكان مخصص لكبار السن»، وفي كل هذه التمظهرات



تجاور بدون مساواة في شوارع المحروسة، بل ربما يكون تجاوراً قهرياً لممارسة السلطة ضد الآخرين، بل وتخويفهم، دون أن يصل الأمر بالضرورة إلى النيل منهم، أو إلحاق الأذى المادى بهم أو بسياراتهم

تتشخص عمليات ممارسة السلطة والصراع، وتغيب سلطة الدولة والقانون عبر استيلاء مواطنين على قسم من الفضاء العام المخصص لخدمة كل أبناء الوطن، غير أن احتكار أهل الجوار لهذه الخدمة العامة يذكر بما كان قائماً قبل ظهور الدولة الحديثة وسلطة القانون من ممارسة السلطة والتملك بوضع اليد وعبر آليات للقوة فضلاً عن شفاعة القرب أو التجاور المكانى.

٥- نفى المشاة: فى إطار قانون المرور الغائب والمغيب، والحضور المراوغ لسلطة الدولة فضلاً عن صراع السلطة بين المركبات فى الشوارع من الطبيعى أن نتصور حال المشاة أو بالأحرى صراع المشاة مع قائدى المركبات على أولوية المرور أو عبور الطريق. فى هذا الصراع المعقد طقوس ورموز وصدام وتصالح وتعاون بحسب حالة الزحام فى الطريق ووقت الصدام وشخصيات المشاة وخبراتهم ونوعية المركبات. طيف بالغ التنوع والتعقيد من الرموز والإشارات التى يستخدمها الطرفان، ولا يدركها سوى أهل المحروسة حتى أن حالة الارتباك والتخبط وأحياناً الحوادث تنتج عن عبور الشارع من قبل ريفى أو قروى زائر للمحروسة، لا يدرك رموز وإشارات التفاهم بين قادة المركبات والمشاة.

والشاهد أن رموز وإشارات التفاهم والصراع والتعاون بين المشاة وقادة المركبات تختلف تماماً عن قواعد المرور الخاصة بالمشاة، وبعض هذه الإشارات والعلامات فيها الكثيرمن خفة دم المصريين وروحهم الطيبة وتسامحهم، وقدرتهم على العيش المشترك وتعاونهم لمواجهة مصائب الدنيا وظلم السلطة، وزحام الطريق. فى الوقت ذاته تحمل هذه العلامات قدراً من الغضب وممارسة العنف وأحياناً الاستجداء والتعاطف. لكن أياً كانت لغة التواصل والصراع بين المشاة وقائدى المركبات، فمن المؤكد أنها أكثر ليناً من السلوك الممزوج باليأس والتحدى ونفاد الصبر الذى ينتهجه المشاة لعبور الطريق دفعة واحدة بشكل جماعى وأحياناً بمبادرة فردية عندما يقرر شخص أو شخصان عبور الطريق اعتماداً على خفة الحركة والفهلوة فتجده يمر بين السيارات فى تعرجات وقفزات بهلوانية خطرة.ومن عجب أن قائدى المركبات يستطيعون قراءة هذه القفزات المغامرة ويستجيبون لها قدر الإمكان، ربما لأن أغلبهم سبق أن مارسها.

وثمة نقطة التقاء عجيبة تحدث بين المشاة وقادة المركبات عندما تتعطل السيارة وتعجز عن الحركة، ويقف قائدها حائرا فى انتظار مساعدة المشاه. حيث يكون فى احتياج إلى دفع سيارته حتى يدور محركها او ليتمكن من ايقافها على أحد جوانب الطريق. المدهش أن انتظاره لايطول وحيرته تنتهى سريعا فلا تزال قيم مساعدة الآخرين حاضرة رغم كل عنف وجفاء القاهرة. يتجمع عدد من المشاة ويدفعون السيارة إلى الامام وقد يتجشمون جهدا كبيرا فى تحريك السيارة حتى يعمل محركها من جديد. وبمجرد أن تتحرك السيارة يكتفى السائق بتوجيه كلمة شكر عابرة للرجال الذين ساعدوه، أو ينطلق بعد أن يلوح لهم بإشارة تعنى الشكر والامتنان. لكنه لا يفكر أو يعرض عليهم مشاركته فى استخدام السيارة لتوصيلهم إلى الجهة التى يقصدها أو حتى توصيلهم لأقرب نقطة.

هكذا تنتهى أزمة قائد المركبة، وتنتهى نقطة الالتقاء المفروضة على الطرفين والتى جسدت لحظة تعاون وقيمة مشاركة بين المشاة وقادة المركبات، وذلك رغم أن أصحاب الفريق الأخير لايبادلون المساعدة بمساعدة ولا يكملون دائرة التعاون بين الطرفين. ويبدو أن قواعد هذا الالتقاء الإجبارى العابر صارت موضع اتفاق بين الجميع. فلقائد المركبة حق فى الحصول على مساعدة المشاة، بينما هم ليس من حقهم طلب مقابل مادى أو عرض باستخدام ذات السيارة التى كانت متوقفة وعاجزة ولا تساوى شيئا بدون مساعدة وجهد المشاة. ورغم لا منطقية أو توازن هذه العلاقة إلا أنها صارت مألوفة ومتفقا على تراتبيتها الظالمة ضمن مفردات خطاب الشارع وحركة المركبات فى المحروسة.

على الجانب الأخر فإن قادة المركبات يسلكون نفس السلوك المغامر والمتحدى عندما يسرعون أكثر من المطلوب او يتظاهرون باقتحام الطريق أو رفع صوت آلة التنبيه لإرهاب الجموع التى تعبر الطريق ودفعهم لإفساح الطريق ومنحهم الأولوية فى المرور، كذلك قد تناور السيارة بين زحام المشاة الراجلين فى وسط ميدان شعبى او طريق مزدحم بالناس. والواقع أن سلوك المغامرة والتحدى على الجانبين هو شكل من أشكال ممارسة السلطة والصراع فى طرقات المحروسة. وهو فى الواقع صراع بين الفضاء العام المتمثل فى فضاء الطريق والمشاة الراجلين، وبين فضاء خاص متمثل فى سائقى المركبات بأنواعها. فريق يسير على الأقدام ويشعر بالتعب وحرارة الجو أو برودته، وفريق أقل تعباً يجلس خلف مقود المركبة أو على أحد مقاعدها. وأفراد كل فريق يتماهون مع الفريق الذى يمثلونه، وذلك رغم عدم ثبات الانتماء لفريق فى كثير من الحالات، فراكبو الأتوبيس العام أو سيارة الميكروباص أو التوك توك يتحاملون على المشاة، ويشجعون قائد المركبة التى تقلهم على سلوكه العنيف تجاه المشاة، بالرغم من كونهم سيهبطون بعد دقائق للانضمام إلى فريق المشاة. وفريق المشاة قد ينتقل بعض أفراده إلى فريق الراكبين. وهكذا تبدو الانتماءات ممزقة ووقتية ونفعية، طالما تغيب عن المحروسة المعايير وقوانين المرور وتسود ثقافة اللانظام والفهلوة والأنامالية.

لكن الثابت أن الغلبة تكون دائماً لثقافة الانتماء إلى فريق الراكبين ضد فريق الراجلين أو المشاة. فتنظيم الشوارع وحركة المرور فى المحروسة تنفى فريق المشاة وتتجاهل وجوده، وفى أحسن الأحوال لا تمنحه الأولوية، بل تمنح فريق الراكبين أولوية المرور، كما توفر له تسهيلات وفرصا أيسر وأسهل على الحركة. فكثير من الشوارع الرئيسية ليس لها رصيف لاستخدام المشاة، وإن توافر الرصيف فإنه ضيق ومحطم ومثخن بالحفر والتكسيرات وغير ملائم للاستخدام الأمن، كما أن المركبات تحتل أقساما كبيرة منه علاوة على الامتدادات والتوسعات غير المشروعة للمحلات التجارية، والحضور الكثيف والعشوائى للباعة الجائلين والأكشاك والمتسولين وأطفال الشوارع.

وتمارس الدولة تمييزاً صارخاً ضد المشاة، فعدد كبير من الشوارع الرئيسية فى أحياء المحروسة المزدحمة وميادينها تحوطه أسوار قبيحة من الحديد تمنع عبور المشاة إلا من أماكن محددة يتطلب الوصول لها السير لمسافات طويلة، أو استخدام كبارى مخصصة أو أنفاق للمشاة ذات تصميم معمارى بائس ينشر القبح فى المحروسة، ولا يشجع المشاة على استخدامه لأنه لا يراعى الحد الأدنى من الاشتراطات الصحية، وعادة ما تكون هذه الكبارى على درجة عالية من القذارة والإهمال، حتى تبدو مهملة فى معظم الأوقات ولا تستخدم إلا على نطاق محدود نتيجة سوء تصميمها والمجهود الكبير الذى تتطلبه، علاوة على الافتقار إلى الشعور بالأمن خاصة أثناء الليل. وقد يثار جدل ونقاش حول مسئولية المشاة فى عدم استخدام هذه الكبارى العلوية والأنفاق المتعبة وارتباط ذلك بثقافة الاستسهال والفهلوة. لكن الأهم هنا تأمل الفكر التنظيمى والمرورى المحرك لتنظيم شوارع المحروسة والذى ينحاز إلى المركبات وليس المشاة كما هو الحال فى كل عواصم الدنيا، فيطلب من المشاة بذل جهد أكبر من المركبات. وليس أدل على ذلك من أن عدد الكبارى والأنفاق المخصص لعبور المشاة فى المحروسة يقل بكثير عن مثيلاتها المخصصة لعبور المركبات وتسهيل حركتها.

نفى الدولة للمشاة من حساباتها فى تنظيم شوارع المحروسة، والمعانى والدلالات الطبقية المرتبطة بتملك سيارة خاصة بغض النظر عن نوعها وحالتها، دفعت بكثير من المصريين لتدبر أمرهم

كان الشـــارع المصـــرى قبـــل ثـلاثـين عـامـاً يـتـسـم بـقـدر مـقـبـول مـن الانـضـبـاط والحـضـور الـقـوى والمـؤثـر لســـلطة الـــدولة والقـــانون

بطريقة أو بأخرى لتملك سيارة خاصة، والفرار من فريق المشاة الدائمين، ومستخدمى المواصلات العامة والجماعية. وبالتالى تأكدت غلبة ثقافة الراكبين ضد ثقافة المشاة، لاسيما أن الأخيرة ارتبطت بمعان ودلالات طبقية غير مرضية. فاستخدام المواصلات العامة والتنقل سيراً على الأقدام لتغيير مواصلة عامة أو المشى من محطة المترو إلى مكان العمل أصبح من علامات الفقر والحاجة. من هنا أصبح السير على الأقدام لا يتم إلا فى ظروف استثنائية لكثير من سكان القاهرة، وأصبح التنقل داخل نفس الحى سيراً على الأقدام أمراً غريباً وربما شبه مستهجن، الأمر الذى يضاعف من مشكلات تكدس المرور وتلوث بيئة المحروسة بالعوادم المنبعثة من مئات الألوف من المركبات التى يسير بعضها فى رحلات قصيرة للغاية أو يسير بغير هدف.

٦- حوادث مرورية آمنة: من أعجب تناقضات حركة الناس والمركبات فى شوارع المحروسة أن عدد حوادث المرور قليل للغاية بالنسبة إلى العدد الهائل من أنواع المركبات الحديثة والمتهالكة والتى تسير بدون التزام بقوانين المرور وتستعمل طرقاً غير آمنة لكثرة ما فيها من مطبات وتعرجات وتقاطعات. وأغلب حوادث المرور التى تقع فى شوارع المحروسة هى من النوع البسيط، فلا قتلى أو جرحى إلا فيما ندر، ومعظم الإصابات تلحق بهياكل المركبات وهى أيضاً من النوع البسيط أو المتوسط، فلا تصل إلى التدمير الكلى للمركبة. باختصار نحن إزاء حوادث مرور آمنة فى عاصمة مليونية مزدحمة، ربما لأن شدة الزحام وتقادم أغلب المركبات فيها لا تسمح لكل أنواع المركبات طوال أغلب ساعات اليوم بالسير السريع، والذى قد تنجم عنه حوادث كبيرة وخطيرة.

والمفارقة أن مركبات المحروسة لا تكاد تخلو من مصحف أو صليب، كما أن سائقيها متدينون للغاية، لكنهم كافرون تماما بكل قوانين ونظم المرور المعمول بها فى العالم. ومع ذلك فإن نسبة الحوادث قليلة، أؤكد هنا ثانية أن الزحام هو بطل هذه المفارقة، فلولاه ربما تغير تماماً عدد ونوعية ضحايا حوادث السير فى المحروسة، وربما أيضاً ونتيجة للزحام كفر السائقون فى المحروسة بقوانين المرور، وأصبح من الصعب أن يستعيدوا إيمانهم بها قولاً وفعلاً. لذلك أنت فى القاهرة أمام وضع فوضوى، يفتقر إلى المعيارية ويتسع لكافة ممارسات خطاب الشارع بكل تناقضاته وتوافقاته. عاصمة مليونية بشوارع أغلبها ضيق وتم تصميمه لاستيعاب ملايين قليلة، بينما مطلوب منه استيعاب حياة أكثر من ١٥ مليونا، وأكثر من مليونى مركبة بدون جراجات كافية أو أماكن محددة للوقوف. وفى ظل الوجود المراوغ للدولة ترتفع عمارات جديدة عملاقة بدون جراجات، كما تقام على عجل مجمعات سكنية وأسواق تطل على شوارع ضيقة لا توجد بينها وبين هذه العمارات والمجمعات الضخمة أى صلة مكانية أو زمانية.

هذا اللا توازن بين شوارع المحروسة ومبانيها الحديثة وسياراتها التى تنمو بمعدلات مثيرة تخلق مشكلات مرورية صعبة، وتتطلب حلولاً شاملة ورؤية واضحة تعتمد على القانون وتلتزم بتطبيقه بدون تمييز، كما تعتمد على توعية المواطنين بمزايا الالتزام الطوعى والتعاون فى تطبيق قوانين المرور وقواعد السلامة المرورية. لكن ما حدث فعلياً أن الدولة لجأت لحلول جزئية متسرعة وعشوائية، كالتوسع فى المطبات الصناعية التى لا يوجد لارتفاعها مثيل فى العالم - يلاحظ أن سكان كل قرية على الطرق السريعة انتزعوا سلطة الدولة وصنعوا بمعرفتهم مطبات لإرغام السيارات على التمهل الإجبارى والكثير منها لايرى ليلاً - والتوسع فى اليوتيرن بدلاً من الإشارات الضوئية عند التقاطعات. كما تخلت الدولة عن كثير من سلطاتها فى تنظيم المرور وأصبح وجودها مراوغاً ومتراوحاً بين القوة والتساهل، بين التسامح والتشدد. وكان من الطبيعى كما أشرت من قبل أن يحتل المواطنون - كل على طريقته وبحسب كفاءته - المساحة التى تخلت عنها الدولة. لذلك ظهرت عدة سلطات متنافسة ومتصارعة فى الشارع المصرى. وتنافس السائقون فى المحروسة فى استخدام آلات التنبيه بما فيها الخاصة بالشرطة وسيارات الإسعاف، وتوسع السائقون فى استخدام الأنوار المبهرة ليلاً، واستخدامها بطريقة متقطعة سريعة كإشارة تهديد أن السيارة المقابلة لك ستمر شئت أم أبيت.

وتوسع باعة الصحف والشحاذون وأطفال الشوارع فى احتلال أماكن مميزة عند اليوتيرن وأمام المطبات الصناعية. والمدهش أن قادة المركبات بأنواعها يتوقفون لشراء الصحف أو تقديم المساعدة للشحاذين سواء كانوا أطفالاً أم عمال نظافة يعملون لدى المحافظة أو شركات النظافة. وبطبيعة الحال كل هذه الفوضى تضاعف من حدة الزحام، وقد تسبب حوادث مرورية. لكنك من الصعب أن تطالب بتدخل الشرطة أو تحتج لدى الآخرين الذين يقودون سياراتهم، لأنك هنا تبدو فى صورة الأمى الذى لا يشجع الناس على قراءة الصحف!! أو الجاحد الذى يمنع الخير عن الفقراء.

فى كل هذه الفوضى والزحام الخانق تظهر إبداعات المصريين فى قيادة المركبات، وهى إبداعات إن جاز القول كافرة وخارجة عن القانون، فتجد قطع الطريق من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار أو العكس أمراً معتاداً، أو أن تقود سيدة سيارتها وطفلها الرضيع يجلس على قدميها، ويتباهى شخص آخر بأنه يقود السيارة وابنه الذى لم يتجاوز عمره أربع سنوات ممسك بمقود السيارة. كذلك فإن السير عكس الاتجاه يبدو أمراً مألوفاً، والطريف أنك عندما تتأمل طريقة كل سائق فى قيادة مركبته ستجد عدة أنماط غريبة متعايشة فى شوارع المحروسة، فهناك نمط القيادة المقاتلة، وهو الشخص الذى يقود سيارته وكأنه يقاتل الآخرين بل ويقاتل نفسه، فتجده متوتراً ومستنفراً وكأنه يسير على حافة هاوية. أما النمط الثانى فهو القيادة غير المكترثة، وهو الشخص الذى يقود وهو أقرب إلى النوم منه إلى الانتباه واليقظة، وغالباً ما يكون مجهداً ومشتت الفكر والانتباه، غير قادر على التمييز ومع ذلك يسير ببركة الله ودعاء الوالدين. ثم تجد ثالثاً نمط قيادة البعير والذى يجمع الأشخاص الذين يقودون المركبة أياً كان نوعها وكأنه يقود بعيراً، إذ يقود ببطء وبوتيرة واحدة ثابتة لا تتغير، وينظر للناس والطريق من نظرة دونية فهو مرتفع عنهم بسيارته أو خياله. وينتشر هذا النمط بين سائقى الأتوبيسات والسيارات النقل، وبين بعض كبار السن من قادة السيارات الخاصة. أما النمط الرابع فهو قيادة الانتحارى وهو منتشر على نطاق واسع بين الشباب وسائقى الميكروباص، فهو يناور مسرعاً بين السيارات وقد يرتكب حادثا يدمر سيارته. ثم هناك خامساً النمط الحريص والحذر فى القيادة وينتشر بين السيدات وبين بعض كبار السن وأصحاب السيارات الجديدة الذين لم يراكموا خبرة طويلة بفوضى القيادة فى شوارع المحروسة.

فى ظل هذه الأنماط الغريبة من القيادة من المنطقى أن تقع حوادث، ومع الوجود المراوغ للدولة وسلطة القانون تتحول كل حادثة إلى مناسبة لممارسة أنواع مختلفة من الصراع والتنافس والتعاون بما يتضمنه ذلك من تلاسن وتبادل للشتائم والتخويف أو ممارسة للسلطة أو ادعاء باستخدامها ضد الآخرين. وقد يصل الأمر أحياناً إلى الاشتباك بالأيدى، إلى أن يتدخل المشاة وقادة المركبات الأخرى للتوصل إلى تسويات ومصالحات غالباً ما تتم بعيدا عن وجود الشرطة أو رجال المرور الذين يغيبون عادة عن الحوادث التى تقع فى الطرق والميادين غير الرئيسية، وأحيانا يصلون بعد أن تنتهى المشاجرة ويتراضى الطرفان.

ويحتار المرء فى تفسير أسباب غياب السلطة الرسمية عن مسرح حوادث المرور، وهل هو غياب متعمد أم غير متعمد، فقد سمحت لقادة المركبات أن يقوموا بإصلاح سياراتهم بدون الحصول على ترخيص

مع الوجود المراوغ للدولة وسلطة القانون تتحول كل حادثة بسيطة إلى مناسبة لممارسة أنواع مختلفة من الصراع والتنافس والتعاون

مسبق كما يحدث فى معظم دول العالم، ولم تلزم مالكى المركبات بأنواعها بالتأمين ضد الحوادث والأضرار التى قد يلحقونها بمركبات الآخرين. وهى قاعدة مطبقة فى معظم دول العالم، لكن السلطة الرسمية فضلت وعلى غير طبعها الاستبدادى المسيطر وحسها الأمنى المتضخم أن تترك المجال العام لحوادث ومصادمات الطرق للقطاع المدنى يمارس فيه المواطنون كافة أشكال الصراع والتعاون!! ويظهر فيه مالكو السيارات وسائقو التاكسى ثقافتهم وسلوكهم الحقيقى عندما تتعرض مصالحهم للخطر أو لخسارة ما. فى مواقف الحوادث والاصطدامات تنفجر المشاعر الحقيقية من غضب وعدوانية وتعاون وتراحم. وتطفو على السطح القيم الحقيقية للتضحية والإيثار والأنانية وحب الذات والخوف.. باختصار ينفجر فى صخب كل مكبوت اللاوعى أو كل المستتر خلف زجاج سيارة فارهة، أو تاكسى متهالك، أو ما هو خلف الزى وخلف كل الرموز والأيقونات الدنيوية والدينية. ويصبح الجميع فى موضع اختبار.

فى موقف الحوادث والاصطدامات تسقط غالباً الكثير من أقنعة المكانة ومظاهر ممارسة السلطة التى يتصنعها مالكو السيارات الخاصة، وتختلف حدة الصراع ومساراته، وممارسة السلطة أو العدوانية أو التسامح تجاه الأخر بحسب مدى التلف الذى أصاب السيارتين أو إحداهما، وكذلك حسب نوع السيارة وسنة صنعها، وشخصية السائق، فتاة أو فتى، سيدة، ضابط، موظف فى بنك، مسئول فى وزارة أو جهة سيادية. سائق تاكسى أو سائق سيارة خاصة، أو ميكروباص أو أتوبيس للنقل العام. كل هذه العوامل تتدخل وتتفاعل لتصنع فى النهاية إطاراً محدداً لمسار الصراع أو التسوية التى قد يتوصل إليها الطرفان. فقد يتعهد طرف بإصلاح السيارة للطرف الأخر، أو دفع مبلغ معين لإصلاح الضرر الذى لحق بسيارة الطرف المخطئ. وعادة ما يتفق على هذا المبلغ عبر وساطات من سائقين آخرين توقفوا لفض النزاع، وتطوعوا لعقد المصالحة وتهدئة النفوس. وبطبيعة الحال فإن أى حادث وما يتبعه من صراع وتسويات يؤدى إلى تعطل حركة السير خاصة عندما يتوقف عدد من سائقى المركبات للفرجة أو للتطوع لتسوية الصراع.

وفى بعض الحوادث قد يرفض الطرف المتضرر قبول التعويض عملاً بالموروث الشعبى الذى يمنع ويستنكر قبول العوض. وقد يتعاطف صاحب سيارة خاصة مع سائق التاكسى المخطئ فلا يقبل منه أى تعويض بل أحياناً يتبرع له بمبلغ ما وبشكل طوعى لكى يساعده فى إصلاح الضرر الذى لحق بالتاكسى. وفى قليل من الحوادث قد يرفض الطرفان كل جهود الوساطة والمصالحة وينتظران الحضور المتأخر للشرطة حيث يتم تحرير محضر بالحادثة وتتحول إلى النيابة، ويدخل الطرفان فى إجراءات تقاض تستمر لعدة سنوات.

خلاصة القول إن أغلب حوادث وصدامات المركبات بالمحروسة لا تصل إلى حد الصراع الدامى أو الاشتباك بين الطرفين، كما لا تصل إلا فيما ندر إلى القضاء، حيث يسودها نوع من التلاسن الذى تختلف حدته بحسب عوامل كثيرة، ويسوده قدر كبير من ممارسة السلطة ضد الآخر ومحاولة تخويفه أو تهديده، وقد ينتهى الموقف بعتاب والتوصل إلى تسوية ما يلعب فيها المشاة وسائقو السيارات الأخرى دور الوسيط المحايد، والثابت أن مشكلة المشاكل فى حوادث سيارات المحروسة هو عدم القدرة على تحديد المخطئ، فمع غياب سلطة الدولة والكفر البيّن بقوانين المرور وجهل أغلبية السائقين بها تضيع الحقائق، فلا معايير متفقا عليها يمكن الاحتكام إليها فى ظل سوء تصميم الطرق وبعض الكبارى وتدهور حالة الشوارع وعدم صيانتها وكثرة المطبات، علاوة على فوضى اليوتيرن.. مع كل هذه الأمور يدعى كل طرف فى معظم حوادث المرور بالمحروسة أنه على حق تماماً والطرف الآخر هو المخطئ. و يمكن تفسير هذا الأمر فى ضوء ضعف ثقافة المسئولية والاعتراف بالخطأ فى مكونات الثقافة والشخصية المصرية، إضافة إلى اللا معيارية والجهل بقوانين المرور. ■

كتــــاب الــزاويـــة

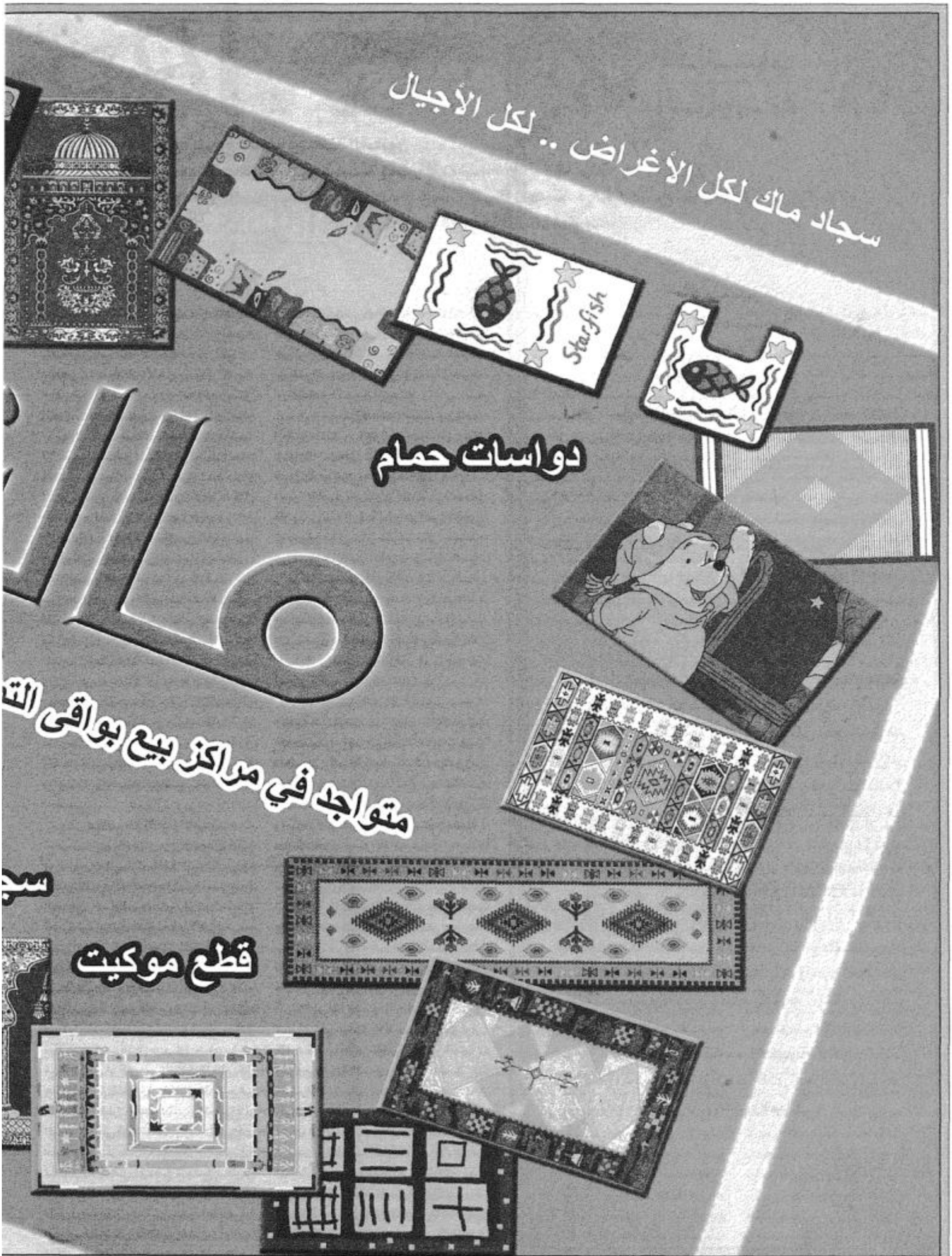
الآخـــــر.. فى التلمـــــود (٣)

باب العبادات الأجنبية هو الباب الثامن من قسم الأضرار أو العقوبات . ويتكون من خمسين تشريعا جاءت فى خمسة فصول . وقد شغلت هذه التشريعات وما عليها من شروح ١٥٠ صفحة من صفحات التلمود البابلى.

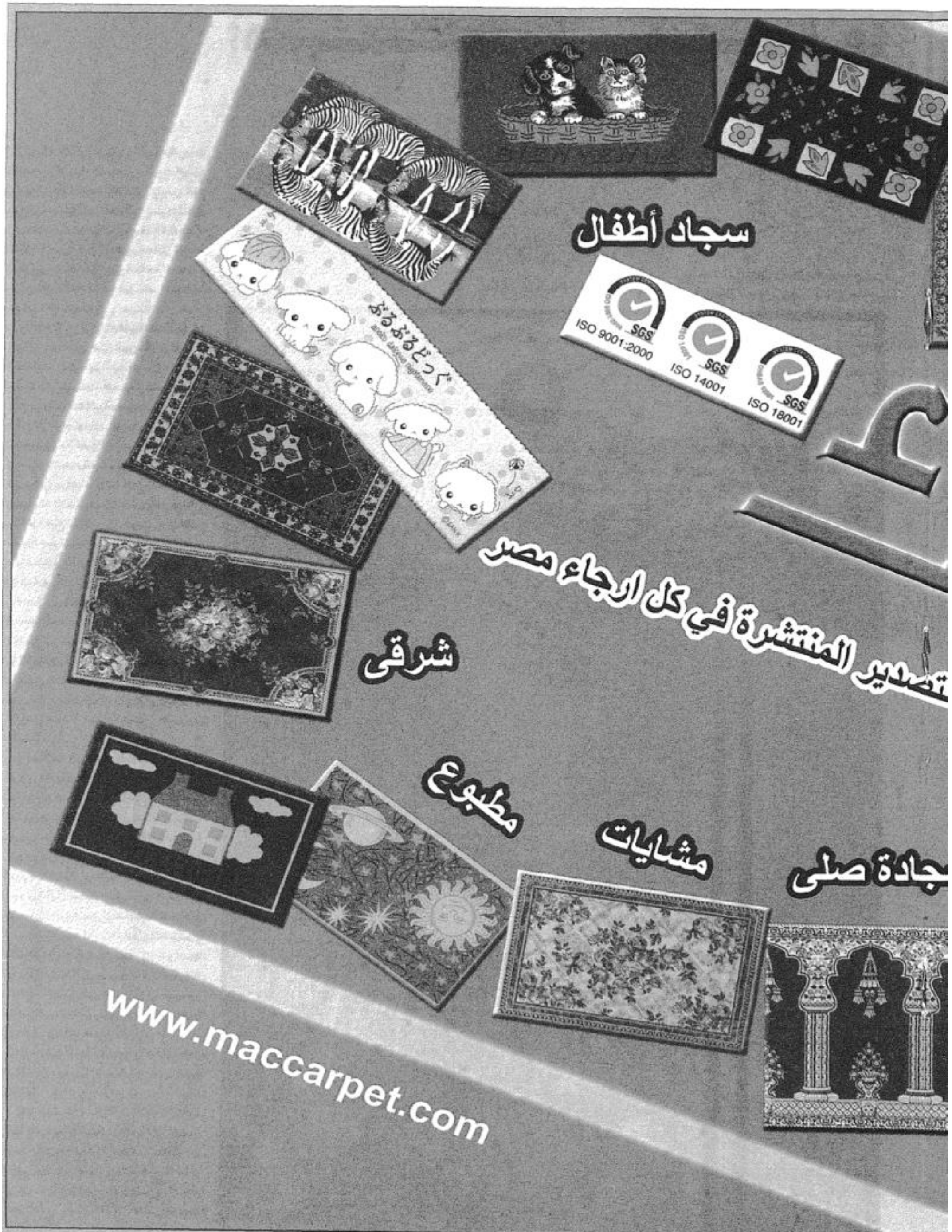
يعكس هذا الباب رؤية فقهاء التلمود للذات اليهودية وللآخر، فلقد وضعوا أنفسهم فى مكانة تفوق غير اليهود . فهم يرون أن الرب فضلهم على غيرهم من الأمم . بل لقد خلق العالم من أجلهم . ومن ثم حفل هذا الباب بأخبار المعجزات والكرامات التى أجراها الرب على يد آباء بنى إسرائيل وقضاتهم وأنبيائهم، بل على يد فقهاء التلمود أنفسهم.

وعلى النقيض من تضخيم الذات اليهودية ومغالاة فقهاء التلمود فى الإعلاء من شأنها جاءت نظرتهم إلى الأغيار ، الذين عاش اليهود معهم واحتكوا بهم فى بابل وفلسطين . فلم يعش اليهود فى معزل عن المجتمع . أى فى «جيتو» كما كان حالهم فى أوروبا حتى وقت قريب، ولم يتمتعوا باستقلال سياسى، بل كانوا مجرد طائفة من طوائف المجتمع سواء فى بابل أو فى فلسطين .

لقد نظر فقهاء التلمود إلى الأغيار على أنهم بهائم . بل لقد حكموا عليهم بالنجاسة . ونسبوا إليهم أفعالاً شاذة وحقيرة. وتشككوا فى ذممهم . ووصفوهم بالمكر والخبث . وتنوعت تشريعات هذا الباب بين تشريعات تنضح بالعنصرية . وتشريعات تحض على العداوة والبغضاء . وأخرى تحض على العزلة وعدم مشاركة الآخر أعياده وأفراحه . وتشريعات تدعو إلى الإضرار بالآخر اقتصاديا . وعسكرياً . وتشريعات تبيح التحايل بما يحقق المنفعة الشخصية لليهود . وتشريعات تنفر من الآخر وتحرم طعامه أو الطعام الذى يشترك فى صنعه . وتشريعات تحض على نفى الآخر وإقصائه .



سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت



سجاد أطفال
SGS
ISO 9001:2000
SGS
ISO 14001
SGS
ISO 18001
تصدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com

أهميتهــــــا.. فى انتشــارها

الفضائيات السـلفية



■■ يمكن النظر إلى الفضائيات السلفية، والإعلام السلفى عموما، كجزء من موضوعة أسلمة الحداثة؛ ليس عبر البوابة النظرية أو الفلسفية على النحو الذى انشغل به إسلاميو أسلمة المعرفة، وبشكل خاص تجربة المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ولكنه نوع من أسلمة الحداثة عبر توظيف منتجاتها فى نشر الدعوة والفكرة الإسلامية.

وقد شهد الإعلام السلفى تطورا كبيرا وقياسيا فى سرعة توظيف التقنيات الحديثة بدءا من أشرطة الكاسيت التى استخدمت على نطاق واسع وبجودة عالية، مرورا بتأسيس مواقع الإنترنت وقد كان دعاة السلفية وشيوخها الأكثر توظيفا للشبكة وحضورا عليها، ثم انتهاء بالفضائيات التى حازت اهتماما من السلفية باعتبارها الأكثر قدرة على بناء علاقة مباشرة مع المتلقى؛ حيث تتفاعل الصورة مع اللغة بجانب قدر عال من التواصلية ما يسمح بتقديم رسالة إعلامية متكاملة.

وبعكس شبكة الإنترنت التى كان الحضور السلفى فيها كثيفا وواضحا ومباشرا فى طبيعته وتمايزات خطاباته كان الحضور السلفى فى الفضائيات أقرب إلى حالة أو تيار أو طريقة تفكير أو حتى مزاج منه إلى بناء أيديولوجى متكامل فضلا عن أن يكون حضورا تنظيميا.

والسلفية فى الفضائيات هى سلفية محتوى وخطاب ومنهجية تفكير أكثر منها توجه أيديولوجى محدد فضلا عن أن تكون ممثلة لتنظيمات أو حركات سلفية محددة، على الأقل بالنظر إلى طبيعة وسيط الفضائيات فى المنطقة العربية، فكلها تبث عبر القمر الصناعى المصرى نايل سات، ومن ثم يمكن أن نتكلم عن حزمة من التدابير القانونية والسياسية جعلت الدخول السلفى للفضائيات محكوما باعتبارات وقيود كثيرة بعكس حالته على شبكة الإنترنت، وهو ما انتهى إلى اختزال الحضور السلفى فى الفضائيات فى تيار السلفية الوعظية دون غيرها من التيارات السلفية ذات الاهتمامات بالسياسة والشأن العام فضلا عن تيارات السلفية الجهادية بالطبع!.

لقد شهدت السنوات الثلاث الأخيرة توالدا سريعا للقنوات «السلفية»، بما جعلها من معالم المشهد الإعلامى العربى الجديد، فصار لدينا قنوات مثل «المجد» و«الحكمة» و«الرحمة» و«الحافظ»... وقناة «الناس» التى يمكن اعتبارها التجربة الأقدم والأكثر أهمية

وتأثيرا فضلا عن كونها المفتاح الأهم فى قراءة المشهد الفضائى السلفى.

رغم كثافة الطابع «الرسالى» للحضور السلفى على الفضائيات إلا أنه بإمكاننا أن نقرأ التجارب الفضائية السلفية من زاوية كونها مشروعا استثماريا تأسس لغرض الاستثمار فى قطاعات جماهيرية واسعة سلفية أو آخذة فى التوجه نحو السلفية، أكثر منها إطاراً إعلامياً لنشر الأطروحة السلفية. إنها أقرب لمشروعات تستثمر فى جماهير تحولت بالفعل نحو السلفية أو آخذة فى التحول: أكثر من كونها تحمل رسالة دينية تريد تبليغها، وقناة «الناس» هى النموذج الأكثر دلالة.

يمتلك قناة «الناس» رجل الأعمال السعودى منصور بن كدسة، وهو صاحب استثمارات سابقة فى هذا المجال. لم يكن استثمار الرجل فى هذا المجال مختلفا كثيرا عن غيره ممن دخلوا مجال الاستثمار فى الإعلام وفى الفضائيات بشكل خاص، فقد أطلق الأمير السعودى الوليد بن طلال قناة «الرسالة» الإسلامية ضمن باقة قنوات روتانا الفنية، وسبقه مواطنه رجل الأعمال صالح كامل فى إطلاق قناة «اقرأ» الإسلامية أيضا كجزء من باقة قنوات راديو وتلفزيون العرب (أيه آر تى) المتنوعة، وكان منصور بن كدسة صاحب تجربة مماثلة.

بدأ ابن كدسة استثماره فى الفضائيات بقناة «الخليجية»، والتى انطلق بثها واستمرت سنوات كقناة فنية متخصصة فى بث أغانى الفيديو كليب قبل أن تغير مسارها (أو تعلن توبتها!) عقب النجاح الكبير لشقيقتها الصغرى «الناس». لقد كان نجاح «الناس» كفضائية سلفية مغريا لأن تتحول «الخليجية» هى الأخرى إلى التخصص فى الوعظ الدينى!

وفى بدايتها كانت «الناس» نفسها قد حددت وجهتها كقناة ترفيهية متنوعة تقدم برامج الغناء وتفسير الأحلام وعلاج الجن واكتشاف المواهب وبث حفلات الزفاف وطلبات الزواج والدعاية!. فى تلك المرحلة كان شعارها (قناة الناس لكل الناس)، قبل أن تتحول بداية من يناير ٢٠٠٦ إلى قناة دينية سلفية بالكامل وتنتقل إلى شعارها الجديد الذى يناسب المرحلة (قناة الناس.. شاشة تأخذك للجنة)!

لم يكن تحول الفضائيات للوعظ السلفى منفصلا عن قراءة بسيطة ولكن واعية للخريطة الدينية على الأقل فى بلد كبير مثل مصر، فثمة حالة سلفية صاعدة لا تخطئها العين وثمة جمهور سلفى كبير آخذ فى التزايد لا يجد من يلبى طلبه الدينى «السلفى». فالخطاب السائد فى الميديا لم يكن يمثله بالضرورة، والمشهد الدينى الفضائى -كان إلى وقت قريب- يتقاسمه خطابات تتغذى من روافد تقليدية سواء أكانت رسمية أزهرية أو حركية متأثرة بالأطروحة الإخوانية، قبل دخول رافد التدين الجديد والدعاة الجدد. ولطالما افتقد الجمهور السلفى لمنبر دعوى خارج المسجد وما يتصل به من وسائط (الكتاب والكاسيت) صارت لا تواكب الثورة الإعلامية التى صار معها بإمكان كل بيت فى مصر مشاهدة الفضائيات إما عبر الأطباق اللاقطة أو عبر «الوصلات» التى لا تكلف إلا جنيهات قليلة.

السلفية فى الفضائيات هى سلفية محتوى وخطاب ومنهجية تفكير أكثر منها توجه أيديولوجى محدد

ومن ناحية أخرى ثمة دعاة كبار لهم جمهورهم وجماهيريتهم ولا يجدون رغم ذلك، فضاء للدعوة خارج الوعظ المسجدى الذى نجحوا فيه، وهم يمتلكون القدرة على جذب هذا الجمهور إلى قناة فضائية دون أن يكلفوها أعباء مالية كالتى يتطلبها نجوم الوعظ التلفزيونى المعروفون الذين عرفوا الطريق إلى حقوق الملكية الفكرية وصاروا يعتبرون «الدعوة» ملكية يجب أن ينالوا تعويضا عنها يقدر بحسب النجومية والقدرة على الجذب.

لقد وقعت قناة «الناس» على نجوم آخرين فى الوعظ لديهم كل إمكانات نجوم الوعظ التلفزيونى ولكن دون مطالب مالية! فأقصى مطالبهم -على الأقل فى البداية- هو توفير منبر جديد للدعوة!، وكانت طبيعة هؤلاء الدعاة وجمهورهم تسمح بالانطلاق فى استثمار فضائى بأقل الإمكانيات والتجهيزات المادية، فالبساطة والاقتصاد واستدعاء أجواء الوعظ المسجدى الذى يخلو من الديكورات الفخمة وشتى مقتضيات الترف، كل ذلك كان من شأنه تعزيز فرصة نجاح هذه النوعية من الاستثمار.

ثم كانت الضمانة الأكثر أهمية فى إمكانية تحييد السياسة والسياسى من هذا الوعظ تلافيا للمنع أو إثارة النظام، وهو ما أمكن تحقيقه عبر عدد من أبرز شيوخ الوعظ المباشر المعتزلين للسياسة من مثل محمد حسان وحسين يعقوب وأبو إسحق الحوينى ومحمود المصرى وسالم أبو الفتوح وآخرين.

بأقل تكلفة مادية وبشرية: نجحت تجربة قناة «الناس» نجاحا معتبرا حتى صارت الأكثر مشاهدة بين القنوات الدينية، لقد أصبحت القناة عنوانا ليس فقط على تغير المشهد الدينى لصالح السلفية بل وعلى انقلاب المعايير الحاكمة للفضاء الإعلامى فى بلد كمصر تراجعت فيه نسبة مشاهدة التلفزيون الرسمى وقنواته المختلفة (وهو الذى يتوفر فى مبناه الشهير الآلاف من الخبراء والإعلاميين والموظفين والتقنيين) لمصلحة قناة لا يزيد مقرها عن شقة متواضعة فى حى المهندسين. لقد صارت «الناس» عنوانا على (فضائيات بير السلم) التى يتجاوز تأثيرها إمكاناتها الفعلية، بل لقد انتقل تأثيرها إلى كثير من البلاد العربية حتى صار البعض يتندر من أنها اكتسحت المشهد الدينى بالجزائر بالقول أن الشيخ أبا اسحق الحوينى هو الوحيد القادر على منافسة عبد العزيز بوتفليقة، وأنه لو نافسه على رئاسة الجزائر لتفوق عليه!. هذا على الرغم من أنها اعتمدت بشكل كلى على رموز الوعظ السلفى المصريين.

كان تقديم الوعظ الدينى والمعرفة الدينية عبر وسيط الفضائيات سببا فى تحولات دينية بالغة الأهمية

نجحت قناة «الناس» كنموذج للقنوات السلفية من حيث الانتشار والتأثير، ونجحت الأطروحة السلفية فى تصدر المشهد الدينى والتأثير فى قطاعات واسعة من الجماهير التى بدا أنها وجدت فى الوعظ السلفى ما كانت تفتقده فى الوعظ السائد حتى الجديد منه ورموزه التى ملأت الفضاء الدينى بعد تحريره منذ بداية الألفية الجديدة مع انتشار القنوات الفضائية الخاصة.

ولكن ما يستحق النقاش فعلا فى التجربة السلفية على الفضائيات هو مدى تأثير وسيط الفضائيات على السلفية: هل تأثرت الأطروحة السلفية بانتقالها من وسيط المسجد إلى وسيط الفضائيات؟ وهل جرى تحول فى الرسالة السلفية بعد انتقالها من المسجد والكاسيت وحتى الإنترنت إلى الفضائيات؟

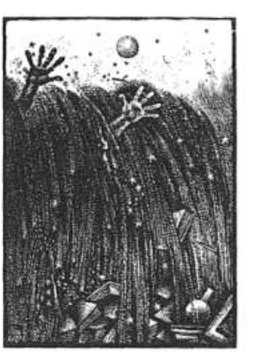
ثمة أطروحة مهمة حول تأثير الوسيط فى المضمون (أطروحة جون ماكلوهين) وأن الوسيط يصبح فى النهاية هو الرسالة دليلا على التأثير الجوهرى للوسيط فى المضمون: فهل ينطبق الأمر نفسه على السلفية وتشهد تغييرا جوهريا فى صلب أطروحتها الدينية أم يمكن أن نتحدث عن الاستثناء السلفى؟

أحدثت الفضائيات تأثيرا جذريا فى المشهد الدينى، وكان تقديم الوعظ الدينى والمعرفة الدينية عبر وسيط الفضائيات سببا فى تحولات دينية بالغة الأهمية كان من أهمها نشأة ما صار يعرف بظاهرة التدين الجديد التى يمكن النظر إليها كوليد لدخول وسائل الاتصال الحديثة (كالإنترنت والفضائيات) كوسيط لنقل المعرفة الدينية، لقد ساعدت ثورة الاتصالات الحديثة على ظهور نمط جديد ومختلف من التدين، فهو تدين فردانى، منفتح فى مرجعياته، منزوع السياسة، غير معنى بقضايا الهوية، ومسكون برغبة عارمة فى الخروج على التقليد الدينى.

لقد كانت الفضائيات «القابلة» التى أخرجت هذا الخطاب للعالم، كما قادته باتجاه نوع من العلمانية غير ذلك الذى طالما دار حوله الجدل فى عالمنا الإسلامى.

لقد تحول الدين فى

الفضائيات السلفية



التدين الجديد من الجماعية إلى الفردانية؛ حيث تتأسس علاقة فردية صرفة بين المشاهد والمعانى الدينية، فيقارن بينها ويختار، وأساس تفضيله دائما هو القناعة الفردية والقرار الذى يتحدد بشكل فردانى ويلبى طموحا فرديا للتدين.

واعتمد التدين الجديد على ما يسمى بالديمقراطية الاتصالية التى تلعب فيها الميديا دورا فى تسريع وتيرة النقاش الدينى فيحول الدين إلى خيارات متعددة ويشرك المشاهد فى بناء الخطاب الدينى.

وكانت «الدنيوية» أساسا لهذا النمط من التدين حيث صارت الدنيا محور الثواب والعقاب، وعنوان القبول والرفض، فى التدين الجديد يلتزم الفرد ويؤدى واجباته الدينية ويصبح مؤمنا صالحا لأن فى هذا سعادته وراحته.. تماما كما فى الإعلان الشهير الذى تبثه قناة اقرأ (أقم صلاتك تنعم بحياتك). فالثواب فى الدنيا، والنعيم فيها أيضا، وهو الهدف من الصلاة، أو على الأقل هو وسيلة الإقناع.. فى حين كانت الصلاة وغيرها من العبادات هى عمل للآخرة.

وفى التدين الجديد نلحظ تلك العلاقة الاستهلاكية بالدين؛ حيث نصبح بإزاء سوق عرض وطلب دينى يختار منه المشاهد اختياره الدينى (أو وجبته الدينية!) بنفسه، تماما كما يفعل المشاهد أمام الستالايت، يبحث ويختار، واختياره الدينى يتحدد وفق مبدأين: الراحة، والاستهلاكية... أو الاستهلاك لما فيه الراحة.

والدعوة فى التدين تخضع لمنطق السوق: فللدعاة أجور وأحيانا أجور خيالية، وثمة حقوق للملكية الفكرية يحمى بها الداعية وعظياته وتحتكرها شركات نشر وقنوات بث، وهو تحول جديد تماما فى التعامل مع دروس الوعظ التى كانت فيما قبل واجبا دينيا، وأخيرا برزت فى سوق الدعوة ظاهرة الداعية «النجم»، وكذلك الماركة التجارية الدينية!

فى تأثير وسيط الفضائيات على الأطروحة السلفية يمكن أن نقف عند بعض التأثيرات المشابهة لتلك التى رأيناها فى التدين الجديد أيضا: هناك الطابع الاستهلاكى للقناة السلفية الأشهر «الناس»: حيث لا يتوقف سيل الإعلانات التى تستحضر- بسبب من غياب المهنية- منطق السوق الشعبى، ثم الرسائل الاجتماعية والإنسانية والعاطفية أحيانا التى تملأ الشاشة وتكلف صاحبها مقابلا يذهب للقناة، وكذلك الأولوية المطلقة للإعلان وتقديمه على المادة الدعوية إلى حد تخصيص فقرات طويلة بالساعات.

ثم هناك منطق الابتعاد عن السياسة، فالخطاب السلفى الوعظى الذى تقدمه القناة يتجنب القضايا السياسية بما فيها القضايا التى صارت تعرف بقضايا الأمة مثل فلسطين والعراق (وإن كان الوضع تغير استثنائيا ومؤقتا أثناء حرب غزة)، فمازال هناك إصرار واضح على عدم حضور السياسة ولا أهلها ولو كانوا سلفيين!.

وهناك أيضا ابتعاد عن قضايا الهوية مثل قضايا التنصير والخلاف الفقهى والصراع المذهبى؛ على الرغم من أنها قضايا مركزية فى الخطاب السلفى بعيدا عن وسيط الفضائيات.

لكن رغم ما يمكن أن يكون وسيط الفضائيات أحدثه من تغيير فى الخطاب السلفى؛ إلا أن طبيعة هذا التغيير وحدوده تختلف تماما عنها فى حالة الدعاة الجدد.

فالاستهلاكية فى الحضور السلفى على الفضائيات ربما لها صلة بتحول الإعلام إلى صناعة تفرض منطقها، وعلى إدارة القناة بشكل خاص، أكثر منها تعبيرا عن تحول فى بنية الخطاب نفسه، بل وكثيرا ما شهدنا محاولات لكبح جماح تلك الاستهلاكية، فكثير من الشيوخ والدعاة السلفيين رفضوا فكرة الإعلان فى برامجهم، ودار نقاش حول فكرة الراعى كحل فى تدبير التمويل بدلا من ابتذال الإعلان، كما رفض كثير منهم فكرة الفواصل الإعلانية التى تقطع برامجهم، مثلما رفضوا كذلك فكرة توظيف رنات الموبايل بأصواتهم إعلانيا على نحو ما فعلت إدارة القناة بإدخال كلمات أو أدعية بصوت هؤلاء الدعاة وعرضها للتحميل بمقابل مادى وقدمت لها تسويقا مبتذلا باعتبارها: «رنة هتدخلك الجنة!».

نعم حضرت الاستهلاكية وبقوة فى الفضائيات السلفية كما هو الحال فى قناة «الناس»، وتوسلت بالتغطية والدعم الدينى للإعلان حتى لو كان عن «بطاطين وأطقم سرير وأدوات منزلية»، لكن مازال الخطاب السلفى نفسه بعيدا عن منطقها، ولربما كان فى بعض جوانبه ضدها عبر الحديث المستمر عن الزهد.

أما الابتعاد عن السياسة فيبدو له صلة بقرار مبدئى بالكف عنها أو المنع منها على الشاشة لضرورة الحفاظ على استمرارية التواجد ومن ثم تبليغ الدعوة، وليس لكون الخطاب نفسه منزوع السياسة كما فى حالة خطاب الدعاة الجدد منزوع السياسة حتى وهو يتحدث فى قضاياها الكبرى كما كان الحال فى غزو العراق أو حرب غزة التى كان خطاب التدين الجديد خطابا مدنيا لا يقترب من مفردات السياسة، فلا يتكلم مثلا عن المقاومة فضلا عن الجهاد ولو بشروطه الشرعية.

إن الخطاب السلفى فى الفضائيات قد يبتعد عن السياسة لكنه يضمرها، وهو قد يبدو غير مسيس لكنه يحمل بداخله إمكانات سياسية كامنة، يظهر ذلك جليا - على سبيل المثال - فى حالة الشيخ حازم صلاح أبو إسماعيل، فالرجل له ومازال تجربة سياسية ترشح فيها فى البرلمان ومارس العمل العام ومازال، لكنه يوائم فى حضوره على شاشة القناة فلا يقترب من السياسة..

ورغم أننا نلاحظ بالفعل ابتعادا من الوعظ السلفى فى الفضائيات عن قضايا الهوية مثل التنصير والصراع المذهبى إلا أن هذا لا يعنى غيابها فى عمق الخطاب الذى يستبطن الحجاج العقائدى وخاصة مع مخالفى أهل السنة والجماعة. ربما لا تسمح طبيعة الوسيط بظهور قضايا الهوية كاملة، ولكنها حاضرة بشكل عام لدى رموز الوعظ السلفى خارج وسيط الفضائيات، وحضور هذا الوسيط رهن بتقديره لحجم هذا التهديد ومن ثم ضرورة التصدى له.

ظهرت قضايا الهوية فى الخلاف الشهير بين رموز الوعظ السلفية وبين إدارة قناة «الناس» حين بدأت فى استضافة عمرو خالد أبرز رموز التدين الجديد والداعية الصوفى أحمد عبده عوض، لقد احتدم الأمر بالتهديد بمقاطعة القناة إذا استمرت فى السماح لهؤلاء بالدعوة على شاشتها، وتطور الأمر إلى انسحاب الشيخ محمد حسان نهائيا ومشاركته فى تأسيس قناة الرحمة، وقد اضطرت القناة للاستجابة ولو جزئيا لمطالبهم فأوقفت برنامج الداعية الصوفى وكفت عن استضافة عمرو خالد!

الحق أن السلفية فى الفضائيات مازالت تقاوم تأثير الوسيط على الخطاب، ومازالت تسعى لتكثيف حضورها على الفضائيات والاستفادة منها كمنبر واسع الانتشار ولكن دون أن تخسر كثيرا من أطروحاتها أو تضطر للتعديل فى جوهرها.

مازال رموز الوعظ السلفى يقاومون منطق الميديا، لقد فرضوا منطقهم على إدارة القناة فمنعت الموسيقى تماما بالقناة واستعاضت عنها بمؤثرات صوتية، وأوقفت ظهور المرأة على شاشتها

فى تأثير وسيط الفضائيات على الأطروحة السلفية يمكن أن نقف عند بعض التأثيرات المشابهة لتلك التى رأيناها فى التدين الجديد أيضا

بل وعملها بالقناة، وبدا النقاش جادا حول تشكيل لجنة شرعية لإدارة القناة تعطى الأولوية للشرعى على مقتضيات السوق، ثمة خلافات حول هذا مع إدارة القناة، لكن تبقى دلالته مهمة فى فهم بعض من أبعاد الحضور السلفى فى الفضائيات.

ثم هناك رفض لعلمنة الخطاب على النحو الذى ذكرناه من العلمنة: فمازال الخطاب السلفى فى الفضائيات يصنعه الشيخ وليس الجمهور الذى لم يتجاوز حضوره أو تفاعله أبعد من طرح الأسئلة والتعبير عن مشاعر الامتنان والتقدير دون التدخل فى بناء الإجابة الدينية، ويبدو الشيوخ السلفيون واعين بهذا ومحافظين على مبدأ أن موقع الجمهور هو التلقى وليس المشاركة.

ومازال الخطاب السلفى يصاغ وفق رؤية مؤسسية، فثمة مدرسة دعوية ينتمى إليها الواعظ السلفى يؤصل وعظه عبرها ولا يخرج عنها، مازال الواعظ السلفى يعتمد الإحالة إلى المصدر وإلى المراجع الدينية المعتبرة لديه، ومازال الوعظ السلفى الفضائى مستندا لمراجع على الأرض ولم ينفصل أو يستقل عنها.

والأهم من ذلك كله أن الخطاب السلفى مازال مشدودا إلى الآخرة، ولم تصبح الدنيا فى وعظه محل الثواب والعقاب، مازال التخويف بعقاب الآخرة حاضرا، وهو إن غاب فلجهة الترغيب فى ثوابها، ولم يدخل بعد فى الدنيوية، حتى الإعلان التسويقى عن تنزيل النغمات مازال يربط شراءها بالثواب الأخروى (رنة هتدخل بها الجنة)؛ وعلى ما فى هذا الإعلان من توظيف دينى فج ومسف فإن منطق أصحابه أن الجنة وثواب الآخرة هو المقصد.

إن الجمهور فى الوعظ السلفى الفضائى حاضر وموجود، وهو الذى يختار الخطاب السلفى (شعار القناة: شاشتنا يصنعها الناس)، لكن اختياره لا يؤسس له الحق فى التدخل فى المضمون أو تعديله، ولا يتحول أبدا إلى جزء من صناعة الخطاب.

إن علاقة السلفية بالجمهور فى الفضائيات تؤكد لنا أن إقبال الجمهور عليها هو فى جزء منه بحث عن المحافظة ضد تحولات عميقة تجتاح المشهد الدينى فى مقدمتها خطاب التدين الجديد الذى يكسر المحافظة بشكل ممنهج ومتعمد.

إن الإقبال على الخطاب السلفى فى الفضائيات هو سعى لاستعادة أطروحة المحافظة التى انتهكها خطاب التدين الجديد سواء فى كسره للتقليد الدينى أو فى طريقة قراءة النصوص الشرعية أو منهجية تفسيرها أو لغة الخطاب، أو فى كسره للهوية الدينية التى تتعرض للانتهاك بدءا من شكل الداعية وملابسه وليس انتهاء بأجندة القضايا التى يطرحها والتى تتنوع بين التنمية وإدارة الذات والحوار مع الآخر والتعايش، وتكاد تخلو من موضوعات الوعظ الدينى التقليدية.

نكاد نلمس لدى جمهور الفضائيات السلفية حنينا لشكل الشيخ التقليدى وطريقة وعظه، حنين لتقليد دينى تعرض للانتهاك على يد مجموعة شباب، تحولت الدعوة على ايديهم إلى «مسخرة» كما يذهب كثير من المتدينين التقليديين!

ثمة علاقة وثيقة بين الوسيلة الإعلامية ومستعملها، من ناحيتهم يتوافق الدعاة الجدد وخاصة أشهرهم عمرو خالد مع وسيلة الفضائيات؛ ومن ثم يستثمرون فيها من حيث الحرص على الوجاهة، وتوظيفها فى الدعاية للبرامج والمشروعات، ومن حيث تحولها لوسيط اتصال بينهم وبين العالم.

لكن السلفية لا تستثمر كاملا فى وسيط الميديا، ولا تميل لذلك، فقط تحتفظ بهذا الوسيط وتستفيد منه كناقل للخطاب السلفى وليس مؤثرا فى مضمونه.

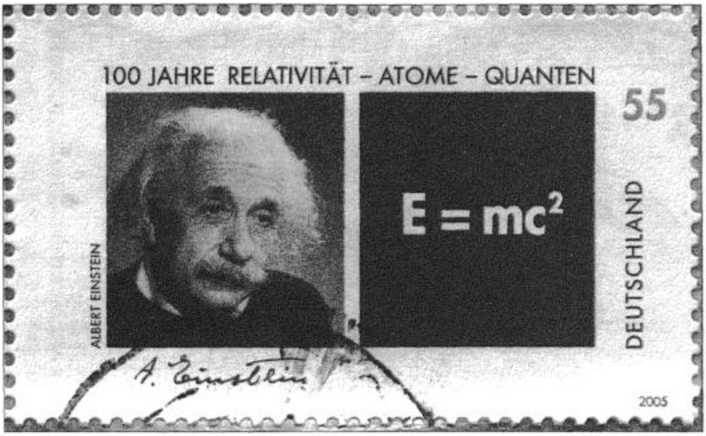
فى الأغلب يقف السلفيون من الوسيلة الإعلامية ويقفون بها عند حدها الأدنى: حيث المظهر الطبيعى، والاتصال المتحكم به مع الجمهور، والسيطرة على تدفق المعلومة باتجاه واحد.

ليبقى الخطاب السلفى أو مازال أقرب للاستثناء فى مقاومة تغيير مضمونه وجوهره بتأثر من الفضائيات وثورة الاتصالات الحديثة. ■

كتاب الزاوية

الآخر.. فى التلمود (٤)

كيف يقضى الرب يومه ؟ سوف يجلس الرب ويضحك على (غير اليهود) استنادا إلى ما ورد فى (المزامير ٢/٤): «الساكن فى السماوات يضحك . الرب يستهزئ بهم». يقول الربى إسحق: لن يضحك الرب إلا فى هذا اليوم فقط (يوم الدين). إذا كان الأمر كذلك فقد روى الربى يهودا عن راف قوله : إن النهار اثنتا عشرة ساعة . فى الساعات الثلاث الأولى يعمل القدوس تبارك بالشريعة . وفى الثلاث الثانية يجلس ويحكم ويحاسب العالم . وعندما يرى أن العالم مذنب، فإنه ينتقل من كرسى الحكم إلى كرسى الرحمة. وفى الربع الثالث يجلس الرب ويطعم العالم من كبيره إلى صغيره. وفى الربع الرابع يجلس الرب ويلعب مع لوياثان (الحوت) استنادا إلى ما ورد فى (مزامير ١٠٤/ ٢٦) : «لوياثان هذا خلقته ليلعب فيه». قال الربى نحمان بن إسحق : يضحك أو يلعب الرب مع مخلوقاته . لكن لا يضحك عليهم إلا فى ذلك اليوم فقط. قال راف آحا لراف نحمان بن إسحق : لم يضحك القدوس تبارك منذ خراب الهيكل. أنى لنا أن نعرف أنه لم يضحك ؟ (نعرف ذلك) مما ورد فى (إشعياء ٢٢/١٢) : «ودعا السيد رب الجنود فى ذلك اليوم إلى البكاء والنوح والقرعة .... » فلعله يشير إلى هذا اليوم - وليس يوماً آخر ... وماذا يفعل الرب فى الربع الرابع؟ يجلس ويعلم أطفال (المعهد الدينى) الشريعة استنادا إلى ما ورد فى (إشعياء ٩/٢٨) لمن يعلم معرفة؟ ولمن يفهم تعليماً ؟ أللمفطومين عن اللبن . للمفصولين عن الثدى» ومن الذى كان يعلمهم فى البداية؟ يمكنك أن تقول إنه ميتترون (أحد الملائكة المقربين) ويمكنك أن تقول إنه الرب . وفى الليل ماذا يفعل الرب ؟ يمكنك أن تقول: ما يفعله بالنهار .



اقتصاديات العلوم

هل كان أينشتين أهلا للثقة؟!

ستيفن لاندسبيرج

Steven E. Landsburg

■ ■ في عام ١٩١٥ أعلن آلبرت أينشتين Albert Einstein نظريته العامة للنسبية وبعض ما تضمنته من أفكار مذهلة، وقد «تنبأت» النظرية بوجود انحراف في مدار كوكب عطارد كان قد لوحظ منذ وقت طويل ولكنه لم يُفسر أبداً، وتنبأت النظرية بأمر جديد وغير متوقع يتعلق بالطريقة التي ينحنى بها الضوء للحيود تحت تأثير المجال المغناطيسي للشمس. وفي عام ١٩١٩، قاد السير آرثر إيدينجتون Arthur Eddington حملة استكشافية، وأكد صحة التنبؤ الخاص بانحناء الضوء، وجعل اينشتين شخصية عالمية.

كان التفسير الخاص بمدار كوكب عطارد والتنبؤ الناجح بانحناء الضوء برهانين مذهلين على صحة نظرية أينشتين، إلا أن موضوع انحناء الضوء وحده احتل العناوين الرئيسية للصحف والمجلات العلمية لأنه لم يكن متوقعاً.

ولنتخيل الآن أن السير إيدينجتون قام بحملته في عام ١٩٠٠ بدلا من ١٩١٩، إذن لصارت الحقائق المتعلقة بانحناء الضوء راسخة وغامضة بقدر موضوع مدار عطارد قبل أن يبدأ أينشتين عمله بوقت طويل، ولفقد أينشتين التأثير النفسي النابع من تنبؤه بما ليس متوقعاً، وربما لم يكن ليحقق ذلك الأثر المذهل الذي تركه في مخيلة عامة الناس، وفي عادات الهندام الخاصة بجيل كامل من الفيزيائيين، ولكن بعيداً عن مسألة المجد الشخصي الذي حققه أينشتين، ماذا كان سيحل بنظرية النسبية نفسها؟ هل كان المجتمع العلمي سيتردد في اعتناقها؟ ولو حدث هذا، فهل سيكون هناك سبب يبرره؟

لنتخيل حدوث العكس؛ بمعنى أن موضوع الانحراف في مدار عطارد لم يلحظه أحد حتى تنبأ به اينشتين، ثم أكدت الملاحظات اللاحقة هذا التنبؤ، فهل كان التأثير النفسي لتنبؤ آخر غير متوقع سيعمل على تدعيم نظرية النسبية والتأكيد عليها تأكيداً أكبر؟ وهل كان ينبغي أن يفعل هذا؟

طوال أربعمائة عام على الأقل، دأب العلماء والفلاسفة على مناقشة المزايا النسبية لتفسير الحقائق المعروفة (مثل انحراف مدار عطارد) من ناحية، والتنبؤ بما هو غير متوقع (مثل انحناء أشعة الضوء) من ناحية أخرى، وقد تناول الفيلسوفان رينيه ديكارت René Descartes وفرانسيس بيكون Francis Bacon هذه القضية بالبحث، وحتى اليوم لا تزال المناقشات تحتدم حولها في الصحف الأكاديمية.

ومما لا شك فيه أن التوصل إلى تفسير لإحدى الحقائق المعروفة، والتنبؤ الناجح بحقيقة جديدة؛ ينبغي أن يصب كلاهما في مصلحة النظرية. وفي بعض الأحيان، يطلق على الحالة الأقوى تأثيراً من الناحية النفسية، وهي التوصل لتنبؤ جديد بنجاح، الدليل «المبتكر» على صحة النظرية. والسؤال هو: هل المفترض أن يعطي ذلك الدليل المبتكر للنظرية ثقلا أكبر مما يفعل الدليل غير المبتكر؟ باختصار، هل مسألة الابتكار هذه تحدث فارقًا؟

الحزب المؤيد لفكرة أن «الابتكار لا يمثل فارقاً» يرى أن الحكم على نظرية معينة يجب أن يعتمد على مزاياها الخاصة بصرف النظر عن الطريقة التي اكتُشفت بها. لدينا هنا النظرية «أ» التي تتفق مع الحقائق «س» و«ص» و«ع»، فلنحكم عليها وفقاً لتلك الحقائق، وما الفارق لو أن الباحث كان يعرف تلك الحقائق قبل ابتكاره للنظرية «أ»؟ ولماذا يكون للحالة الذهنية للباحث علاقة بالموضوع أكثر من تسريحة شعره؟

ولنتخيل مثالا بسيطاً؛ فلو أن نصف الجوارب الموجودة في درجك الأيسر سوداء اللون، بينما في درجك الأيمن لا يوجد جورب واحد أسود اللون، فلو أنك اخترت جورباً من الدرج الأيسر، فما هي احتمالات أن يكون لونه أسود؟ بالتأكيد هي النصف. والآن لنفترض أنك معصوب العينين، ومددت يدك على نحو عشوائي في أحد الدرجين وانتقيت جورباً. ثم أخبرتك زوجتك - التي كانت تراقبك - أنك مددت يدك في الدرج الأيسر، فما هي احتمالات أن يكون الجورب أسود اللون؟ لا تزال النصف. إن ما يهمنا هنا هو الدرج الذي انتقينا منه الجورب، وليس ما كنت تعرفه أثناء اختيارك له.

إن العالم الذي يختار بين عدد من النظريات المحتملة يشبه إلى حد ما الرجل الذي يختار بين الجوارب، ففي الدرج الأيسر هناك مجموعة من النظريات التي تتفق مع مجموعة محددة من الحقائق، ونصف هذه النظريات صحيح، أما في الدرج الأيمن فهناك مجموعة من النظريات التي تدحضها الحقائق، وكلها نظريات غير صحيحة. ولنفترض أن

للاستزادة:
فيلسوف الاقتصاد
الاقتصاد والحياة اليومية
ستيفن لاندسبيرج
كلمات عربية للترجمة والنشر - القاهرة ٢٠٠٨
مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

ترجمة: رشا سعد زكي

كان التفسير الخاص بمدار كوكب عطارد والتنبؤ الناجح بانحناء الضوء برهانين مذهلين على صحة نظرية أينشتين



إلا أن موضوع انحناء الضوء وحده احتل العناوين الرئيسية للصحف والمجلات العلمية لأنه لم يكن متوقعًا

البروفيسور سميث بدأ بمعرفة كافة الحقائق ثم قام ببناء نظريته التى تتفق مع هذه الحقائق، وأنه راعى عند اختياره للنظرية أن تكون إحدى النظريات الموجودة فى الدرج الأيسر، وهذا معناه أن احتمال كونها صحيحة هو النصف. أما البروفيسور جونز فقد وضع نظريته قبل معرفة الحقائق؛ بمعنى أنه وضع تنبؤًا مبتكرًا. وقد اختار البروفيسور جونز نظريته عشوائيًا وهو معصوب العينين من أحد الدرجين. وبعد أن ثبت أن نظرية جونز تتفق مع الحقائق، اكتشف أنه قد اختارها من الدرج الأيسر. إذن فاحتمالات أن تكون نظريته صحيحة هى أيضًا النصف تمامًا كنظرية البروفيسور سميث.

لا شك فى أن الجوارب والنظريات شيئان مختلفان كليًا، إلا أن كليهما عرضة لنفس القوانين الأساسية للاحتمالات. فلو كان اختيار النظريات لا يختلف فى شىء جوهرى عن اختيار الجوارب، إذن لحسمت المناقشة السابقة الموضوع ولأثبتت أن «الابتكار لا يمثل فارقًا».

ومع أن الآراء المعترضة على أهمية الابتكار تبدو بسيطة ومحكمة، إلا أن الكثير من العلماء المرموقين استقبلوها بالتشكك، وحجتهم فى ذلك أن أى شخص بإمكانه أن يعتمد على بعض الحقائق المعروفة فى اختلاق أو تلفيق نظرية ما تفسر هذه الحقائق، ومن ثم فالتنبؤ المبتكر هو العلامة الفارقة الوحيدة التى تميز الإنجاز العلمى الأصيل. إن هؤلاء العلماء لديهم شعور قوى تجاه أهمية الابتكار، التحدى الفكرى هو محاولة تفسير السبب فى ذلك.

لو أن الابتكار بالفعل يمثل فارقًا، فلا بد أن هذا يعود إلى الاختلاف الواضح بين وضع النظريات العلمية واختيار الجوارب وأنت معصوب العينين. وبالطبع بإمكان أى فرد أن يعد الفروق الواضحة بين النشاطين - مثل أن أحدهما يكون فى المعمل والآخر فى حجرة النوم، أو أن أحدهما تدعمه المنح الحكومية ولا تدعم الآخر. إلا أنه من العسير جدًا أن تضع يدك على الفارق «الجوهرى» الذى يجعل الابتكار أمرًا يمثل فارقًا.

وقد اقتصرت المناقشات حول مسألة الابتكار على الصحف الفلسفية فقط فى العقود الأخيرة، إلا أن أكثر القضايا المتعلقة بالموضوع وضوحًا هى: «كيف نستطيع الوصول إلى استدلالات فى ظل نقص المعلومات؟» وتلك قضية يعرفها علماء الاقتصاد إلى حد ما.

حتى إذا وضعنا الأمر فى أبسط سياق، نجد أن التنبؤ المبتكر يبدو منطقيًا باعتباره وسيلة للكشف عن المعلومات. لنفترض أن بعض العلماء يتمتعون بالفطرة بموهبة تفوق أقرانهم، وأنه لا توجد أية وسيلة نستنتج عن طريقها من هو الأكثر موهبة من الآخر. وبالطبع فإن العلماء الموهوبين هم - على الأرجح - الأقدر سواء على وضع نظريات صحيحة، أو على النجاح فى وضع تنبؤات مبتكرة. فعندما يضع البروفيسور جونز تنبؤًا مبتكرًا، فإن ذلك يكشف عن موهبته بعض الشىء، ولو حتى من الناحية الاحتمالية. فالعالم الذى يضع تنبؤًا مبتكرًا وناجحًا هو الأقرب احتمالا لأن يكون موهوبًا، ومن ثم الأقرب احتمالا أن ينجح فى وضع نظرية صحيحة. إذن، فإننا نمنح نظرية جونز مصداقية أكبر مما نمنحه لنظرية سميث، ليس بسبب التأثير «المباشر» للتنبؤ المبتكر، وإنما لأن تبوء البروفيسور جونز المبتكر يشى بشئ عنه.

والقصة لا تنتهى عند هذا الحد، فلم نتطرق بعد للسبب الذى دفع البروفيسور جونز من البداية لمحاولة التوصل إلى تنبؤ مبتكر، فى حين لم يحاول البروفيسور سميث أن يفعل ذلك. فهل فى ذلك دليل على ثقة البروفيسور جونز فى قدراته من ناحية، وعدم ثقة البروفيسور سميث فى نفسه من ناحية أخرى؟ فلو أن الحال هكذا، فقد صار لدينا سبب إضافى يدفعنا لوضع ثقة أكبر فى البروفيسور جونز عن البروفيسور سميث. بمعنى آخر يحق لنا أن نبنى بعض الاستنتاجات ليس فقط بناء على «نجاح» جونز فى التوصل إلى تنبؤ مبتكر، وإنما أيضًا بناء على استعداده المبدئى «للمخاطرة» بوضع تنبؤ مبتكر.

ولنجسد الموقف فى مثال. لنفترض أن العلماء الذين ينجحون فى التوصل لتنبؤات مبتكرة بصورة دورية يحصلون على مائة ألف دولار فى العام، فى حين أن أولئك الذين يحاولون وضع تنبؤات مبتكرة ولكنها غير ناجحة يحصلون على عشرين ألف دولار فى العام. أما العلماء الذين ينأون بأنفسهم عن محاولة وضع أية تنبؤات مبتكرة فيحصلون على خمسين ألف دولار فى العام. إذن فالعالم الذى يقدم على محاولة الابتكار يجازف بدخله؛ فهو مستعد للمراهنة على موهبته الشخصية، وقد يكون تصرفًا عقلانيًا من الآخرين أن يراهنوا معه بأن يعتنقوا نظريته. وبالمثل فإن العالم الذى يختار الحصول على الخمسين ألف دولار المضمونة وينأى بنفسه عن المجازفة يدفعنا دفعًا للتساؤل عما إذا كان ينبغى أن تضع فيه ثقة تفوق ثقته بنفسه.

إن كافة الاستدلالات التى نحصل عليها تتوقف بالتحديد على الحوافز التى يستجيب لها كل من سميث وجونز. والآن نحن فعلا فى نطاق تخصص عالم الاقتصاد. فنحن الآن بحاجة إلى نظرية تحدد لنا أسلوب المكافأة الذى يحتاج إليها كل نوع من العلماء على حدة، وردود الأفعال المحتملة للعلماء على هذا النظام، والاستدلالات التى قد نخرج بها بملاحظة ردود الأفعال السابقة.

إن النظرية المحكمة حول الحوافز لا بد أن تأخذ فى الاعتبار التنافس بين العلماء، والتنافس بين مراكز ومعاهد البحوث، والتنافس بين الرعاة الذين يدعمون الأنشطة العلمية ماديًا والمستفيدين من تلك الأنشطة. هذا التضارب فى المصالح يعطى دفعة لنظام المرتبات الذى يقدم مكافآت متنوعة لمختلف استراتيجيات البحث ومختلف مستويات النجاح. ولكن للأسف فإن استيعاب عواقب تلك النظرية يبدو مهمة مستحيلة.

فلنتراجع إذن إلى مهمة أسهل قليلا. لنتخيل أن هناك قيصرًا قوميًا للعلوم، مسئول عن تصميم نظام يحفز العلماء على العمل بفعالية. ومن الطبيعى أن نأمل فى أن يكون ذلك النظام الذى سيصممه شبيهًا بالنظام الذى يظهر بالفعل فى ظل وجود منافسة. فنحن نعلم جيدًا أن هناك الكثير من النماذج الاقتصادية التى تحقق فيها القوى المتنافسة نتائج فعالة. إذن فلنفكر فيما ينبغى أن يفعله القيصر على أمل أن تكون النتائج قريبة مما نلاحظه بالفعل فى واقع حياتنا. وحتى لو تحطمت آمالنا، فإن جهودنا لن تذهب هباء، فسيظل بإمكاننا أن نعمل مستشارين لأى قيصر جديد فى المستقبل.

أما القيصر: فمن الممكن أن يأمر العلماء إما «بالبدء بالبحث»؛ بمعنى أن يبدءوا أولا باختبار المعلومات كلها قبل وضع النظرية، أو يأمرهم «بالبدء بوضع النظرية»؛ بمعنى أن يحاولوا أولا فرض التنبؤات المبتكرة، ثم تفنيدها والتخلص من النظريات التى تعتمد على تنبؤات خاطئة.

لكن البدء بوضع النظريات هو مضيعة للوقت والجهد، حيث يكرس العلماء الكثير من الموارد لوضع النظريات التى تدحضها الحقائق تمامًا، فى بعض الأحيان على الأقل، أما عندما يجمع العلماء المعلومات مقدمًا، فإنهم يتجنبون الوقوع فى مثل هذه الأخطاء، ويتوفر لهم وقت أكبر للتوصل لنظريات جيدة. إذن فمن المتوقع أن يأمر القيصر الاقتصادى العلماء كلهم بالبدء بالبحث أولا. غير أن هناك أيضًا جانبًا سلبيًا لفكرة البدء بالبحث؛ فقد ينشأ عن ذلك الكثير من النظريات (التى قد تتعارض مع بعضها البعض)، وما من وسيلة لتحديد أيها يبشر بالنجاح أكثر. فمثلا إذا أراد القيصر بناء جسر، فسيجد أمامه فيضًا هائلا من النظريات المتعارضة مع



بعضها البعض حول أساليب بناء الجسر، ولن يتمكن من معرفة أفضلها ليتبعها.

أما عندما يبدأ العلماء بوضع النظريات، فإن الكثير من النظريات تدحضها البراهين بحيث لا يتبقى سوى النظريات التى محصت بدقة عن طريق اختبارات عديدة، مما يؤكد أن واضعها يتمتع بقدر من الذكاء يفوق المتوسط. وبالطبع يحق للقيصر أن يضع ثقة أكبر فى تلك النظريات، وعندما يعتمد عليها فى بناء الجسر، تكون لديه ثقة أكبر فى أن الجسر لن ينهار.

إذن فالموازنة التبادلية هنا تتلخص فى الأتى: إذا بدأ العلماء بوضع النظريات أولا، فإن عملهم سيكون مكلفاً، والقليل فقط من نظرياتهم سيصمد أمام البحث والدراسة، ولن يتم بناء عدد كاف من الجسور المتينة. أما إذا بدأ العلماء بالبحث أولا، فسيكون من المستحيل معرفة النظريات الجيدة من السيئة، ومن ثم يتم بناء الكثير جداً من الجسور الضعيفة التى ستنهار بعدها.

لكن القيصر الذكى ربما يلجأ إلى منطقة وسطى بين مضيعة الوقت والجهد المتمثلة فى البدء بوضع النظريات من ناحية، والنتائج المزرية الناتجة عن البدء بالبحث من ناحية أخرى. فمثلا من الممكن أن يقسم العلماء فيبدأ فريق منهم بوضع بالنظريات، ويبدأ الفريق الأخر بالبحث. ولكن ما هو الأساس المنطقى الذى نحدد عن طريقه أى العلماء ينضم لأى فريق؟

ربما تظهر إجابة محتملة عن هذا السؤال إذا فرضنا أن العلماء يعرفون وحدهم عن بعض قدراتهم الشخصية واستعداداتهم ودوافعهم نحو المشروع المطروح. فمثلا، هناك علماء يثقون بقدرتهم على وضع نظريات جيدة أكثر مما يفعل علماء آخرون. وثقتهم هذه، ولو فى بعض الأحيان، تقف على أساس صلب من القدرة الجيدة على إصدار الأحكام.

ولكى أصل بالفكرة إلى أبسط صورة ممكنة، دعنا نفترض أن العلماء ينقسمون إلى «متميزين» و«تقليديين»، حيث نقصد بالمتميزين أولئك الذين «ترتفع احتمالات وضعهم لنظريات صحيحة عن المتوسط»، وبالتقليديين عكس ذلك. ولنفترض أيضاً (سعياً لتبسيط الفكرة) أن كل العلماء يعرفون قدراتهم تماماً. (وهو تقريب مبدئى للافتراض الأكثر واقعية بأن «بعض» العلماء لديهم «بعض» المعلومات عن قدراتهم).

فى ظل هذه الظروف يصير أحد أهم الأهداف التى يسعى القيصر لتحقيقها هو التفريق بين العلماء المتميزين والتقليديين، وهذه المعلومة تمثل له أهمية كبرى، وذلك لسببين مختلفين تماماً: أولا: لو أنه نجح فى معرفة العلماء المتميزين، فسيعرف أى النظريات يستطيع الاعتماد عليها فى المسائل المهمة مثل بناء الجسور، وثانياً: إذا استطاع التعرف على العلماء المتميزين، فسيكون بإمكانه أن يكافئهم بإعطائهم أجوراً فى المتوسط أكثر من أقرانهم التقليديين، وهذا من شأنه أن يشجع الأشخاص ذوى المواهب المتميزة على اقتحام مجال العلوم من ناحية، ويثبط أولئك الذين لا يملكون الموهبة المطلوبة.

ولكن كيف يحدد القيصر العالم المتميز من التقليدى؟ أبسط الطرق هى أن يسأل، ولكن للأسف، فبما أنه يخطط لمنح العلماء المتميزين رواتب تفوق رواتب العلماء التقليديين، فإنه لا يستطيع أن يثق بأن الجميع سيجيبون عن مثل هذا السؤال المباشر بصدق، وسيجد نفسه فى حاجة إلى طريقة جديدة يكافئ بها من يقول الصدق.

دعنى إذن أقدم له حلاً، وقد سبق أن أشرت إليه فيما بين السطور، فالحل هو أن يلجأ القيصر إلى إنشاء معهدى أبحاث منفصلين: معهد «البدء بالبحث أولا»، ومعهد «البدء بوضع النظريات أولا». فى معهد «البدء بالبحث أولا»، يقوم جميع العلماء دائماً بالبحث والدراسة قبل وضع النظريات، ويتقاضون جميعاً خمسين ألف دولار فى العام، وفى معهد «البدء بوضع النظريات أولا»، يقوم جميع العلماء دائماً بوضع النظريات أولا، فمن تثبت صحة نظرياته لاحقاً يتقاضى مائة ألف دولار فى العام، ومن تدحض الحقائق العلمية نظرياته يتقاضى عشرين ألف دولار فقط.

فإذا جرى تحديد المرتبات بطريقة صحيحة، فسوف يتوجه العلماء المتميزون ـ الذين يثقون بقدرتهم على وضع تنبؤات مبتكرة ناجحة ـ للعمل فى معهد «البدء بالنظريات»، حيث يتوقعون الحصول على مكافآت مجزية، أما العلماء التقليديون، الذين يدركون جيداً أن تنبؤاتهم المبتكرة غالبا تفشل ـ فسيقبلون بمرتب الخمسين ألف دولار المضمونة فى معهد «البدء بالبحث». إن أهم نقطة فى هذا الحل هى أنه يدفع العلماء للكشف عما لديهم من معلومات «طواعية»، وهى معلومات مفيدة للقيصر، مع أنه لا يوجد سبب يدفعهم لذلك.

وبالطبع فإن هناك احتمالا أن يتخلى الحظ عن بعض العلماء المتميزين فى ظل هذا النظام فينتهى بهم الحال إلى تقاضى عشرين ألف دولار فقط فى العام. ولكن عموماً سوف يتقاضى العلماء المتميزون أكثر من العلماء التقليديين فى المتوسط، علاوة على أن عدداً أكبر نسبياً منهم سينجذبون للعمل فى المجالات العلمية. وكذلك فسوف يعلم القيصر لمن يتوجه لطلب الرأى والمشورة حين يهم بالبدء فى مشروع مثل إنشاء الجسر. أما العلماء التقليديون، فمع أن اسهاماتهم ستحترم وسيعترف بها، إلا أنه نادراً ما سيجرى العمل بها.

إذن فهذا النظام له بعض المزايا المطلوبة بقدر ما له بعض العيوب المقلقة. من ضمن العيوب أن العلماء المتميزين يضيعون الكثير من الوقت والجهد عندما يبدءون بوضع النظريات أولا، ولو أنهم بدءوا بالبحث، لتجنبوا الدخول فى الكثير من الطرق المسدودة. ولكن للأسف إذا بدءوا فعلا بالبحث فإنهم بهذا يقللون من فرص تعرضهم للمخاطر مما قد يشجع بعض العلماء التقليديين على محاولة التسلل ضمن صفوف المتميزين. فالشىء الوحيد الذى يبعد العلماء التقليديين عن معهد البدء بالنظريات هو خوفهم الشديد من احتمال رفض نظرياتهم المقترحة. وبناء عليه فالقيصر، عندما يرغم العلماء المتميزين على تضييع الوقت والجهد، فإنه يشجع التقليديين على الإفصاح عن أنفسهم. وهى معلومة تساوى قيمتها ما يضيع من وقت أو جهد.

ومن ضمن الجوانب الغريبة أيضاً لهذا النظام أن العلماء التقليديين يتقاضون خمسين ألف دولار فى العام مع أنه معلوم سلفاً أن نظرياتهم غالباً لن تكون لها أية قيمة اجتماعية. هذه النقطة أيضاً تنبع أهميتها من أنها تمنع العلماء التقليديين من محاولة التسلل إلى معهد البدء بالنظريات المرموق. فلو أن القيصر امتنع عن توفير الظروف الجيدة للعلماء التقليديين، فسيحاولون التظاهر بالتميز، مما سيسبب للقيصر الكثير من القلق والارتباك.

جدير بالذكر أنه فى حالة ترك مهمة البحث العلمى فى أيدى القطاع الخاص، فإن أغلب المؤسسات ستمتنع عن توظيف العلماء التقليديين الذين لا يقدمون سوى نظريات غير مفيدة. إلا أن الدور الذى تؤديه هذه المؤسسات مهم من الناحية الاجتماعية، لأنها تمنع العلماء التقليديين من التظاهر بالتميز. ولذلك فإنه من المرجح نظرياً أن يكون للحكومة دور ملحوظ فى تنظيم الأنشطة العلمية؛ فإنها الكيان الوحيد الذى يقبل تدعيم الأبحاث التى لا تقدم أية فائدة اجتماعية تذكر!

فإلى أية درجة ترى النموذج السابق واقعياً؟ من المؤكد أنه يحتوى على بعض الصفات التى يمكن تمييزها فى واقع مجال البحث العلمى. فعلى أرض الواقع هناك المعاهد العلمية «المرموقة» التى تعتمد المرتبات فيها اعتماداً كبيراً على نتائج الأبحاث المقدمة، وهناك أيضاً معاهد «ضعيفة المستوى» يعامل فيها الجميع بالتساوى. ويتخذ الكثير من العلماء، إلى حد كبير، قرارهم بالالتحاق بأحد المعاهد بناء على توقعاتهم الخاصة بقدراتهم، وترجح النظرية أيضاً أن الكثير من العلماء التقليديين يتقاضون رواتب مجزية مقابل تقديمهم أبحاثاً غير مفيدة على الإطلاق، ولذلك فهناك عدد من العلماء التقليديين أكبر بكثير مما يفضله القيصر الكريم. وهذه الاحتمالات تبدو مقنعة بالنسبة لمن اعتاد التعامل مع نظريات العلم الحديث.

إن نموذج العلماء المتميزين مقابل التقليديين لا يعد البرهان الوحيد الذى يدعم التنبؤ العلمى المبتكر، ولكننى أظن أنه الوحيد الذى قدم على هذا النحو المفصل. وأظن أنه من الأفضل أن يجرى تقديم النظريات البديلة على نفس النحو المفصل بحيث تتيسر مناقشة مزاياها جدياً. فبطريقة ما امتد الجدل الدائر حول مسألة «الابتكار» لما يزيد على أربعة قرون دون أن يشعر أى من المشتركين فيه بأهمية تحديد النموذج الذى يعرض رأيه فى مسألة البحث العلمى. فلتحذر المفكرين العظماء الذين يعلنون عما توصلوا إليه من استنتاجات دون أن يفصحوا عن فرضياتهم. أما أنا فأفضل علم الاقتصاد لأنه لا يقبل سوى أعلى المعايير. ■

فى حالة ترك مهمة البحث العلمى فى أيدى القطاع الخاص، فإن أغلب المؤسسات ستمتنع عن توظيف العلماء التقليديين

قصــور الحمــراء

ديـوان الـعـمـارة والـنـقـوش الـعـربـيـة

■ ■ يبدأ بتعريف كلمة الحمراء التى وردت لأول مرة فى المصادر العربية باسم حصن الحمراء، وكان يطلق على حصن صغير لجأ إليه الثائرون الذين فروا أثناء الفتن التى شبت خلال حكم الأمير عبد الله الأموى، ويبدو أن هذا الموقع قد أصبح فى نهاية القرن ٣هـ/٩م حصنا إسلاميا، وكان هذا الحصن قد شيد فيما يغلب فى نهاية القرن الثالث الهجرى على أطلال رومانية وقوطية قديمة كانت تتخذ من هذا الموقع الاستراتيجى فوق تل السبيكة حصنا ومركزا دفاعيا لها، وقد هجر فيما يبدو فى أيام الخلافة حيث لم تذكره المصادر العربية إلا فى عصر بنى زيرى الذين اتخذوه حصنا وموقعا عسكريا، ثم أضافوا إليه منشآت مدنية للسكنى.

والحمراء مدينة ملكية تتخذ شكل الحصن الذى يقام فى موقع مرتفع منيع يتميز بحصانته بفضل الأبراج والأسوار المحيطة به ويبلغ ارتفاع الهضبة التى شيدت عليها القصور ٧٣٦مترا ، وتشغل نحو خمسة وثلاثين فدانا، وهى فى ذلك تشبه إلى حد كبير قلعة الجبل فى القاهرة، وقلعة حلب فى بلاد الشام، وهذا الطراز من المدن المحصنة أصبح الطابع المميز للعديد من المدن الإسلامية ابتداء من القرن الرابع الهجرى.

وتضم الحمراء عدداً من الوحدات المعمارية بعضها قاعات ومجالس وبعضها أبهاء وبساتين تتخللها الجداول والبرك الصناعية خطط لها فوق تل السبيكة الذى عرف بهذا الاسم لتحوله إلى اللون الذهبى عندما تسقط عليه أشعة الشمس.

وقد اتسعت الحمراء بما أضيف من قصور وأبراج وقاعات ومرافق مختلفة ومتعددة الأغراض، حتى أصبحت بحق مدينة ملكية تضم القصور والحمامات والمساجد السلطانية والمتنزهات وصهاريج المياه، وتطوقها الأسوار والأبراج المحصنة.

وأقدم قصور بنى نصر التى أقيمت بالحمراء كانت من إنشاء السلطان الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر، الذى وضع النواة الأولى للأسوار والقصبة والقصور فوق القمة المعروفة بالسبيكة ، ثم تتابعت الزيادات فى القصور والمجالس والقاعات على يدى عدد من سلاطين بنى نصر شارك كل منهم بالإضافة والزيادة فى إنشاء مجموعة قصور الحمراء.

ويمكننا أن نقسم مجموعة الأبنية المؤلفة لقصور الحمراء إلى مجموعتين المجموعة الأولى وتنسب إلى السلطان يوسف الأول (٧٣٣ - ٧٥٥هـ/ ١٣٣٣ - ١٣٥٤م) والمجموعة الثانية، وتنسب إلى السلطان محمد الخامس الغنى بالله، وتضم مجموعة بهو الأسود أو السباع بالإضافة إلى النافورة التى تتخذ شكل قصعة مستديرة يحملها اثنا عشر أسداً تمج المياه من أفواهها.

أما المجموعات الأخرى من القصور فترجع إلى عدد من سلاطين بنى نصر، ساهم كل منهم بالإضافة والتجديد والتعديل فى قصور الحمراء فيرجع قصر البرطل إلى السلطان محمد الثالث (٧٠١ - ٧٠٨هـ/ ١٣٠٢ - ١٣٠٨م) وكذلك مسجد الحمراء، ويرجع الفضل فى إنشاء قصر جنة العريف إلى السلطان محمد الثالث واستكمله السلطان أبو الوليد إسماعيل ويرجع قصر أو برج الأميرات إلى السلطان محمد السابع (٨٢٠ - ٨٥٨هـ)، كما أسهم سلاطين آخرون فى الزيادة والتجديد إلى قصور الحمراء ببعض الإضافات فى أبهاء أعمالها وبساتينها سواء بالبنيان أو الزخرفة مثل تجديدات السلطان أبو الوليد إسماعيل فى قصر البرطل مما يصعب أحياناً تحديد وتمييز أعمال كل منهم عن الآخر.

ونلاحظ أن معظم مسميات القاعات والأبهاء والأبراج، ترجع فى معظم الأحيان إلى عصور حديثة وأغلبها يرتبط فى كثير من الأحيان بالروايات والقصص الأسطورية، وكثيراً ما يطلق على القاعة الواحدة عدة مسميات.

ويتناول الكتاب الخصائص الفنية للنقوش الكتابية فى الأندلس وتطورها؛

ويرى الأستاذ ليفى بروفنسال أن شرق العالم الإسلامى كان أكثر ثراء من غربه فى النقوش الكتابية المؤرخة التى لا تزال ثابتة فى مواضعها الأولى لا سيما فى شواهد القبور، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن إسلام أهل الأندلس والمغرب بوجه خاص كان أكثر رسوخا من حيث الحفاظ على روحه وتعاليمه من أهل المشرق.

وكان لذلك أثر واضح فى نظرتهم إلى شواهد القبور وفى تصورهم أنها مكروهة فى الإسلام فزهدوا فى اتخاذهم له أعلى مقابرهم، وإن كان ذلك لم يمنع من وصول عدد كبير من الشواهد الجنزية الأندلسية إلى المتاحف الإقليمية بالأندلس، أما أهل المغرب فلم يقبلوا على استخدام هذه الشواهد، واستعاض الموحدون عنها بالآيات الكريمة التى أكثروا من نقشها على قبورهم.

وتعرض الكتاب أيضاً لشعراء ووزراء بنى نصر وأشعارهم المنقوشة فى قصور الحمراء:

حيث نلاحظ أن معظم من تولى الوزارة من سلاطين بنى نصر فى غرناطة كانوا من فحول الشعراء، وكانت الموضوعات الرئيسية لأشعارهم تدور عادة حول مدح السلاطين والأمراء، ووصف حفلات البلاط والاحتفالات بالأعياد الدينية الكبرى، أو فى المناسبات الهامة كالمعارك الكبرى أو عودة الجيش منتصراً أو حفلات الزواج والإعذار، أو أشعار وصفية لغرناطة وحدائق وقصور وبرك ونوافير قصور الحمراء، ومعالمها المختلفة.

وأعظم قصائد هؤلاء الشعراء قيلت فى وصف حدائق ومنتزهات ومبانى تلك القصور وزاد من قيمة هذا الشعر وخلوده أنه سجل على جدران الحمراء التى تمثل إحدى روائع الفن العالمى، ويستفاد من المصادر الأدبية والتاريخية وأيضاً من دواوين هؤلاء الشعراء أن بعض قصائدهم أعدت خصيصاً ونظمت لهذا الغرض الزخرفى لتنقش على الجدران والنافورات مما يجعلنا نصدق القول بأن الحمراء تسجل لنا أفخم وأعظم طبعة لديوان الشعر العربى على مر العصور، فلم يسبق أن صدر ديوان للشعر مذهب ومطبوع على الجص والحجر والرخام ومزخرف بأروع التشكيلات الهندسية والنباتية من فنون الزخرفة العربية الإسلامية.

ويتحدث الكتاب عن النقوش الشعرية المنسوبة للوزير الشاعر أبى الحسن على بن الجياب، وكذلك المنسوبة لكل من لسان الدين بن الخطيب وأبى عبد الله بن زمرك.

الأماكن التى تتركز عليها النقوش الشعرية فى قاعات وأبهاء الحمراء:

ويعرض الكتاب للمواد الخام والأساليب الفنية المستخدمة فى تنفيذ نقوش الحمراء كما يذكر كيف تتوزع نقوش الأشعار المسجلة على جدران الحمراء فى مواضع متعددة فهى تمتد فى أفاريز متعددة الأشكال داخل القاعات وخارجها وعلى الواجهات والأبواب والنافورات وتتخذ شكل أفاريز طولية وعرضية أو داخل دوائر تنحصر داخل إطارات مربعة الشكل تمتد فى مساحات واسعة متناظرة ومتماثلة وتدور على جدران القاعات بحيث لا يخلو جزء من الجدران من النقوش الشعرية بين التوريقات النباتية والزخارف الهندسية المتعددة الأشكال والأنواع. ■

خالد عزب



قصور الحمراء
ديوان العمارة والنقوش العربية
دكتور محمد الجمل
مركز الخطوط - مكتبة الإسكندرية

آسيا..

السيد أمين شلبى

■ ■ كيشور محبوبانى Kishore Mahbobani هو دبلوماسى سنغافورى عمل لمدة ثلاثة عشر عاما مندوبا دائما لبلاده فى الأمم المتحدة بنيويورك، وهو يعمل الآن مديرا لمعهد لى كوان يو للعلاقات الدولية فى سنغافورة، وقد أتاحت له فترة عمله الطويلة فى الولايات المتحدة فرصة أن يعرف ويدرس عن قرب المجتمع والنظام الأمريكى، وهو ما كرس له كتابه Beyond the Age of Innocence, Rebuilding the first between America and the world,٢٠٠٦ غير أنه مع متابعته للمسرح الأمريكى كان طبيعيا أن يتابع أيضا التطورات فى آسيا وهو ما جعله يصدر كتابه Can Asians Think? ثم يتابع تحولاتها وعلاقاتها بموازين القوى فى العالم وهو الموضوع الذى احتل كتابه الذى صدر منذ شهور والذى يتنبأ فيه بتحول ميزان القوى العالمية من الأطلنطى إلى الشرق الأقصى والكتاب تحت عنوان The New American Hemisphere: The irresistible shift of Global Power to the East وهو يبدأ من مقدمة أن صعود الغرب قد حول العالم وصعود آسيا سوف يأتى بتحول هام مماثل، وعلى هذا فإن السؤال المحورى الذى يناقشه الكتاب، إلى جانب قضايا أخرى متصلة، هو لماذا صعدت آسيا؟ فى إجابته عن هذا السؤال يشير الكاتب إلى أن صعود الغرب حدث بسرعة شديدة خلال المائتى عام الماضية، وكان لآسيا التى تمتلك أكبر نصيب من السكان، أعظم نصيب من الاقتصاد العالمى، وفى ضوء هذا فإننا لا نندهش من الدراسات التى تقول أنه مع عام ٢٠٥٠ فإن ثلاثة من أعظم أربعة اقتصادات فى العالم سوف تكون آسيوية وبهذا الترتيب: الصين، الولايات المتحدة، الهند واليابان.

The New Asian Hemisphere, The Irresistible Shift Of Power To The East

آسيا الجديدة: القوة تتحول الى الشرق

Kishore Mahbubani
Public Affairs, Newyork 2008

ويعتبر محبوبانى أن صعود الغرب قد حول العالم وصعود آسيا سوف يأتى بتحول هام مماثل، وعلى هذا فالكتاب يناقش لماذا تصعد آسيا الآن؟ وكيف ستتغير العالم ولماذا سوف يواجه الغرب صعوبات ضخمة فى التكيف مع هذه التغيرات كما يقترح بعض التوصيات لإدارة هذه التحديات الجديدة التى تنتظرنا.

ويعتبر الكتاب أن صعود آسيا سيكون أمرا طيبا للعالم، فإن مئات الملايين من الشعوب سوف ينقذون من أغلال الفقر، وقد خفض تحديث الصين بالفعل عدد الصينيين الذين يعيشون من ٦٠٠مليون إلى ٢٠٠ مليون، كذلك فإن صعود الهند له نفس التأثير الهام، وبكل المعايير فإن صعود آسيا يحقق الكثير من الخير للعالم. ويشير الكاتب إلى دعوة روبرت زوليك، المدير المالى للبنك الدولى، فى سبتمبر ٢٠٠٥ دعوته للصين أن تصبح «شريكا مسئولا» responsible stakeholder فى النظام الدولى، ومنذ هذا الوقت استجابت بشكل إيجابى لهذه الدعوة، وحقا فإن معظم الأسيويين يريدون أن يصبحوا شركاء مسئولين فى النظام الدولى، وتدلل الحقب الأخيرة أن الأسيويين قد أصبحوا من أكبر المستفيدين من النظام المتعدد المفتوح،



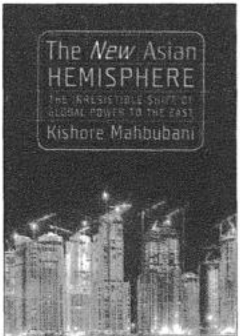
هل سيصبح القرن الواحد والعشرون انتصارا تاريخيا للغرب أم هزيمة تاريخية؟

وعلى هذا فإن قلة من الآسيويين اليوم هم الذين يريدون هز استقرار النظام الذى يساعدهم. والأنباء الطيبة للعالم حقا أن تحديث آسيا بدأ ينتشر إلى كافة أركان القارة. وقد بدأت العملية بالنموذج الذى قدمته اليابان ثم قلدتها النمور الاقتصادية الأربعة : كوريا الجنوبية، تايوان، هونج كونج وسنغافورة، وعندما بدأت الصين تعى أن بلدا على حدودها تفعل افضل منها، قررت أن تلحق بهم بإطلاق «برنامج التحديثات الأربعة »، وعلى مدى الحقب الثلاث الأخيرة حققت الصين أسرع نمو اقتصادى فى العالم. وقد ألهم نجاح الصين صعود الهند والآن فإن ملايين الآسيويين يسيرون نحو الحداثة والأخبار الطيبة الأكثر للعالم هى أن المسيرة نحو الحداثة تتجه إلى الدخول فى العالم الإسلامى فى غرب آسيا أيضا وحيث إنه أصبح مسألة وقت فقط أنه من الهند إلى باكستان أيضا ثم إلى إيران بحيث إن كل آسيا سوف يتم تحديثها فى القرن الواحد والعشرين، فإذا حدث هذا فإن إسرائيل لن تكون مركز الحداثة فى غرب آسيا.

فى ضوء هذا يبدو واضحا أن هذا الكتاب الذى كتبه كاتب واقعى يستند على التفاؤل حول دور آسيا فى المستقبل العالمى. من هذا المنظور يعيب الكتاب على الغرب أنهم حين يحدقون فى القرن الواحد والعشرين فإنهم فقط يرون صورا قائمة وليس فجرا جديدا فى تاريخ الحضارة العشرية وهو أمر غريب باعتبار أنه خلال القرون القليلة الماضية كان الغرب هو الذى أطلق مسيرة آسيا نحو الحداثة وعلى هذا كان يجب عليه أن ينتهج لهذا الاتجاه الجديد فى تاريخ العالم وبدلا من هذا فإن العقول الغربية تمتلئ بالخشية والخوف. ويتوقع الكاتب أن آسيا والغرب سوف يتوصلون فيما بعد إلى تفهم مشترك حول طبيعة هذا العالم الجديد، فالحاجة إلى تطوير مثل هذا التفاهم لم يكن أهم مما هو اليوم فنحن ندخل فى أكثر اللحظات طيوعة فى تاريخ العالم، فالقرارات التى نتخذها اليوم سوف تقرر مجرى القرن الواحد والعشرين، وينبه الكاتب إلى أن ٥,٦ بليون من الشعوب التى تعيش خارج نطاق الغرب لن يقبلوا بعد قرارات تتخذ نيابة عنهم فى العواصم الغربية، وعلى هذا

يطرح الكتاب سؤالا مركزيا وهو: هل سيصبح القرن الواحد والعشرون انتصارا تاريخيا للغرب أم هزيمة تاريخية؟ إن الإجابة لا يمكن تقديمها الآن، إنها سوف تعتمد على كيف سوف يكون رد فعل الغرب على صعود آسيا. فعدد الشعوب فى العالم الذين ينشدون حلم الغرب فى وجود مريح للطبقة الوسطى لم يكن أعظم مما هو الآن ولعدة قرون فإن الصينيين والهنود لم يكونوا يأملون فى ذلك، والآن فإنهم يعتقدون أنه فى متناول أيديهم، ومثلهم أن يحققوا ما حققته أمريكا وأوروبا، إنهم يريدون أن يكرروا لا أن يحتلوا الغرب. ورغم أن عالمية الحلم الغربى يجب كذلك أن تكون انتصارا للغرب، ورغم هذا فإن العديد من قادة الغرب يبدأون خطبهم بتسجيل كيف أصبح العالم «خطيرا»، وفى عام ٢٠٠٦ قال الرئيس الأمريكى بوش «إن الشعب الأمريكى يحتاج أن يعرف كيف أننا نعيش فى عالم خطير» وقد قدم قادة غربيون آخرون بيانات مشابهة. وعلى الرغم من اعتقاد الغرب أن الشعوب تتقدم حين لا تكون واقعة فى شرك الأيديولوجية، فإن فى فترة ما بعد الحرب الباردة أصبح الغرب كيانا مدفوعا بالأيديولوجية.

وأحد الأسباب التى تفسر لماذا يتردد الغرب لأن يحتفل بديمقراطية الروح البشرية، فلأنه يدرك أنه إذا ما استمر هذا الاتجاه فإن يوم الحساب سوف يأتى. وبتجميع روح الديمقراطية لقوتها، ويبدأ



المزيد من الشعوب فى امتلاك مصيرها، فإنهم سوف يتساءلون بشكل متزايد عن النظام العالمى غير الديمقراطى الذى يعيشون فيه.

ويستخلص الكاتب أن تردد العقول الغربية القائدة فى الاعتراف بعدم إمكان استمرار السيطرة الغربية العالمية إنما يمثل أكبر خطر على العالم. وعلى المجتمعات الغربية أن تختار ما إذا كانت سوف تتراجع عن القيم الغربية أو المصالح الغربية فى القرن الواحد والعشرين، وتفضل معظم العقول الغربية أن يعتقدوا انهم يروجون أولاً للقيم الغربية وفى مقدمتها الديمقراطية ولكن معظم العالم يلاحظ كيف يروج الغرب الديمقراطية بشكل انتقائى فليس هناك مجتمع شغوف بالترويج للديمقراطية فى السعودية خوفا من تهديد إمدادات البترول للغرب مثلا. فى سياق علاقة الغرب بالصعود الأسيوى وكيفية فهمه لها يعبر الكاتب عن يأسه عندما يقرأ فى افتتاحيات صحف مثل النيوزويك تايمز، وول ستريت جورنال لعقول تعتقد أن ١٢٪ من سكان العالم الذين يعيشون فى الغرب يستطيعون أن يستمروا فى السيطرة على بقية الـ ٨٨٪ الذين يعيشون خارج القرى ويعتقد أن قلة فى الغرب استطاعت أن تستوعب المعانى الكاملة للملمحين الأكثر أهمية لفترتنا التاريخية، الأول هو أننا بلغنا نهاية عهد السيطرة الغربية لتاريخ العالم (ولكن ليس نهاية الغرب الذى سيظل أقوى قوة وحيدة لحقب قادمة)، وأما الملمح الثانى فهو أننا سوف نشهد نهضة ضخمة للمجتمعات الأسيوية، وعلى هذا فإن الخطاب الاستراتيجى فى الغرب يجب أن يركز على كيف يجب على الغرب أن يتكيف، ولكن هذا لم يحدث، وما يزيد الأمور سوءا أن الغرب قد اصبح غير كفء فى تناول العديد من التحديات العالمية ابتداء من تهديد الإرهاب إلى التغير المناخى إلى الإبقاء على نظام منع الانتشار حيا، انعدام الكفاءة هذه بكل ما تحمله من نتائج كارثية يزيد من خطورة إحساس الغرب بعدم الأمن، وعلى هذا ففى اعتقاد الكاتب اننا نتحرك نحو أزمة حقيقية فى إدارة نظامنا العالمى ما لم يغير الغرب طريقه وأن يستوعب الحكمة الصينية التى تجمع ما بين «الخطر» و«الفرصة» فالكثير من العقول الغربية تنظر إلى الخطر، والقلة هى التى ترى الفرص، وعلى هذا فإن الرسالة الرئيسية لهذا الكتاب أن مسيرة أسيا نحو الحداثة تمثل فرصة جديدة أن يتعلم كيف يعمل مع وليس ضد هذه المسيرة، فإن هذا قد يساعد فى جعل القرن الواحد والعشرين واحدا من اسعد القرون فى التاريخ الإنسانى.

ويفصل محبوبانى ما يحدث فى الروح الأسيوية فيعتبر أنه فى قلب الفرصة الأسيوية، وهو غالبا ما يغض النظر عنه، هو تمكين مئات الملايين من الأفراد الذين شعروا من قبل إحساسا كاملا من انعدام القوة فى حياتهم، وبالنسبة له كصبى صغير نشا فى عائلة هندية فى سنغافورة فإنه قد استوعب بشكل طبيعى

تردد العقول الغربية القائدة فى الاعتراف بعدم إمكان استمرار السيطرة الغربية العالمية إنما يمثل أكبر خطر على العالم



الاعتقاد الذى تملك بشكل قوى كثيرا من العقول الآسيوية. إن حياتنا يقررها القدر، ولذلك فإنه من العقم الجهاد أو العمل الشاق فما سوف يحدث سيحدث بقبول الفقر أسهل بكثير إذا كان نتيجة للقدرة ولكن تدريجيا فإن الاعتقاد فى تنمية القدر قد تآكل بفعل التطبيق المتزايد لمبادئ آدم سميث والإحساس بالتمكين الذى خلفته. فحين ينظر العديد من الغربيين إلى الصين فإنهم يعتقدون دمقرطة الروح الجماهيرية التى تجرى فى الصين، فمئات الملايين من الصينيين الذين كانوا يعتقدون أنهم مقضى عليهم بالفقر النهائى يعتقدون الآن أنهم يستطيعون تحسين حياتهم من خلال جهودهم الخاصة.

وأنه لجدير بالملاحظة أن فيلسوفا أخلاقيا إسكتلنديا فى القرن التاسع عشر يستطيع أن يرى بشكل أكثر وضوحا النتائج الأخلاقية لتطبيق مبادئه الاقتصادية أكثر من معظم الاقتصاديين الغربيين المعاصرين وعلماء السياسة. إن القمة الحقيقية لاقتصاديات السوق الحرة ليست مجرد تحسين الإنتاجية الاقتصادية، إنها حول رفع الروح الإنسانية وتحرير عقول مئات الملايين من الناس الذين يشعرون الآن أنهم فى النهاية يستطيعون أن يمتلكوا مصائرهم، وهذا هو السبب فى أن اسيا تسير إلى التعليم وبتحيز كبير للعلم والتكنولوجيا، فكل أب صينى تقريبا يريد أن ينجب اينشاتين وبيل جيتس وكلاهما موضع توقير فى الصين. وكما عبر مؤرخ فى جامعة شنغهاى فإن التاريخ الجديد هو أقل أيديولوجية وهذا يلائم الأهداف السياسية اليوم». وعلى النقيض فإن فى باكستان المجاورة فإن قرابة ١.٥ مليون طالب يعتقد أنهم يدرسون فيما يقدر فى ١٣ ألف مدرسة madrassas دينية. وفى أغسطس عام ٢٠٠٥ فإن المحكمة العليا فى باكستان قد لاحظت أن هذه المدارس لا تزود الطلاب بالتعليم العام الذى يمكن أن يمكنهم لأن يدخلوا فى التيار العام للمجتمع وأن يتنافسوا مع الطبقة المتعلمة من أجل الوظائف أو أهداف أخرى بما فيها الانتخابات.

ويعتبر محبوبانى فى روايته لمسيرة الصين نحو التقدم أن ونج تساو ينج وهو واحد من أعظم المحدثين فى العالم قد أوضح بشجاعة للشعب الصينى مستقبلهم يكمن فى السير نحو الحداثة وقد فتح عيون الشعب الصينى بالسماح للتليفزيون المملوك للدولة أن يطلعوا على مشاهد لبيوت الطبقات الوسطى الأمريكية الواسعة والمريحة والمملوءة بالأجهزة الحديثة وسيارة أو اثنتين فى كل جراج.

وقد أظهر ونج للشعب الصينى العملى أن كل هذا يقع فى متناول أيديهم. وفى الانتقال لتجربة الهند فى الحداثة يصنف محبوبانى التأثير الإنسانى للتحديث من خلال النظر إلى تأثير أداة حديثة على الهند: وهو التليفون المحمول وكيف أنه أحدث ثورة فى الهند، ففى ديسمبر ٢٠٠٦ فقط اشترك ٧ ملايين هندى فى التليفون المحمول فى شهر واحد وهو ما يمثل سجلا عالميا، وتعدت الهند الصين فى ذلك رغم أن الهند مازالت تتخلف عن الصين فى عدد أجهزة التليفون المحمول (١٤٠ مليون مقابل ٤٥٠ مليون)، ويظهر هذا الانتشار للتليفون المحمول فى الهند كيف أن العقل الهندى قد تغير حول الأدوات الحديثة. وفى العقل الغربى فإن بلد آسيويا هى بنجلاديش لها ارتباط تلقائى بالفقر ومع هذا فإن بنجلاديش قد استفادت من انتشار أجهزة التليفون المحمول، ففى عام ١٩٩٣ فإن هذا البلد الذى يتكون من ١٤٢ مليون نسمة كان لديها مجرد ٣ ملايين دولار من الاستثمارات الأجنبية، ولكن كان هذا قبل أن تشهد البلد إطلاق أول شركة تليفون محمول فى عام ٢٠٠٧ اصبح لدى بنجلاديش ٥ شركات تليفون محمول و٢ مليون من الاستثمارات الأجنبية.

ويعيد محبوبانى إلى التأكيد على أن مجرى تاريخ العالم سوف يتقرر برد فعل الغرب تجاه هذه المسيرة الآسيوية المنظمة تجاه التحديث، فأمام الغرب بديلين واضحين فهو يستطيع أن يرقب ويتبنى انتشار التحديث والاستمرار فى العمل مع آسيا فى اتجاه انفتاح النظام العالمى، أما البديل الثالث فهو أن يشعر الغرب بشكل متزايد بالتهديد من نجاح آسيا وأن يبدأ فى التراجع نحو قلعته سياسيا واقتصاديا، ومع ٢٠٠٨ فإن ردود الفعل الغربية كانت؟ كلا البديلين ولكن البديل الثانى كان هو الأقوى، وفى صورة الحماية Protectionism، فكما يقرر مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية، فإن الاتحاد الأوروبى ولجوئه إلى الحمائين إنما يجرد الدول النامية بما يقارب من ٧٠٠ بليون دولار من دخل الصادرات سنويا وهو ما يمثل ١٤ مرة مما تتلقاه الدول الفقيرة من المساعدات الخارجية، وهكذا فإن أساليب الاتحاد الأوروبى فى الحماية هى تراجيديا مستمرة تتسبب فى الجوع والمرض، وهكذا فإن الستار الحديدى بين الشرق والغرب قد استبدل بستار من الجمارك بين الشمال والجنوب.

ويشير محبوبانى إلى روح الانتصارات التى عمت الغرب بعد سقوط الاتحاد السوفيتى ونهاية الحرب الباردة، ويعتبر أن هذا الشعور كان له ثلاث ثغرات من أهمهما هو الاعتقاد بأن الاختلاف فى الثقافات لا يهم باعتبار أن الليبرالية الغربية يمكن تطبيقها فى كل مكان، وأن المجتمعات المسيحية والمسلمة والمجتمعات الكونفوشية والهندوسية مستعدة بشكل متساوى للديمقراطية الليبرالية وأن يعلموا أن الحق فى حرية التعبير ليس مطلقا لا فى النظرية ولا فى التطبيق فى معظم المجتمعات الغربية فثمة موضوعات كثيرة لا يمسها الساسة الغربيون خوفا من نتائجها السياسية ولكن طبعا فإنهم لا يخافون من السجن وإنما فقط من النفى إلى البيداء السياسية.

ويستخلص محبوبانى إلى أنه سيكون من الحكمة للغرب أن يتوقف عند أن يجرى خطوطا حادة بين المجتمعات «الحرة» و«غير الحرة»، فالشعب الصينى لم يكن يوما أكثر حرية ففى عدد من الأعمدة التى نوقشت من قبل فإنهم أكثر حرية مما كانوا فى يوم من الأيام، وبالنسبة لأسلافهم فإنهم أكثر حرية مما شهدته الصين من قبل وحين ينظرون إلى المستقبل فإنهم واثقين ومتفائلين أن الأمور سوف تتحسن فهل يستطيع الغرب أن يقول نفس الشىء؟ إن معظم الغربيين وهو ينظرون إلى المستقبل فهم يصبحون أكثر تشاؤما فلديهم خوف حقيقى أن بعض حرياتهم سوف تتضاءل، فمحاطون ببحر من الغضب فى العالم الإسلامى ومدن أوروبية تصبح هدفا للضربات الإرهابية، فإن إحساسهم بالأمن الشخصى قد تضاءل وبصعود الصين والهند فإن معظم الأوروبيين الشباب يخشون أنهم لن يستطيعوا أن يتنافسوا حول الوظائف ضد أقرانهم الصينيين والهنود وبدلا من أن يروا أنفسهم يعيشون فى بيئة غنية ومريحة، فإن العديد من الشباب الأوروبى بدأوا يحسدون الصينيين والهنود الذى يبدو مستقبلهم مضيئا بشكل أكثر. فى ضوء هذا فإن الحكماء والجمهور فى الغرب يحتاجون أن يبدأوا فى التفكير فى بعض الأسئلة المختلفة لكى يحسنوا فهمهم للصين، ومن النماذج الجيدة هى قضية الإصلاح السياسى، ولكى نكون واضحين فإن انتخابا متعدد الأحزاب لم يجر ولا هو من المحتمل الحدوث فى المستقبل القريب ولكن هذا لا يعنى أن التغير السياسى لا يجرى على أساس يومى، فإصلاح الحكم إن لم يكن إصلاحا سياسيا منتظما، قد صاحب الإصلاح من اليوم الأول وكان له نتائج سياسية حتمية.

وعند محبوبانى أن المجتمعات الآسيوية لا تنجح الآن لأنها إعادة اكتشاف بعض جوانب القوة الخفية للحضارات الآسيوية ولكنها تنجح الآن لأنها وعبر عملية مؤلمة فإنها قد اكتشفت أخيرا أعمدة الحكمة الغربية التى قام عليها التقدم الغربى ومكنت الغرب لأن يتعدى أداء المجتمعات الآسيوية خلال المائتى عام الماضية، والشىء الذى يثير الدهشة انه ليس لان الصين ولا الهند تصعد بسرعة كبيرة ولكن (مع الكثير من المجتمعات

مجرى تاريخ العالم سوف يتقرر برد فعل الغرب تجاه هذه المسيرة الآسيوية المنظمة تجاه التحديث

مادام كل فرد في المجتمع هو مصدر كامن فإن الجميع يجب أن يعطوا فرصة متكافئة

الأسيوية) قد اكتشفت هذه الأعمدة بشكل متأخر جدا. وقد اندفعت اليابان أمام بقية آسيا لأنها فهمت رسالة النجاح الغربي قبلها بمائة وخمسين عاما تقريبا.

وفي عام ١٨٦٠ فإن مجموعة من الإصلاحيين في عهد ميجي - والتي كانت مصممة لإنقاذ اليابان من مصير الاستعمار الغربي أو الهيمنة التي غمرت معظم آسيا، أبحروا إلى كل المجتمعات الغربية القائدة لكي تعيد اكتشاف أفضل تطبيقات الغرب، وقد تعلم اليابانيون بشكل جيد، فقد وجدوا - كم وجدت النمور الأربعة بعد قرن- أن هناك على الأقل ٧ أعمدة للحكمة الغربية التي يمكن أن يكون لها تأثير أقرب إلى الأعجوبة على مجتمعاتها، وكان كل عمود يدعم الآخر، كانت هذه الأعمدة السبعة هي: العمود الأول في تقدير محبوباني هو الأخذ باقتصاديات السوق وكانت الصين هي أفضل معمل لدراسة تأثير مبادئ السوق الحرة: ففي النصف الثاني من القرن العشرين طبقت الصين بقوة متساوية كلا من النماذج المتقدمة للنمو الاقتصادي، والتخطيط المركزي واقتصاديات السوق الحرة، وحين كسب ماوتسي تونج السيطرة الكاملة على الصين عام ١٩٤٩ فقد طبق بقوة كبيرة نموذج التخطيط المركزي الذي تعلمه من الاتحاد السوفيتي ولم يكن هذا فشلا كاملا فالنظام السياسي الذي قدمه ماو للصين بعد قرن من الغليان السياسي أدى إلى زيادات في كل من الإنتاجية الزراعية والصناعية غير أن السخرية الكبيرة لتاريخ الصين الاقتصادي هي أن الصين قد اختبرت القفزة الكبرى إلى الأمام ولكن فقط بعد أن هجرت مبادئ ماو في التخطيط المركزي وإدخال اقتصاديات السوق الحرة، وكثير من الناس قد علموا عن نمو الصين المدهش ولكن القلة قد فهمت فعلا المعدلات المتفجرة التي نما بها الاقتصاد الصيني.

أما العمود الثاني من أعمدة «الحكمة الغربية» التي استوعبها الأسيويون فهي العلم والتكنولوجيا، ويفسر تحرير الروح الإنسانية في آسيا لماذا يستوعبون بشغف عظيم هذا العمود الثاني، فحتى القرنين السابع والثامن عشر كان التقدم الأسيوي العلمي على قدم المساواة تقريبا مع أوروبا ثم الاندفاعات الضخمة من الإبداع في حقول العلم والتكنولوجيا تقدمت أوروبا إلى الأمام، وعبر القرنين الماضيين تطور اقتناع قوي في العالم أن العقل الغربي مهيأ بشكل فريد لكي يتفوق في العلم والتكنولوجيا ولا يعرف تماما لماذا قفز الغرب إلى الأمام ولكننا نعلم بعض أسباب لماذا تراجعت آسيا إلى الخلف: إطار عقلي يزدري العالم المادي، وافتقار إلى الاعتقاد في فكرة التقدم الإنساني، وخضوع طبيعي للسلطة وافتقار للتساؤل النقدي، وبدت الفجوة بين العقل الغربي والعقل الأسيوي أبدية. ولهذا فإنه من المذهل أن نرى الدرجة التي سيطر بها الأسيويون في العلم والتكنولوجيا، فالعقل الأسيوي كان يبدو معوقا في هذا المجال قد اندفع بشكل غامر نحو العلم والتكنولوجيا، وفي أكتوبر ٢٠٠٦ حملت مجلة تايم موضوعا عن «تجربة آسيا العظيمة في التجربة العملية»، وحيث تنبأ أحد الحاصلين على جائزة نوبل في الكيمياء بأنه مع ٢٠١٠ سيكون ٩٠٪ على درجة الدكتوراه في العلوم والهندسة يعيشون في آسيا، فإذا ما تحققت هذه النبوءة فإنها سوف تمثل تحولا ضخما في الخبرة العالمية في العلم والتكنولوجيا كما تضمنت المقالة فإن الأمم الأسيوية زادت إنفاق حكوماتها على العلوم : فما بين ١٩٩٥- ٢٠٠٥، فإن الصين قد ضاعفت نسبة مجموع الناتج القومي في البحوث والتنمية حيث ارتفعت من ٠,٦٪ إلى ١.٣ بينما ارتفع إنفاق كوريا الجنوبية من ٩.٨ بليون دولار أمريكي إلى ١٩.٤ بليون عام ٢٠٠٤، مثل هذا الاستثمار الضخم قد جذب العديد من الباحثين الأسيويين من الغرب إلى أوطانهم في الوقت الذي ركدت فيه ميزانيات العلم في بعض البلدان الغربية بل وانخفضت. وقد كان الانفجار الأسيوي في العلوم والتكنولوجيا نتيجة لبعض القرارات الحكيمة اتخذت منذ عدة حقب، فقد كان رئيس الوزراء الهندي السابق جواهر لال نهرو لامعا وله جاذبية القائد الذي ساعد في تأسيس أول معهد هندي IIT في طارجابور قرب كلكتا عام ١٩٥١ ثم تطورت ٦ معاهد أخرى بعد ذلك في عدد من المراكز وكان القبول في هذه المعاهد يقوم فقط على أساس الجدارة. وباعتبار هذا التجمع للموهبة في الهند، وحيث كان يقبل واحد من كل ٥٠ طلبا في IIT فإن هذا يؤكد أن هذا المعهد قد انتهى إلى تجميع افضل تجمع للموهبة يوجد في أي مكان في العالم. ويعتبر IIT أن الامتحان فيه هو من أكثر المعاهد تشديدا في القبول في العالم، وهو الذي جعل بعض البرامج التلفزيونية تعتبره «أهم جامعة قد سمعت عنها»، وذهبت إلى أن «ضع هارفارد وبرنستون معا فسوف تبدأ في تكوين فكرة عن هذا المعهد في الهند». وهذا النجاح الذي نما من الداخل يوحي أن النمو «السحري» الذي دفع بالعلم الغربي والبحث التكنولوجي إلى الأمام في القرون القليلة الماضية قد تغلغل الآن في النسيج الثقافي الأسيوي، ولم يعد الأسيويون الآن يعتقدون أنهم أدنى من الغرب في العلوم والبحث التكنولوجي، انهم يعتقدون إنهم يستطيعون أن يحققوا بأنفسهم ما يوازي ما حققه الغرب.

وتمثل الجدارة Meritocracy العمود الثالث في النهوض الأسيوي وهو مبدأ بسيط بشكل مدهش، فهو يعتبر أنه مادام كل فرد في المجتمع هو مصدر كامن فإن الجميع يجب أن يعطوا فرصة متكافئة لتطوير وتقديم إسهام للمجتمع وعلى هذا فإن أي موهبة يجب الا تهمل، وحقا فإن كل المنظمات البشرية تتقدم تقريبا لأنها تطبق مبدأ الجدارة بشكل قوي. وقد بدأت الصين في استخدام المصادر البشرية المتاحة في قاع المجتمع قبل الهند بكثير وقد تكون ثورة ماو قد فشلت في عدة طرق، ولكن ثمة مجالا واحدا نجحت فيه ثورته، فقد دمرت العقل الإقطاعي الذي أربك المجتمع الصيني حتى في بداية القرن العشرين، فقد بث في الأباء الأسيويين إحساسا ضخما من الكبرياء والمواطنة المتساوية، وبعد ماو فقد توقفوا عن الاعتقاد انهم بشكل طبيعي في مستوى أدنى، وحين قدم دنج الثورة الاقتصادية مع إدخال اقتصاديات السوق، فإن أحد أسباب لماذا انطلقت الصين بهذه السرعة كان هو أن الثورة الاجتماعية التي أطلقها ماو قد حطمت الحواجز الطبقية نحو التقدم وهكذا أصبح الصينيون من كل الطبقات الاجتماعية راغبين ولديهم الدافع للتحرك إلى الإمام، وقد تعلمت الصين عدة دروس من انهيار الاتحاد السوفيتي، واحد هذه الدروس هو أنه سيكون قاتلا ملأ الصفوف القائدة في الحزب بعاملين من كبار السن الذين كانوا يستمرون حتى الموت فمثل هؤلاء فسوف يصبحون عوائق أمام التغيير والتجديد.

أما العمود الرابع للنهضة فهو البرجماتية Pragmatism، فقد كانت اليابان أول بلد في التحديث لأنها بملاحظة أوروبا وهي تستعمر معظم العالم، فقد تحققت بسرعة أن عليها أن تغير وأن تتكيف، وقد كان إصلاحيو عهد الميجي ناجحين بشكل بارع في تطبيق أفضل الممارسات الغربية وبزغت اليابان بسرعة كقوة كبرى، وبنهوضها السريع فقد هزمت الصين عام ١٨٩٥ وروسيا عام ١٩٠٥ وأصبحت البلد الأسيوي الأول في هزيمة قوة أوروبية خلال قرون، فلماذا نجحت اليابان في تطبيق افضل الممارسات الأوروبية؟ هنا أيضا إجابة بسيطة وهي أن اليابان كانت براجماتية بشكل كامل، فقد تعاملوا مع تحدي تحديث اليابان بدون مفاهيم أيديولوجية وأن يأخذوا أفضل الممارسات الغربية من أي بلد ومستعدون لأن يخلطوا ويسايروا أفضل التطبيقات بطريقة انتقائية وبنفس الروح البرجماتية.

ويقول محبوباني انه باعتبار أنه عاش في أسيا في العقود السابقة فإنه لا يساوره أي شك أن روح البرجماتية والتي تشربتها اليابان في ١٨٦٠ قد انتشرت الآن بعيدا وعريضا في المنطقة، وقد شرح الدكتور مهاتير سياسته الاقتصادية البرجماتية في ماليزيا بقوله إن ماليزيا يجب أن تتبنى سياسته «نظرة إلى الشرق»، وأن تتعلم

قد تكون ثورة ماو قد فشلت في عدة طرق، ولكن ثمة مجالا واحدا نجحت فيه ثورته، فقد دمرت العقل الإقطاعي الذي أربك المجتمع الصيني حتى بداية القرن العشرين



من اليابان وكوريا الجنوبية. وبشكل مشابه، وفى عام ١٩٩١ وحين هوجم مانموهان سنج وزير مالية الهند آنذاك أنه بسماحه للاستثمارات الأجنبية سوف يجعل من الهند تابعة للولايات المتحدة رد قائلا إن قدرة سنغافورة على تحدى رغبات الحكومة الأمريكية فى عدة مجالات (رغم حصولها على أعلى نسبة من الاستثمارات الأجنبية) أظهرت أن القبول البرجماتى للاستثمارات الأجنبية لم يعن فقدان الاستقلال السياسى.

أما العمود الخامس الذى قامت عليه آسيا صعودها فهو ما يسميه محبوبانى صمت المدافع فى المنطقة وهو ما استوعبته آسيا من الحكمة الغربية. فثقافة السلام قد أثرت فى العلاقات بين الأمم الغربية منذ نهاية الحرب الثانية، وباعتبار مئات السنوات من الحروب بينهم، فإنه من الأمور المثيرة أن كل الدول الغربية قد وصلت إلى قمة الإنجاز الإنسانى: ليس فقط نقطة الصفر فى الحروب ولكن نقطة الصفر فى احتمالات الحرب بين اثنين من الأمم الغربية، والعالم يأخذ هذا الإنجاز باعتباره من الأمور المسلمة فى الوقت الذى فيه يندر الاعتراف بأن هذه هى أحد أكثر الإنجازات تأثيرا فى التاريخ البشرى. ومن الأمور التى تثير الدهشة أنه بينما كان الغرب قانعا بالتبشير بفضائل الديمقراطية، وحقوق الإنسان واقتصاديات السوق الحرة لبقية العالم فإنه نادرا ما يذكر شرط السلام الذى حققه. وباعتبار أن أهم قوة صاعدة فى آسيا وفى العالم هى الصين، ويعتقد العديد من المفكرين الاستراتيجيين فى العالم يتملكهم الخوف من بروز الصين كخطر عسكرى، وربما كان هذا ممكنا ولكنه من الواضح أيضا أن هذه ليست رؤية القادة والمثقفين الصينيين.

لقد تعلمت الصين من النموذج الإيجابى والنموذج السلبى للاتحاد السوفيتى والذى تفجر لعدة أسباب من بينها قرار التركيز على التطور العسكرى بدلا من التطور الاقتصادى، وقد قررت الصين أن تفعل العكس تماما. ولم تكن الدروس التى تعلمتها الصين حول الحرب والسلام فى العالم المعاصر لم تكن هى السبب الوحيد ففى الوقت الذى كانت المدافع قد صممت فى شرق آسيا، فقد برز لاعب حاسم بشكل غير ملحوظ تقريبا وهو الاسيان ASEAN، فمثل الاتحاد الأوروبى EU فقد أنشئ للترويج للتعاون الإقليمى. وإذا كان الاتحاد الأوروبى متقدما بخطوة على الاسيان منذ أن حقق نقطة الصفر فى احتمالات الحرب، ولكن هناك على الأقل بعد واحد التى تتقدم فيها الآسيان على الاتحاد الأوروبى وهو الدبلوماسية. فى هذا الحقل فإن الأسيان تعتبر قوة أعظم superpower أما الاتحاد الأوروبى فهو قوة صغرى minipower ومع نهاية الحرب الباردة فإنه إذا كانت التنبؤات قد جرت حول ما إذا كانت الحرب أكثر احتمالا فى البلقان عنها فى آسيا فإنه ليس هناك شك فى أن المفكرين الاستراتيجيين البارزين كانوا سيتنبأون بالحرب فى آسيا. ومع هذا فإن العكس قد حدث فقد فشل الاتحاد الأوروبى بينما نجحت الأسيان.

ويمثل حكم القانون Rule of law العمود الثالث للحكمة الغربية الذى تبنته آسيا. ففكرة حكم القانون والذى يقف بمقتضاه جميع المواطنين سواء أمام القانون تقف فى العقل الأسيوى ضد ميول الشخص الفطرية. فمعظم الأسيويين عبر القرون قد افترضوا أن الطبقات الحاكمة وخاصة أعضاء العائلات المالكة والأرستقراطية يقفون فوق القانون وحقا فى عقول الطبقات الحاكمة فإن الوظيفة الوحيدة للقانون هى أن تمكنهم بجعل رعاياهم يلتزمون بالنظام. وعلى العكس بالنسبة للعقل الغربى فإن حكم القانون هو أن يحمى المواطن من الاستخدام التحكمى لسلطات الحكومة وهى التطبيق المحدد لقيمة محبوبة وهى قيمة العدالة. والآن فإن الأسيويين يتحولون إلى حكم القانون ليس لأسباب أخلاقية ولكن فى المقام الأول لدواعى وظيفية. وافضل مثل على ذلك يقدمه قوانين المرور فالتوقف عند الأنوار الحمراء ليس لأسباب أخلاقية ولكن لأنه من الأكثر أمانا أن تفعل ذلك، ويفهم معظم الآسيويين الآن أن طاعة حكم القانون يجب أن يأتى بشكل طبيعى مثل طاعة قواعد المرور فإذا لم يفعلوا فسوف يفشلون لإقامة اقتصاد حديث والذى يمكن أن يعمل فقط إذا ما قدم القانون أساسا يستطيع الناس من خلاله أن يصنعوا اتفاقيات بالثقة فى أن هذه الاتفاقيات يمكن أن تطبق بعدل وفعالية. وتبرهن الصين على هذا بوضوح فالاندفاع فى إقامة نظام قانونى فى الصين يفترض من المفاهيم الغربية مدفوع فى المقام الأول بضرورات اقتصادية، ففى الوقت الذى فضلت فيه الصين اقتصاد السوق على النظام السابق لنظام التخطيط أصبحت القوانين حيوية بشكل متزايد لتنظيم نشاطات الصين الاقتصادية.

ويختتم محبوبانى سرده لأعمدة الحكمة السبعة التى تبنتها آسيا بالتوقف عند التعليم. فالأسيويون قد تبنوا فضائل التعليم الغربى لوقت طويل رغم أن فضل التعليم يصل للجماهير هى ظاهرة حديثة نسبيا.

وهكذا يتضح لنا كيف أنه فى الوقت الذى يتحمس فيه محبوبانى للصعود الأسيوى واعتقاده بتحول مركز القوة العالمى إلى آسيا، إلا أنه يتحمس بنفس القدر للاعتقاد بأن ما أسماه «بالحكمة الغربية» واستيعاب الأسيويين لها، كانت الأساس فى هذا الصعود، وإن كان لا يعطى وزنا كبيرا لاعتبار أنه مع اخذ الأسيويين بمقومات التقدم الغربى إلا أنهم ظلوا إلى حد كبير محتفظين بهويتهم وقيمهم الثقافية، وأن دولة كبرى مثل الصين رغم أنها أخذت بقدر كبير من اقتصاديات السوق إلا أنها ظلت مبقية على عناصر التخطيط المركزى ومراعاة الأبعاد الاجتماعية فى عملية النمو. كذلك يلاحظ أن محبوبانى فى عرضه لعناصر القوة يتغافل عن القوة العسكرية التى ستظل الولايات المتحدة متفوقة فيها ولعدة عقود قادمة.

وهكذا يتضح لنا حماس محبوبانى للصعود الأسيوى وتأكيده على علاقات القوى فى العالم وإن كان يعتبر أن ما نسميه «بالحكمة الغربية» وعناصرها من اقتصاد السوق، واحترام القانون، والعلم، وحقوق الإنسان وتبنى آسيا فى عملية صعودها لهذه الحكمة كانت السبب الرئيسى وراء عملية الصعود. غير اننا نعتبر أن محبوبانى يتجاهل عددا من التحفظات منها ما أورده خبير فى الشئون الأسيوية : بيل اموت Bill Emmot رئيس التحرير السابق لمجلة الإيكونوميست البريطانية فى كتابه الأخير: Rivals, How the Power struggle between China, India, and Japan will Shape our Next Decade وهو ما يوحى بإمكانيات الصراع والتنافس بين هذه القوى والكيانات الأسيوية الكبيرة حول الأسواق والموارد والمزايا الاستراتيجية مما يجعل الصين واليابان والهند يتحفزون ضد بعضهم البعض لأن مصالحهم القومية الآن تتداخل، وفى جزء منها تتنافس، لأن كلا منها تشكك فى دوافع الأخرى ونواياها ولأن القوى الثلاث يأملون فى شق طريقهم فى كل من آسيا وبشكل أكثر اتساعا. وبكل ما يتبعه هذا على فرص الاستقرار والتعاون فى القارة، هذا إذا أضفنا النزاع الطامن المتكرر بين بلدين آسيويتين نوويتين هما الهند وباكستان، وكذلك البرنامج النووى لكوريا الشمالية الذى يخيم على جيرانها وخاصة اليابان وكوريا الجنوبية.

ويعتمد محبوبانى فى تفسيره للصعود الأسيوى على النمو الاقتصادى الذى تحققه قوى أسيوية على أخذها باقتصاديات السوق من ناحية، وتبنيها للقيم الغربية من ناحية أخرى وعلى الرغم من أن هذا التفسير فيه جانبا من الحقيقة إلا أنه يتجاهل بعض الحقائق ومنها ما يعترف به الصينيون أنفسهم من أن عملية النمو تتضمن عددا من الثغرات الاقتصادية والاجتماعية مثلما طغى من فوارق طبقية بين فئات المجتمع الصينى وبين المناطق الريفية والحضرية الصينية. أما على مستوى القيم الثقافية فإنه على الرغم مما أدخله الزعيم ونج تشاونج من تغيير فى نظرة الصينيين وتقديمه النموذج الأمريكى إليهم، الآن القادة الصينيون يتمسكون على صبغ عملية النمو واقتصاديات السوق بالصبغة والخصائص الصينية، وهو ما ينطبق على التجربة اليابانية إذ مازالت القيم الثقافية التقليدية من مقومات النهضة اليابانية. ■

يفهم معظم الآسيويين الآن أن طاعة حكم القانون يجب أن تأتى بشكل طبيعى

فكرى أندراوس



الصين!

بلد تعداده ١,٣٢ بليون، به ٥٠ أقلية، سبع لغات، ٨٠ لهجة

لعلى أبدأ هذا المقال باثنتين من أكثر النكت شيوعا بين المهتمين بشئون الصين. تقول الأولى: من الممكن أن تقول ما تشاء عن الصين ولكن غالبا ستكون مخطئا. أما الثانية فتقول: من الممكن أن تقول ما تشاء عن الصين دون أن تكون مخطئا. بلد تعداده ١.٣٢ بليون، لاختلاف بيئته الجغرافية وطبيعة شعبه، به ٥٠ أقلية، سبع لغات، ٨٠ لهجة، ديانته الأساسية بوذية وإن اختلفت كثيرا خصوصا فى منطقة التبت، الداوزم والكونفوشيوسية هى فلسفة حياة وإن كان البعض يعتبرها أديانا، بها أقلية إسلامية تعود لعصر عثمان بن عفان تعدادها ما بين ٤٠ إلى ٧٠ مليونا. ولكل ذلك فالصين مرتع لكثير من التناقضات والآراء. لعلى أوفق فى أن ينتمى هذا المقال للواقع الصينى بقدر الإمكان وبدون مغالاة أو انحياز. لقد اعتمدت على آراء الكثير من المتخصصين فى شئون الصين بالإضافة لقضاء شهر متجولا وملاحظا.

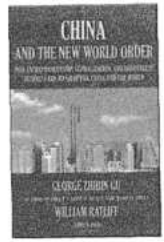
الصين التى استضافت الدورة الأوليمبية الأخيرة بلد أذهل العالم، كان ترتيب الصين فى الدورة الأولمبية لسنة ١٩٩٦ فى المركز الرابع ثم أصبحت فى المركز الثالث فى دورة سنة ٢٠٠٠، ثم فى دورة ٢٠٠٤ كان ترتيبها الثانى بعد الولايات المتحدة. فى الدورة الأخيرة نالت الصين ٥١ ميدالية ذهبية بينما حصلت الولايات المتحدة على ٣٦ ميدالية ذهبية. مجموع الميداليات التى حصلت عليها الولايات المتحدة ١١٨ ميدالية بينما حصلت الصين على ١٠٧ ميداليات وكانت إنجلترا فى المركز الثالث بحصولها على ٧٠ ميدالية.

ما حدث فى الرياضة فى الصين يحدث مثيل له فى مجالات أخرى كثيرة. الصين أذهلت العالم أيضا بتفوقها الاقتصادى الهائل وبتناقضها الايدولوجى. لم ير العالم دولة حققت هذا التقدم المذهل فى مثل هذه الفترة البسيطة من قبل. غالبا ما يكون التقدم الاقتصادى السريع مصحوبا بقلقلة اجتماعية وإنه لأمر طبيعى أن يحدث هذا فى الصين. ولكن الحكومة وحتى الآن مسيطرة تماما على أمور هذا الشعب العريق والذى قال عنه ابن خلدون «أهل الصين أعظم الأمم إحكاما للصناعات وأشدهم إتقانا فيها».

المنتجات الصينية أصبحت تغزو كل ركن من أركان الأرض. دخل الصين فى العام قبل الماضى (٢٠٠٧) ١.٢ تريليون دولار. الصين تخلق مئات الألوف من فرص العمل كل شهر. لقد رفعت الصين منذ بداية الانفتاح فى أواخر سبعينيات القرن الماضى، دخل ٤٠٠ مليون صينى إلى ما فوق خط الفقر. الصين الآن بها حوالى ٢٠٠٠ مليونير وعدد المليارديرات لا يفوقه سوى عددهم فى أمريكا. ولكن ما زالت بالصين أعداد هائلة تعيش تحت خط الفقر.

لا تكتفى الصين بغمر الأسواق بمنتجاتها الرخيصة، بل أصبح لها نفوذ فى كثير من البلاد القريبة والبعيدة. فى أنجولا مثلا

الصين!







يوجد ٢٢٠٠٠ صينى يشيدون المدارس والمستشفيات والسكك الحديدية والمصانع ويعملون فى قطاع البترول. إنهم يعملون سبعة أيام فى الأسبوع. الصين قدمت لأنجولا قروضا قدرها ٤ بلايين دولار. ما يقال عن الصين فى أنجولا يقال عن بعض الدول الأفريقية الأخرى. الصين تتعامل مع الحكومات دون أن تفرض سيطرتها كما يحدث مع الغرب وخصوصا الأمريكى. ولكن هذا قد يتغير مع تغير موازين القوى العالمية. فى كمبوديا تشيد الصين مصنعا كل شهرخلال العامين الماضيين . إنها أهم دولة تساهم فى تنمية كمبوديا فى غياب يكاد يكون شبه تام للدول الغربية. الصين الحديثة يتسع نفوذها فى جنوب شرق آسيا بينما يتقلص النفوذ الأمريكى الحقيقى. تستورد الصين الكثير من البترول وبعض المواد الخام والمحاصيل. من البرازيل مثلا تستورد الصين فول الصويا بثلاثة بلايين دولار فى العام.

هناك أمثلة عديدة للوجه المضىء للصين الحديثة ولكن هناك صراعات أيديولوجية واقتصادية واجتماعية يطفو بعضها على السطح ويحاول النظام أن يجد لها حلولا . هناك مقولة صينية تقول إن العالم كله ينتفع من المنتجات الرخيصة التى تقدمها الصين ما عدا عمال الصين وفلاحيها (٦٠٪ من الصين ما زالوا فلاحين فقراء). لماذا استمرت الحكومة الشيوعية فى الصين رغم أن أغلب الحكومات الشيوعية اختفت؟ هل هى حقا حكومة شيوعية؟ ما هو مستقبل الشيوعية فى الصين؟ كيف تحولت الصين من عصر ماوتسى تونج إلى الوقت الحالى . ما هو تأثير دخول رجال الأعمال فى الحزب الشيوعى على مستقبل الحزب وعلى الديمقراطية؟ هل ستؤدى التجربة الصينية فى الانفتاح الاقتصادى إلى اشتراكية مثالية أم ستتحول إلى نظام رأسمالى يشابه النظام الأمريكى حيث يتحكم المال فى السياسة؟ ما هى طبيعة العلاقات الاقتصادية الصينية الأمريكية؟ هناك الكثير من المراهنات والتنبؤات وسأتعرض لبعض من ذلك فى هذا المقال.

[١]

الصين على امتداد تاريخها لم يدخلها مستعمر إلا فى منتصف القرن الثامن عشر عندما ابتدأت الثورة الصناعية فى أوروبا وتبعها نفوذ استعمارى أوروبى غزا أو تحكم فى أغلب العالم. دخل الغرب الصين كتجار للشاى والحرير. ثم اكتشفوا الأفيون وروجوا تجارته. كان الأفيون معروفا على نطاق ضيق فى الصين أدخله التجار العرب من تركيا بداية من القرن السابع بكميات بسيطة وكانت تستخدم أساسا للعلاج. أصبحت تجارة الأفيون ما بين الهند والصين التى قادها الأوروبيون وخصوصا الإنجليز هى التى مولت تجارة الشاى والحرير. لتأمين تلك التجارة الرابحة كانت حرب الأفيون الأولى سنة ١٨٤٣ والثانية سنة ١٨٥٦ . فرض الإنجليز على الصين أن تفتح موانيها لهذه التجارة الرابحة. تحكم الأوروبيون فى بعض الموانى واحتكروا تجارة الأفيون وفرضوا نظام القضاء المختلط. . فى عام ١٧٢٩ كان يدخل الصين حوالى ٢٠٠ تربة أفيون فى العام بعد أن توسع فيها الأوروبيون كان يدخل الصين عام ١٨٨٣. ٤٠,٠٠٠ تربة أفيون. أدى الأفيون إلى تدهور اقتصاد وأخلاقيات الصين وأصبحت تستورد أكثر مما تصدر. حاولت الصين المقاومة ولكنها لم تنجح. انهارت الصين ودخلها المستعمر الغربى واليابانى فى أوائل القرن العشرين. فى هذا المناخ انتهى الحكم الامبراطورى للصين سنة ١٩١١ وأصبح صن يات سن رئيسا للجمهورية الصينية ولكن الصين كانت ممزقة. عام ١٩٢٤ تكون الحزب الشيوعى الصينى برئاسة ماوتسى تونج. استمر الحزب فى النضال العسكرى حتى كتب له النصر سنة ١٩٤٩. هربت بواقى الحكومة الصينية إلى جزيرة فورموزا الصغيرة (الآن تايوان) برئاسة شاى كاى شيك (عديل صن يات سن). ابتدأ الكفاح الشيوعى بما سمى المشوار الطويل ، ويقول هنرى كيسنجر فى مذكراته عن سنوات البيت الأبيض إنه فى زيارته للصين مع نيكسون فى السبعينيات لتطبيع العلاقات قال له أحد مرافقى ماوتسى تونج فى المشوار الطويل إنه عندما ابتدأ النضال لم يكن أحد يحلم أن يرى النصر فى حياته ، لقد كان كفاحا للمستقبل.

كان قادة الصين الجدد ثوريين ذوى طموح هائل ولكن درايتهم بحكم هذه البلاد الشاسعة كانت سلسلة من التجارب بعضها نجح والآخر لم يوفق أو فشل. بالإضافة إلى أن ظروف الصين السياسية، الاقتصادية، والاجتماعية كانت صعبة، وأيضا قد حاصرها الغرب اقتصاديا ومنعها من دخول الأمم المتحدة. فى ستينيات القرن الماضى لم تحقق الصين التقدم المرجو، سياسات فاشلة ، فيضانات مدمرة، جفاف ومحاصيل فاشلة ولكن مع كل ذلك يعد أهم إنجازات الثورة الشيوعية فى الصين أنها حافظت على وحدة البلاد . ابتدأت شعبية ماو رئيس الحزب ينال منها الضعف وأصبح يرى أن التخلف الفكرى للمثقفين يعد عائقا للتيار الاشتراكى. ومن ناحية أخرى كان ليوتشاوتشى رئيس الجمهورية ذا النفوذ القوى يدعو إلى ما سماه الاشتراكية العلمية ويرى أن المثقفين خدموا الصين القديمة ويمكنهم أن يخدموا الصين الجديدة. لم يكن خلافا أيديولوجيا فقط بل كان صراعا على السلطة. نجح أنصار ماو فى إزاحة المختلفين معه. كانت الثورة الثقافية، طرد المثقفون والمدرسون وأرسلوا للمزارع والمصانع وأغلقت المدارس والجامعات أو على الأقل أصبحت فى غاية الضعف. راح ضحية تلك الحقبة بضعة ملايين واستمرت حتى منتصف السبعينيات. لم يكن ما حدث فى تفكير ماو حيث إن الثورة الثقافية دفعت الاقتصاد الصينى إلى حافة الهاوية.

توفى ماو سنة ١٩٧٦ وخلفه غوفونج ثم بعد فترة قصيرة تولى الرئاسة دنج شياو بينج والذى عانى الأمرين خلال الثورة الثقافية. كان لا بد من تغيير الاقتصاد وكان دنج من أنصار الانفتاح الاقتصادى. ابتدأ التغيير أولا فى قطاع الزراعة وبدون تخطيط من الحزب أو حتى موافقته. ترك الفلاحون نظام الكوميون وعادوا لنظام الزراعة القديمة حيث كل عائلة مسئولة عن زراعة مساحة معينة. تجاهلت الحكومة تلك المحاولة عن عمد، زاد الإنتاج واتسعت التجربة.

أما فى الصناعة فكان الحزب يتحسس طريقه بحذر شديد. ابتدأت تجربة الانفتاح فى بلد صغيرة اسمها تشنذن أهملتها الحكومة عن عمد لقربها من هونج كونج المستعمرة البريطانية فى ذلك الوقت. كانت شنذن بعيدة عن العاصمة والبلاد الكبيرة، فلو فشلت التجربة ستكون غير ملحوظة. أما لو نجحت التجربة فلرخص العمالة وانخفاض مستوى المعيشة وقربها من الحدود وموانى التصدير فستجذب الكثير من رجال الأعمال والمستثمرين. كانت البداية صناعات بسيطة مثل صناعات المجوهرات والبلاستيك، صناعات تحتاج لأيد عاملة رخيصة وغير مدربة . نجحت التجربة اقتصاديا وصدرت المنتجات ودخلت العملة الصعبة. لم يصرح بدخول منتجات شنذن للصين وأحيطت المدينة بالأسوار وان كان ذلك قد تغير فيما بعد. كان رجال الأعمال المساهمون فى تلك التجربة صينيين من هونج كونج وتايوان.

جذبت تلك التجربة انتباه الكثير من المستثمرين ورجال الأعمال. فى فترة وجيزة أصبحت شنذن مدينة صناعية كبيرة وأصبحت وكأنها أنشئت بين عشية وضحاها وقد سميت فيما بعد معمل التحديث. شجعت تلك التجربة الحكومة فأنشأت مناطق اقتصادية خاصة تمنح مميزات مغرية لرجال الأعمال. أدى ذلك إلى هجرة الكثير من

كان ترتيب الصين فى المركز الرابع فى أولمبياد ١٩٩٦ ثم أصبحت فى المركز الثالث سنة ٢٠٠٠، ثم الثانى فى دورة ٢٠٠٤ وفى الدورة الأخيرة حصدت الصين ٥١ ذهبية مقابل ٣٦ للولايات المتحدة

الصـــين!

الفلاحين والشباب لتلك المناطق. كانت العمالة غير منتظمة أو مضمونة ولكن النجاح النسبى اجتذب العديد من المهاجرين الفلاحين. لم تكن هناك قوانين لحماية حقوق العمال أو حتى للأمن الصناعى. كانت ظروف العمل قاسية ولكنها أعطت فرصة لمن ليس له عمل. اتسعت التجربة لتشمل بلادا عديدة وأدت إلى انفجار اقتصادى لم يشهد العالم له مثيلا.

[٢]

فى البلاد الغربية المتقدمة التطور مرتبط بالديمقراطية وبالدستور فى إطار لا يؤمل بسرعة فى التغيير. أما فى البلاد النامية، فلعدم وجود دستور راسخ ونظام ديمقراطى فالنخبة الحاكمة فى إمكانها إحداث تغييرات جذرية وسريعة قد تكون جيدة أو سيئة. يتوقف ذلك على مدى دراية النخبة الحاكمة ورؤيتها للمستقبل ومدى ارتباطها بالشعب أو بمصالحها الشخصية.

كان أمام الصين بعد ماو خياران، إما أن يكون الاهتمام بالإصلاح الاقتصادى أولا على أن يتبعه الإصلاح السياسى أو العكس. يعتقد بعض الباحثين أن الصين تعد نموذجا للحالة الأولى بينما تعد روسيا نموذجا لأولوية الإصلاح السياسى وما تبعه من مشاكل. كلا الخيارين محفوف بالمخاطر. بل قد يكون كلا الخيارين مغامرة غير مضمونة العواقب، وقد تؤدى ولو فى بادئ الأمر إلى حالة من الفوضى والاضطراب، خصوصا إذا اتسمت بالسرعة فى التنفيذ. وعلى العموم مسيرة الإصلاح السياسى والاقتصادى فى البلاد النامية ليس من السهل التحكم فيها لمدة طويلة أو حتى التنبؤ بمصيرها حيث إن العوامل المؤثرة عديدة ومعقدة.

إذا قيس النجاح الاقتصادى الصينى بمعدل التنمية فقط فهو نجاح مذهل، ولكن لم يكن هذا النجاح بلا ثمن. لقد ابتدأ الحزب الشيوعى يتخلى عن بعض مبادئه وقد قابل ذلك معارضة شديدة من داخل ومن خارج الحزب، ولكن الصين نجحت فى رفع مستوى دخل ٤٠٠ مليون شخص إلى معدل ما فوق خط الفقر وهو إنجاز لا يستهان به. يعود أغلب هذا النجاح للقطاع الخاص. الصين بها أكثر من ١,٥ مليون شركة خاصة بالإضافة إلى ٣١ مليون ورشة صغيرة ودكان. يعمل بهذه الشركات حوالى ٢٠٪ من الصينيين. اصبح بالصين عدد هائل من أصحاب الملايين. أما المليارديرات فعددهم لا يفوقه إلا عددهم فى أمريكا.

عندما أصبح دنج رئيس الحزب وبعد محاولة تشندن الناجحة قال «لا يهم أن كان القط أبيض أو أسود مادام فى إمكانه أن يصطاد الفأر». لم يهتم دنج إن كان النظام الاقتصادى شيوعيا أو رأسماليا وما دام الاقتصاد يتحسن ومادام الحزب يتحكم فى مصير البلاد. يعد دنج مهندس الانفتاح وإن كانت سياسته المعلنة تعتمد على: المحافظة على الروح الشيوعية، المحافظة على النظام السياسى برئاسة الحزب، المحافظة على الماركسية اللينينية وعلى تعاليم ماو. يذكرنا ذلك بالنكتة الشائعة والتى قيلت بعد أن تولى السادات حكم مصر «إدى إشارة شمال وادخل يمين». لم يحاول النظام أن ينال من أسطورة ماو، بل ما زال ماو رمزا للصين الحديثة وصوره ما زالت على كل الأوراق المالية. والحقيقة التى يعترف بها الكثيرون أنه لولا الثورة الشيوعية بقيادة ماو لما امكن للصين ان تكون الدولة التى نراها الأن. أيضا أعتقد أن الصين دولة تحترم تاريخها.

عام ١٩٩٩ توفى دنج وتولى رئاسة الحزبJian Zemin، استمرت سياسة الانفتاح. أما السياسة المعلنة للحزب فقد اتخذت شعارات جديدة، أصبح الحزب يمثل الشعب بأكمله بدلا من البروليتاريا (أعلن نيكيتا خروشتشيف سنة ١٩٦١ أن الاتحاد السوفيتى أصبح لكل الناس وليس للبروليتاريا فقط، ولكن جمود القادة السوفييت لم يسمح ببداية التغيير فى ذلك الوقت الأمر الذى أدى إلى انهيار الاتحاد السوفيتى فيما بعد). شجع الحزب دخول رجال الأعمال واصبح شعار السياسة هو ما يسمى بالتمثيل الثلاثى: (١) تمثيل القوة الاجتماعية العاملة (٢) تمثيل الثقافة الصينية و (٣) تمثيل مصلحة الأغلبية. كتب عن تلك الثلاثية العديد من الكتب وإن كان البعض من داخل وخارج الحزب عارضوا تلك الشعارات التى قد لا تعنى الكثير. لقد أذهل سكرتير عام الحزب هو جيناتو الحاضرين فى أحد اجتماعات الحزب حين قال «ما هى الشيوعية؟ لا أحد يعرف، أنا لا أعرف». استمرت السياسة الفعلية للحزب هى النكتة المصرية القديمة «إدى إشارة شمال وادخل يمين».

[٣]

توفر الصين حوالى ٥٠٪ من دخلها السنوى بينما ما زالت أعداد كبيرة من الصينيين تعانى من الفقر (توفر الهند واليابان حوالى ٢٥٪ فقط من دخلهم القومى). الصين لديها فائض قدره ١.٤ تريليون دولار ويزيد هذا الفائض بليون دولار يوميا. هذا أكبر احتياطى نقدى فى العالم يليه اليابان رغم أن حجم اقتصادها ضعف حجم الاقتصاد الصينى. ماذا تفعل الصين بهذا المبلغ الهائل؟ يعاد استثمار أغلبه فى الولايات المتحدة على صورة سندات على الحكومة الأمريكية بفائدة بسيطة. فى حقيقة الأمر تلك الاستثمارات تعد دينا على أمريكا من الممكن نظريا أن تسحب فى اى وقت. من الممكن تلخيص العلاقة الاقتصادية بين الصين وأمريكا كما ذكرتها مجلة اتلانتك الشهرية: كل أمريكى فى العشر سنوات الماضية استلف ٤٠٠٠ دولار من شخص فقير فى الصين، أى أن الأمريكان يعيشون بمستوى أفضل مما تسمح به إمكانياتهم بينما يعيش الصينيون بمستوى أقل مما تسمح به امكانياتهم. كانت تلك السياسة تحافظ للصين على معدل التنمية العالى حيث أسعار المنتجات الصينية ستظل منخفضة مع التحكم فى معدل ارتفاع الأسعار داخليا مع المحافظة على سعر العملة الصينية منخفضة بالنسبة للدولار. هدف الصين أن يستمر الاستثمار بهذه النسبة العالية فى العقدين أو الثلاثة القادمة حتى تزداد معدل العماله ويتحسن مستوى أكبر عدد ممكن من الشعب. كان ذلك قبل أن تنخفض قيمة الدولار. فى العامين الماضيين يحصل احتياطى الصين من الدولار على فائدة قدرها من ٤ إلى ٥٪ بينما تراجعت قيمة الدولار الحقيقية من ٥ إلى ٦٪. مع انخفاض قيمة الدولار تقل القيمة الفعلية للاستثمارات الصينية فى أمريكا. ليس من مصلحة الصين أن تغير احتياطيا من الدولار إلى اليورو أو الين أو تشكيلة من العملات فى فترة بسيطة لأن ذلك سيؤثر على قيمة الدولار سلبيا ويضر بالرصيد الصينى بالإضافة إلى أن أمريكا تعد أهم عميل صينى للآن. تدهور الاقتصاد الأمريكى سيؤثر مباشرة على الاقتصاد الصينى

العديد من الدول لها رصيد نقدى تستثمره خارج حدودها ويشرف عليه خبراء فى الاستثمار. أنشأت الصين حديثا شركة الاستثمارات الصينية للبحث عن أفضل وسيلة لاستثمار الفائض النقدى وتستعين الصين بخبراء عالميين فى هذا المجال. ما ستفعله تلك الشركة يثير الكثير من التوتر فى الدوائر المالية وخصوصا لعدم وجود وضوح نوايا الصين وعدم وجود شفافية. وإن كان من الواضح أن نسبة الدولار فى الاستثمارات الصينية الخارجية ستقل.

يبدو أن التفاهم السياسى والاقتصادى سيسود العلاقات الصينية الأمريكية فى الأمد القريب إن لم يحدث ما يعكر هذه العلاقات. تؤكد الحكومة الصينية اتجاهها السلمى فى حل المشاكل. الصين لها حدود مع ١٣ دولة والسلام والاستقرار الداخلى من مصلحتها لاستمرار التنمية الاقتصادية. إن أكبر مشكلة سياسية تواجه الصين هى مشكلة تايوان والتى تعتبرها الصين جزءا منها، إلا أن تلك المشكلة كامنة منذ أكثر من نصف قرن. ومن ناحية أخرى ٧٠٪ من الأمريكان يخشون من اتساع الاقتصاد الصينى وتأثيره السلبى على الولايات المتحدة. الأمريكان عندهم الخبرة والقدرة على احداث القلاقل التى تخدم مؤسستهم العسكرية وشركات صنع السلاح.

[٤]

هل الاستقرار السياسى فى الصين سيكون طويل المدى أم هناك قلاقل على الطريق؟ رغم سيطرة الحكومة على مقاليد الأمور حتى الآن، إلا أن ذلك لم يكن بدون مصاعب والتى قد يستفحل أمرها فى المستقبل. قد يكون أحد معايير الاستقرار فى الصين هو ما يشهده ميدان التينيمن (Tiananmen Square) من مظاهرات فى قلب العاصمة بكين حيث مقر البرلمان وحيث يوجد مزار ماوتسى تونج وحيث يسكن ويعمل قادة الصين وحيث توجد

ما حدث فى الرياضة فى الصين يحدث مثيل له فى مجالات أخرى كثيرة. الصين أذهلت العالم أيضا بتفوقها الاقتصادى الهائل وبتناقضها الأيديولوجى

ايضا المدينة المحرمة وهى مقر الامبراطور خلال حكمه والذى انتهى عام ١٩١١. كان أول اضطراب يشهده هذا الميدان فى العصر الحديث عندما حاولت عصابة الأربعة السيطرة على الحكم بعد وفاة ماو فكانت مظاهرات تأييد الحكومة ضد عصابة الأربعة. فى مناخ أتيح فيه القليل من الحرية، كان هناك بعض المظاهرات. فى عام ١٩٨٧ تظاهر بعض الطلبة والمثقفين للمطالبة بمزيد من الحريات فى وقت ابتدأ يتفكك فيه الاتحاد السوفيتى. قد يكون أهم المظاهرات التى شهدها هذا الميدان هى التى وقعت بين ١٥ أبريل وحتى ٤ مايو سنة ١٩٨٩. اشترك فى تلك المظاهرة قرابة المليون من الطلبة والعمال والمثقفين طلبا لمحاربة الفساد ولمزيد من الديمقراطية وكان العمال خصوصا يخشون من زيادة نفوذ أصحاب الشركات. استرعت تلك المظاهرات انتباه العالم وكان لها أصداء فى العديد من البلاد داخل الصين. كان هناك خلاف داخل الحزب عن كيفية استقطاب تلك المظاهرات. كان البعض يرى أن الإصلاح السياسى والديمقراطية أصبحا أمرا ضروريا بينما كان آخرون ومن بينهم رئيس الحزب دنج يرون أن استمرار الإضراب سوف يحدث حالة من الفوضى والضياع ستؤثر على حالة الاستقرار والتنمية. سادت آراء دنج واستقال سكرتير الحزب Zhao Ziyang، دخل العسكر لفض الإضراب واختلف عدد الضحايا ما بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ قتيل وجريح تبعا لمصادر الحكومة إلى ما بين ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ من مصادر أخرى.

مظاهرة أخرى حدثت فى ميدان تينيمن فى أبريل سنة ١٩٩٩ تستلزم بعض التفصيل حيث إن ما حدث يعطى ضوءا على كيفية تصرف الحكومة وما قد يحدث فى المستقبل. كان نتيجة الفراغ الروحى والدينى الذى خلفته الشيوعية إذ ابتدأ الصينيون يصلحون من أحوال المعابد والمساجد وأن يظهر المبشرون المسيحيون من جديد وأن يبنوا الكنائس. لم يكن هناك اعتراض بل ساعدت الحكومة على ذلك مادام ذلك يحدث بموافقة وتحت نظر الدولة وإن كان هناك بعض الحذر من مبشرى المسيحية لتاريخهم المشبوه. فى ذلك المناخ ظهرت مجموعة تسمى فولون جونج سنة ١٩٨٠ تعتمد على بعض التمارين للتريض الروحى من التحكم فى التنفس وهى مشتقة من البوذية والداوزية (الأخيرة هى فلسفة صينية قديمة) ومبنية أيضا على الصدق والتسامح. رغم أن فولون جونج مسجلة كجمعية رياضية إلا أنها كانت فى واقع الأمر دينية وكان رئيسها ذا شخصية كارزمية كتب بعض الكتب التى نشرتها هذه الجمعية ليصبح أعضاؤها بضعة ملايين. كان هناك بعض المناوشات بين بعض أهل الإعلام وبعض نشاطات تلك الجمعية أدى فى أغلب الأحيان إلى مظاهرات سلمية من أعضاء الجمعية واعتذار أهل الإعلام. هاجر رئيس الجمعية لأمريكا وكتب البعض مقالات ناقدة للجمعية ورئيسها وتظاهر حوالى ١٠.٠٠٠ من أعضاء الجمعية فى مظاهرة سلمية فى ميدان تينيمن، جاء المتظاهرون بها من بلاد مختلفة. اتضح للحكومة أن هذه الجمعية منظمة ولها ولاء وأعضاؤها كثيرون وهذا ما لم تتقبله الحكومة. بعد أيام قليلة من تلك المظاهرة قررت الحكومة إلغاء تلك الجمعية واستعملت بعض العنف وإن لم تحدث إصابات تذكر إلا أن الحكومة سجنت البعض منهم. ما لا تسمح به الحكومة هو أى تنظيم قوى ومنظم قد يؤدى إلى قوة سياسية قد تقلق النظام. من أين ستأتى المظاهرات القادمة؟ سوف تأتى من المطالبين بالمزيد من الديمقراطية وحرية الإعلام. المطالبين بحقوق للعمال والفلاحين، من بقايا اليسار القديم أو يسار جديد يطالب بالعدل فى توزيع الدخل والحد من نفوذ الشركات الكبيرة ومحاربة الفساد. الصين أيضا لن تسمح بحركات انفصالية كما يحاول البعض فى التيبت أو أى حركات يشتم من ورائها نفوذ أجنبى.

تحاول الحكومة أن تعيد الفلسفة الكونفوشيوسية القديمة لتساعد على ملء الفراغ الدينى. لقد حارب النظام الشيوعى القديم الكونفوشيوسية لارتباطها بالإقطاع كنظام سلفى قديم. الكونفوشيوسية تعود إلى كونفوشيوس الذى عاش فى الصين فى القرن الخامس قبل الميلاد. إنها دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع تعتمد على الفضيلة والعمل أو كما عرفها واضعها الأول هى «حب الإنسان». وجدت الكونفوشيوسية صدى فى بعض المبادئ الشيوعية وخصوصا السمو فوق الماديات. بالإضافة إلى أن الكونفوشيوسية ستساعد على ملء الفراغ الدينى من ناحية، فهى أيضا ستساعد على تخفيف حدة الصراع بين الطبقات. فى دراسة حديثة لأكاديمية العلوم الاجتماعية فى الصين وجد الباحثون أن الطبقة الاجتماعية القديمة قد اختفت أو كادت وحل محلها عشر طبقات اجتماعية اقتصادية. فقد الحزب بعضا من تأييد العمال والفلاحين والأقليات الدينية وبعض المثقفين. نشر البحث فى جريدة الشعب اليومية (Renmin Ribao) فى ديسمبر عام ٢٠٠٤. فى نفس العام أنشئت المؤسسة الكونفوشيوسية وأصبحت محل اهتمام الاعلام وتباع كتبها بالملايين. كتاب Analect Confucius الذى ألفته Ya Dan بيع منه ١٥ مليون نسخة وقد يكون أكثر الكتب مبيعا فى الصين. الكونفوشيوسية الآن تدرس فى ١٤٠ جامعة فى ٣٦ ولاية وهى من أكثر العلوم إقبالا عليها بينما دراسة الشيوعية لا يقبل عليها الطلبة إلا إذا كانت مادة إجبارية.

[٥]

الانفتاح الاقتصادى فى الصين أوجد طبقة جديدة من داخل وخارج الحزب مصالحها مرتبطة. يساندها الآن بعض المثقفين وبعض صغار السن من خريجى جامعات الغرب والمتأثرين به. من ناحية أخرى ما زالت هناك نسبة عالية من العمال والفلاحين يعانون من الفقر، بعض الفلاحين تؤخذ أراضيهم (الدولة تملك كل الأرض)، بعض عمال القطاع العام المباع يفصلون من أعمالهم، أصحاب المعاشات تتبخر معاشاتهم لغلاء المعيشة. مع بداية الانفتاح والتغير الاقتصادى والاجتماعى السريع، كثيرون لم يستطيعوا التأقلم للموجة الآتية كالطوفان. أكثر من ٢٠٠ مليون هاجروا من القرى للبحث عن فرص للعمل. هؤلاء فقدوا الترابط العائلى وبعضهم فقد ذاته. نتيجة كل ذلك ينتشر الفساد وتزداد الجريمة والدعارة. فى عام ٢٠٠٣ انتحر حوالى ٦٠,٠٠٠ شخص بزيادة قدرها ستة أضعاف عن إحصائيات ١٩٩٣. الآن يقدر عدد المنتحرين بحوالى ٣٠٠,٠٠٠ شخص سنويا. تزيد نسبة الانتحار بين صغار السن من النساء ما بين عمر ١٥ إلى ٣٤ حيث نسبة الانتحار تعد أعلى نسبة فى العالم. هذا ما يدفعه البعض ثمنا للتقدم الاقتصادى المبهر للصين.

بعد ربع قرن من الانفتاح ابتدأت الصين تهتم بشئون العمال. فرضت على الشركات الأجنبية أحقية العمال فى إنشاء النقابات مع إعطاء النقابات الحرية فى المفاوضات مع الشركات وتوزيع نسبة من الأرباح على العاملين. بالرغم من فقر العمال إلا أن دخل العامل فى الصين الآن حوالى خمسة اضعاف دخل الفلاح بعد أن كان ٢.٦ مرة سنة ١٩٩٩. نتيجة فقر الفلاحين تزداد المظاهرات فى القرى ضد الفساد والضرائب وقلة الخدمات. حتى تمتص الحكومة غضب الفلاحين ابتدأت منذ عام ١٩٨٨ تجرى انتخابات حرة مباشرة فى ٧٠٠,٠٠٠ قرية. ولكن هذه الانتخابات لم تخفف من حدة التوتر إلا قليلا حيث إن أصحاب النفوذ غالبا ما سيطروا على الانتخابات. فى عام ٢٠٠٥ كان هناك حوالى ٨٧٠٠٠ مظاهرة فى القرى !!

لقد قررت الحكومة أن يستمر الإصلاح الاقتصادى وأن تيسر ما يتطلبه ذلك الإصلاح بقدر الإمكان. أمام الحكومة ثلاث طرق لاستمرار سيطرتها لتحقيق التقدم الاقتصادى وهى: (١) بعض الانفتاح السياسى المحكوم، (٢) محاربة الفساد، و(٣) القهر. ويبدو أن الحكومة تستخدم الثلاث طرق حسبما يقتضى الأمر.

هل سيستمر المعدل العالى للتنمية الصينية لعقدين أو ثلاثة كما تأمل الحكومة حتى يرتفع مستوى دخل الكثيرين؟ يتوقف ذلك على أربعة عوامل أساسية: أولا: الاستقرار السياسى فى الصين، ثانيا: حالة السوق العالمية من عرض وطلب، ثالثا: أسعار البترول أو مصادر الطاقة البديلة. إذا استمر تصاعد أسعار البترول وهو أمر متوقع سوف يعاد النظر فى أماكن التصنيع للإقلال من مصاريف النقل، قد تعود بعض الصناعات للغرب أو لشمال أفريقيا وأمريكا اللاتينية، رابعا: لن تستطيع أن تحافظ الصين على أجور العمالة المنخفضة بينما هناك فى الصين طبقة يزداد ثراؤها بشراهة.

هل الاستقرار السياسى فى الصين سيكون طويل المدى أم هناك قلاقل على الطريق ؟ رغم سيطرة الحكومة على مقاليد الأمور حتى الآن، إلا أن ذلك لم يكن بدون مصاعب

ارتفاع أجور العمال قد يدفع بعض رجال الأعمال للبحث عن عمالة أرخص فى بلاد أخرى مثل إندونيسيا، الفيليبين، المكسيك وأفريقيا. بعض من هذا ابتدأ يحدث فعلا.

[٦]

هناك مجموعة من المفكرين يرون أن الصين لن تتخلى عن الاشتراكية كحل نهائى هم يرون أن الدول الفقيرة لابد أن تجتاز مرحلة الرأسمالية فى الطريق. وإن كان النظام الرأسمالى ينظر للعامل كوحدة للإنتاج باستخدام التكنولوجيا بغرض إثراء قلة قليلة، إلا أن الرأسمالية تطور الإنتاج أفضل من أى نظام آخر. المنافسة الحرة مع التسويق لفتح أبواب الاستهلاك تهيئ المجال لخلق فائض اقتصادى. بغير هذا الفائض الاقتصادى لا يتحقق النظام الاشتراكى أو الشيوعى. كان كارل ماركس يرى أن النظام الراسمالى سيسبب بؤس العمال ولكنه فى النهاية سيؤدى إلى النظام الاشتراكى حيث يتحقق مجتمع الكفاية والعدل. فى الحقيقة إن النظرية الماركسية كما مورست بها الكثير من القصور والجمود وليس لها مجال فى الصين الحديثة ويبدو أن الصين ما زالت تبحث عن بديل أخلاقى وسياسى.

هل ستصبح الصين دولة ديمقراطية قريبا؟ هذا ما يتنبأ به الكثيرون. ارتفاع مستوى الدخل، وجود نقابات للعمال، تحسن مستوى التعليم، تحسن المواصلات، ووجود بعض منظمات المجتمع المدنى، كلها مؤشرات قد تؤدى إلى الديمقراطية. يعتقد المتفائلون أن الانفتاح السياسى سيتم خلال العقد القادم. قد يكون أهم ظواهر الديمقراطية هى وجود مؤسسات المجتمع المدنى. لقد ساهمت بعض مؤسسات المجتمع المدنى فى انهيار النظام الشيوعى فى وسط وشرق أوروبا. فى الصين يعتقد البعض أن مؤسسات المجتمع المدنى ابتدأت بعد نهاية فترة ماوتسى تونج وهى التى ساهمت فى مظاهرات ميدان تينيمن فى ١٩٨٩ فى قلب العاصمة والتى اشترك فيها قرابة المليون. الآن لا توجد مؤسسات للمجتمع المدنى لا تسيطر عليها الحكومة حيث إن القانون الصينى يشترط على المؤسسات المسجلة فى الحكومة أن يكون بها ممثلون للحكومة فى رئاسة المنظمة. الصين أيضا تسمح بمنظمة واحدة لكل مهنة. مؤسسات المجتمع المدنى فى الصين ما زالت داخل الرحم أو ابتدأت فى الخروج. قد يهمنا هنا منظمات رجال الأعمال والتى يراهن عليها الكثيرون أنها ستؤدى إلى النظام الديمقراطى. فى مظاهرات ميدان تينيمن لم يشجع المتظاهرين أى من الشركات الكبرى أو رجال الأعمال إلا شركة واحدة اضطر رئيسها للهروب بعد المظاهرات. نتيجة ذلك منع دخول رجال الأعمال للحزب لمدة عشر سنوات وإن كان هذا الحظر للاستهلاك المحلى فقط. هذا الحظر لم ينفذ بدقة لوجود كثيرين من الأعضاء القدامى للحزب الذين أصبحوا أصحاب أعمال وبقاؤهم بالحزب يسهل أعمالهم واعطاؤهم القروض وما إلى ذلك. عندما شجع هو جينتاو فيما بعد دخول رجال الأعمال للحزب، كانت هناك معارضة من الحرس القديم حتى أن نائب رئيس الحزب للتخطيط Yu Yanyau قال: مجرد نقاش دخول رجال الأعمال للحزب عمل غير مسئول، ولكن أقل من ٢٥٪ فقط من أعضاء الحزب أيدوا قرار الحظر. رجال الأعمال لهم الآن وجود داخل الحزب، وهم لا يمارسون مبادئ الحزب داخل أعمالهم، بل غالبا هم غير متعاطفين مع مبادئ الحزب. هل سيكون رجال الأعمال إحدى طلائع الحزب فى المستقبل أم أنهم فى الحزب لخدمة مصالحهم وليكونوا حلقة وصل مع الحزب لتهيئة المناخ الملائم لاستمرار التنمية. رجال الأعمال لن يؤثروا فى مسيرة الديمقراطية بل قد يعارضونها لأن الحكومة متعاونة معهم. ما يهم رجال الأعمال هو الحكومة التى تؤيد طلباتهم بصرف النظر عن أيديولوجية تلك الحكومة. نرى ذلك فى كثير من بلاد العالم بل فى أمريكا مثلا رجال الأعمال هم من يفسد الديمقراطية. أعتقد أن الرهان على أن رجال الأعمال سيساهمون فى تقدم الديمقراطية رهان خاسر. ■

المراجع:

1- The Atlantic January/February 2008" page 35.
2- Clashes and Balances" The transition of Economy and Society in Rural China" Dang Guoying" Foreign Languages (China) Press" 2005.
3- Oracle Bones" A Journey Through Time in China" Peter Hessler" Happer Perennail" 2006.
4- Social Change and Political Reform in China: Meeting the Challenge of Success" John W. Lewis and Xue Litai" The China Quarterly" 2003" page 926.
5- Red Caputalists in Vhina" Bruce J. Dickson" Cambridge University press" 2003.
6- China's New Confucianism" Daniel A. Bell" Princeton University Press" 2008.
7- China and the New World Order" George Zhibin GU" Future Books" 2006

مصطفى المنشاوى

بنجالور: هل تحققت نبوءة نهرو؟

■■ فى عام ١٩٤٧، صعد جواهر لال نهرو إلى المنصة ليلقى خطابه الشهير الذى تنبأ فيه بمستقبل بلاده ووضع به اللبنة الأولى لما بات يعرف فيما بعد بـ«الحلم الهندى».

«عند حلول الظلام - وبينما يغط العالم فى نوم عميق - سوف تستيقظ الهند... سوف تستيقظ لتستنشق نسمات الحياة والحرية».

وبعدها ستأتى «اللحظة التاريخية للانطلاق من القديم إلى الحديث، وحينها ستجد هذه الأمة المكبوتة فرصة التعبير عن ذاتها».

لكن هذه الكلمات لم تكن سوى أضغاث أحلام انتابت نهرو وغيره من قادة العالم الثالث بعد حصول دولهم على الاستقلال، أو هكذا تراءى للكثير من المحللين آنذاك.

فلم يقبل المحتل البريطانى أن يرحل عن البلاد بعد أكثر من ٥٠٠ سنة إلا بعد أن يترك وراءه تركة مثقلة بالهموم والمشكلات الاقتصادية والاجتماعية فى وجه نهرو ونظرائه من السياسيين فى الهند.

بالإضافة إلى الوضع الداخلى المضطرب، ظهرت مشكلات أخرى خارجية. فإلى الغرب، رغب المواطنون المسلمون فى الانفصال بدولتهم الجديدة - الباكستان. هذه الرغبة تسببت فى أكبر عملية تهجير فى التاريخ وحرب دموية بين الجارتين فى أوائل السبعينيات راح ضحيتها الكثير.

ولم يكن غريبا أن يتوقع بعض خبراء السياسة والاجتماع فى العالم أن «سقوط الهند، ليس سوى مسألة وقت».

لكن تلك التوقعات خابت، ليحل محلها توقعات أخرى بصعود الهند كقوة اقتصادية وسياسية كبرى فى العالم.

فما الذى حدث؟ وكيف تبدل الحال عبر تلك السنوات القليلة فى عمر التاريخ؟ وإلى أى مدى تحقق «الحلم الهندى»؟

أسئلة ضمن أخرى دفعتنى البحث عن إجابتها إلى قضاء شهر كامل متجولا بين أنحاء متفرقة فى هذا البلد الشاسع والمتنوع جغرافيا وثقافيا وعرقيا.

ولم يخل الأمر من جانب شخصى. فمتابعتى لأخبار الهند دفعتنى إلى رسم صورة مشوشة عن البلاد. فهذا خبر يتحدث عن إطلاق الهند مكوكا فضائيا، وذاك خبر يتحدث عن وصول عدد فقراء الهند إلى ٦٠٠ مليون نسمة (أكثر من نصف السكان تقريبا).

وهكذا باتت زيارتى ضرورة ملحة لاستكشاف صورة حقيقية للهند فشل الإعلام العربى والغربى فى استجلائها بعيدا عن أى تشويش أو صور نمطية ثابتة أو تناقض فرضته طبيعة الأخبار القادمة من هناك.

....

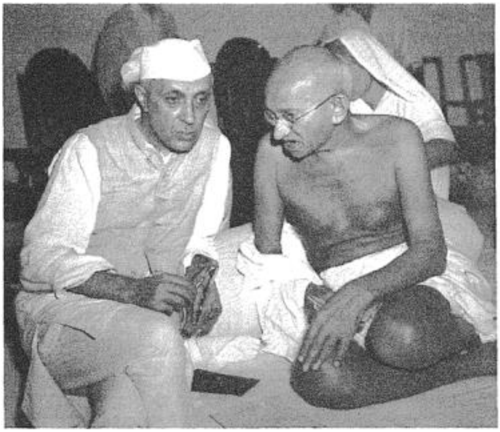
بينما كان نهرو يلقى خطابه عن انتظار «اللحظة التاريخية» واقتراب «الحلم الهندى»، كانت بنجالور تقف فى جنوب البلاد كنموذج على واقع مأساوى تعيشه الهند آنذاك.

فالمدينة عبارة عن أحياء فقيرة يسكن فيها ثلاثة ملايين نسمة يتخللها جيوب من بيوت الأغنياء غالبيتهم من المتقاعدين الأجانب الراغبين فى الاستمتاع بطقس المدينة المعتدل طوال العام ورخص الأسعار والخدمات مقارنة بمناطق أخرى حول العالم.

لكن فى بداية التسعينيات، تبدلت الحال بعد قرار الحكومة الهندية تحرير الاقتصاد القومى... قرار مثل خبرا سعيدا لسكان بنجالور... أو هكذا بدا الأمر لهم.

فالمدينة اختيرت مقرا للكثير من الاستثمارات فى قطاع تكنولوجيا المعلومات نظرا لوجود عمالة متعلمة ورخيصة فى نفس الوقت. وتخطى عدد شركات تكنولوجيا المعلومات ١٢٠٠ شركة تقوم بتصدير نصف إنتاج البلاد من تكنولوجيا المعلومات والخدمات المتعلقة بها.

«بدأت رحلتك من المكان الصحيح. فمدينة بنجالور



قصة نجاح حقيقية ودليل واضح على ما وصلت إليه الهند من تقدم مبهر».

هكذا جاء وصف جون هيل، خبير أيرلندي في تكنولوجيا المعلومات يعمل في إحدى الشركات الموجودة في المدينة.

نصحني هيل بأن أزور شركة «انفوسيس» التي تعتبر الأكبر في مجال تصدير تكنولوجيا المعلومات في الهند.

وهكذا اتبعت نصيحته... لتظهر مفاجأة أخرى ساهمت في ايضاح الصورة المهتزة عن الهند.

....

استقبلني «مهنداس باي» أحد أعضاء مجلس إدارة أنفوسيس قبل بداية الجولة، ليرى حماسي الشديد في السؤال عن سر التحول في وضع الشركة.

فشركة أنفوسيس بدأت عملها في ١٩٨١ برأس مال لم يتعد ١٠.٠٠٠ روبية (أقل من ٢٥٠ دولارا) وبعمالة لا تزيد على ٥٠٠ شخص.

لكنها شهدت تطورا كبيرا لتصبح أول شركة هندية تدرج أسهمها في بورصة «ناسداك» الأمريكية الشهيرة مع زيادة أرباحها وارتفاع عدد موظفيها إلى ٩٠ ألف شخص.

فكيف وقع هذا التغيير؟

«فقط استفدنا من فرصة أتاحتها لنا الحكومة عندما اتبعت سياسة جديدة تمثلت في الانفتاح الاقتصادي وتحرير الأسواق مع بداية التسعينيات».

«وربما أخص عليك الأمر .. نرجع نجاحنا إلى العولمة».

واستطرد:

«أعرف أنك قادم من بلاد ترون فيها العولمة شرا مستطيرا، لكننا نختلف معكم في ذلك... فالعولمة لها جوانب إيجابية خدمت شركتي وخدمت الهند».

كيف؟

حدث ذلك عن طريق توحيد الأسواق مما سمح لنا بالوصول إلى أسواق عالمية كانت بعيدة المنال من قبل. وعليك ألا تنسى أنها خلقت فرص عمل واسعة لسكاننا الذين يتعدون المليار نسمة.... أليس ذلك جيدا؟».

وقبل أن أجيب عن هذا السؤال أو أطرح أسئلة أخرى، قاطعت حديثنا فتاة في الأربعينيات من عمرها ترتدي الزي الهندي بألوانه المزركشة وترسم على ملامحها ابتسامة الواثق من نفسه.

لتبدأ ديبير سانجي حديثها:

«آسفة على المقاطعة: هل تريد أن تبدأ جولتك في الشركة الآن ... ربما يفضل أن نبدأ الآن فالأماكن التي ستزورها متعددة».

وبالفعل بدأت الجولة داخل مقر الشركة... لتظهر أسئلة جديدة وإجابات غير متوقعة.

....

لابد أن تشعر بالانبهار خلال جولتك داخل الشركة، حيث المساحات الخضراء الواسعة وسط المكاتب التي تشمل معامل مزودة بأحدث الأجهزة الالكترونية.

وسائل ترفيهية متعددة ومنتشرة في نفس المكان.... ومنها حمام سباحة وصالة لألعاب رياضية ودار عرض سينمائي ومطعم يقع وسط بحيرة صناعية وملعب جولف.

هذه الخدمات متوفرة أيضا لأسر العاملين في الشركة خلال عطلة نهاية الأسبوع.

«هل أنا حقا في الهند؟» قلت مازحا لسنج.

«نعم يا سيدي... نحن نريد أن نوفر الراحة للعاملين في الشركة لتشجيعهم على الإنتاج أملا بالطبع في مزيد من الأرباح في النهاية».

ويبدو أن هذا الأسلوب في العمل أتى ثماره.

فقد حققت الشركة أرباحا بلغت ثلاثة ملايين دورلار العام الماضي، ويتوقع المسئولون فيها أن يتم التوسع في نشاطاتها وتوظيف عشرات الآلاف من الأشخاص كل عام.

دعاني مسئولو الشركة إلى مقابلة بعض العاملين فيها الذي كان واضحا أن أعمار معظمهم لا تتعدى الثلاثينيات.

«أنا فرح بونديري أعمل هنا في الشركة ويسعدني أن أجيب على أسئلتك».

هكذا بدأت تلك الفتاة التي بادرتها بالسؤال عن عمرها بسبب ملامحها التي توحي بصغر سنها في مكان عمل بدا بالنسبة لي ضخما.

«يبلغ عمري ٢٢ عاما. أعرف أنك تستغرب من صغر سني. فهم هنا في الشركة يعتبرون ذلك ميزة.

رغم أنني لم أدرس الكمبيوتر كتخصص في كلية الهندسة التي درست فيها، إلا أنني تمكنت من تعلم أشياء كثيرة وبسرعة كبيرة في هذا المجال الجديد.

كل هذه الخدمات التي تراها أمامك تمنحنا مزيدا من التركيز بل والثقة في أنفسنا وقدرتنا على التفوق والإنجاز».

وبالفعل، لمحت في عيني تلك الفتاة ثقة لا توصف ونبوغا بما منحها تلك الثقة ولباقة الحديث. وعرفت منها أنها عاشت فترة في الخليج حيث كان يعمل والدها. وهنا سألتها عن الفرق الذي وجدته بين الهند والخليج؟

«لديكم في العمل العربي الكثير من الإمكانات والموارد ربما بشكل أفضل منا... لكنكم تفتقرون إلى شيئين من وجهة نظري، ينقصكم نظام يضمن استخدام تلك الموارد والإمكانات على الوجه الأمثل... وينقصكم الرغبة في تحقيق الذات أو العمل على مشروع قومي يتفق عليه الجميع».

قاطعتها:

«لكن الصورة هنا غير وردية في بلادكم كما أراها وعلى عكس ما ترسمينها. فمع هذه الخدمات الممتازة التي ذهبت إلى حد توفير حمامات سباحة وملاعب جولف لكم في الشركة، يبدو الوضع مأساويا خارج أسوار هذا المكان».

فعند وصولي إلى بنجالور للمرة الأولى دونت في مذكراتي: «شوارع المدينة تتسم بالعشوائية الشديدة في حركة المرور. الكثير من سكان المدينة يعيشون دون توافر الخدمات الأساسية كمياه الشرب أو الصرف الصحي».

ويبدو أن الفتاة قرأت ما يدور في ذهني، لتقول:

«من حقك أن تستغرب من هذا التناقض. برأيي، المشكلة في أن التطور في قطاع البرمجيات لا يواكبه تطور على المستوى السياسي والإداري في الهند».

وهكذا أخذني الحديث مع تلك الفتاة الصغيرة إلى جانب آخر من صورة الهند ... جانب لا يرغب الكثيرون مثلها في تسليط الضوء عليه على الأقل عبر وسائل الإعلام ... لأنه ببساطة الجانب المظلم من الصورة.

....

في شارع إم جي الشهير، يمكنك أن تلحظ المراكز التجارية حيث توجد فروع لأشهر العلامات التجارية ومعارض تبيع سيارات فاخرة مثل بي إم دبليو.

كما يثير دهشتك انتشار الملاهي الليلية في ذلك الشارع الذي يتجول فيه الكثير من الزوار الأجانب وبعض الشباب الهندي الذين يرتدون أزياء غربية متحررة بعكس الساري مثلا الذي يمثل الرداء التقليدي في معظم المناطق الأخرى من المدينة.

لكن الحقيقة أن معظم سكان بنجالور ما زالوا من الفقراء، ومازالت المدينة تمتلئ بالمناطق العشوائية التي يقدر عددها بالمئات والتي لا تتوافر فيها أبسط ضرورات الحياة كمياه الشرب أو الصرف الصحي.

فالمناطق العشوائية تزداد، والهوة بين الأغنياء والفقراء في المدينة تتسع، حسبما استنتج عالم الاقتصاد الهولندي هانز شينز في دراسة ميدانية عن بنجالور نشرت منذ عدة سنوات قليلة.

بينما كان نهرو يلقي خطابه عن انتظار «اللحظة التاريخية» واقتراب «الحلم الهندي»، كانت بنجالور تقف في جنوب البلاد كنموذج على واقع مأساوي تعيشه الهند آنذاك

من بين هؤلاء الفقراء هريشنا هريشنا، الذى زرته فى بيته المكون من غرفة واحدة والذى يعيش فيه مع أسرته رغم عدم توفر بعض وسائل الحياة الأساسية كمياه الشرب.

«اضطر إلى الاستيقاظ فى الساعة الرابعة صباحا للوصول إلى منطقة أخرى أحصل منها على المياه التى تلزمنا للشرب ولأغراض أخرى طوال اليوم».

حتى مياه الشرب التى يذهب هذا المواطن بعيدا للحصول عليها غير صالحة للاستهلاك بعد ظهور عدة حالات للإصابة بالكوليرا بسبب تلوث المياه كما قالت صحف محلية مؤخرا.

فلماذا هذا التناقض الذى يجعل وضع أغلبية سكان بنجالور يزداد سوءا رغم زيادة الشركات العاملة فى مجال التكنولوجيا والتى تمثل ٤٠ فى المائة من قطاع تكنولوجيا المعلومات فى كل الهند؟

سؤال بحثت عن إجابته من خلال لقاء مع موراى كلشو، مدير مؤسسة «إم سى سى» العاملة فى مجال المجتمع المدنى فى المدينة.

....

بعد انتهاء مؤتمر عقد فى إحدى قاعات المؤتمرات فى بنجالور عن «التنمية والعمل الخيرى»، كان موعدى مع كلشو.

خلال المؤتمر، تحدث بعض رجال الأعمال الذين أشاروا إلى مجهوداتهم لعلاج مشاكل المجتمع كالفقر.

«سيختفى الفقر من هنا خلال سنوات... ستصير الهند دولة متقدمة خلال أقل من عشرين عاما... نحن نسير إلى الأمام»، هكذا قال أحدهم بصوت حماسى تأثر به الحضور الذين بدأوا فى التصفيق بحرارة.

بادرت كليشو بالسؤال:

هل الصورة بهذه الإيجابية التى شاهدتها فى المؤتمر؟

فأجاب: «للأسف العكس هو الصحيح، فالصورة تبعث على الحزن والكآبة فى بنجالور.

هناك انتشار واسع للفساد السياسى والإدارى، والذى جعل الحكومة غير مهتمة بمواجهة تلك المشكلات التى تواجه الفقراء ناهيك عن الاعتراف بها».

قلت:

«وماذا عن قطاع تكنولوجيا المعلومات الذى يوظف الكثير من البشر ويعلق عليه الكثير من السكان هنا أحلامهم؟ هل سيغير من ذلك الوضع الذى تصفه بالمحزن والكئيب؟

فرد:

«قطاع تكنولوجيا المعلومات والخدمات المتعلقة به يبقى قطاعا محدودا لا يمثل العاملون فيه - وعددهم أربعة ملايين فرد - سوى واحد فى المائة من حجم الأيدى العاملة فى الهند التى ما زالت الزراعة تمثل المصدر الأساسى للدخل.

فى ظل كل تلك العوامل، تبدو لى شركات تكنولوجيا المعلومات أقرب إلى جزر منعزلة فى الهند.

ونصحنى كلشو أن اطلع على بعض الأرقام التى تتحدث عن ذلك التفاوت الذى تعيشه الهند.

وهكذا فعلت.

....

من ناحية، تعتبر الهند رابع قوة اقتصادية فى العالم بعد الولايات المتحدة والصين واليابان.

لكنها، من ناحية أخرى، ما زالت دولة فقيرة وفق تصنيف الأمم المتحدة، حيث مازال حوالى ٦٠٠ مليون نسمة (أكثر من نصف السكان) يعيشون على أقل من دولارين يوميا..

كما أن أقل من نصف أطفال الهند يعانون من سوء التغذية، وتبلغ نسبة الأمية ٤٠ فى المائة. (وهذه النسبة أكبر من تلك الموجودة فى دولة مثل رواندا).

إضافة إلى ذلك، لا يوجد دورات مياه فى ٧٥ فى المائة من البيوت الهندية، وهو ما يفسر ظهور ذلك العدد الكبير من الأفراد الذين يقضون الحاجة فى شوارع بنجالور والعديد من المدن الأخرى التى زرتها كالعاصمة دلهى - وسط رائحة نفاذة لا تطاق لأى زائر.

لكن هذا يدفع الكثير من الهنود إلى محاولة الخروج من دوامة تلك المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بالالتفاف حول مشروع قومى أو كما يسمى هنا «الحلم الهندى».

....

«الحلم الهندى» تجده ماثلا أمامك فى كل مكان.

فمجرد أن تطأ قدماك أيا من مكتبات الهند، تجد تلك العناوين البراقة مثل «القرن الحادى والعشرون سيكون هنديا» للكاتب بافان فارما أو كتاب وزير التجارة الحالى كمال نات الذى وصف بلاده «بمعجزة القرن الواحد والعشرين» بفضل «العبقرية» الهندية.

يمكنك أن تتصفح كتابا آخر تحت عنوان «العقول المتنورة» لجناب الدين عبدالكلام الذى كان رئيسا للهند ويعتبر أبو القنبلة الذرية الهندية.

يقول عبدالكلام فى كتابه إنه واثق من قدره شعبه على «تحقيق أفضل النتائج حول العالم . فلديه مزيج من الإيمان والمعرفة التى تميزه عن أى شعب آخر حول العالم».

«أريد أن أخبر شعبى أن الحلم يمكن أن يكون حقيقة... وأنه يمكن أن يحصل على حياة كريمة: الصحة والتعليم وحرية تحقيق أهداف أفراده.

وبالفعل وجدت الهنود يعملون بجد نحو تحقيق حلمهم الأكبر.

فهناك جهود كبيرة لتحسين جودة التعليم وتطويره، بل إن الكثير من الفقراء باتوا يعتقدون أن وسيلتهم فى الحراك الاجتماعى هى تعليم أبنائهم.

سمعت ذلك من كريشنا رب الأسرة الفقير الذى يسكن فى بيت متواضع بمنطقة عشوائية.

«ربما تريد أن تسمع منى القول بأن أحلامى لا تزيد على تلبية الحاجيات الأساسية كالانتقال إلى منزل أوسع وتوصيل المياه إلى منزلنا.

لكنى أقول لك إن أحلامى أكبر من ذلك . وهذا ما دفعنى أن أحرص على أن يحصل ابنتى وابنى على تعليم جيد أوفر تكاليفه من عملى البسيط وعمل زوجتى بائعة للزهور».

فالابن يدرس علوم الكمبيوتر، والبنت تدرس إدارة الأعمال، فى إحدى الجامعات الهندية التى باتت تتمتع بسمعة عالمية ومستوى جيد.

سياسيا، ليس غريبا أن يبذل الهنود مساعى مكثفة للدخول ضمن الدول الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن، متباهين أيضا بأن بلادهم تحمل أكبر ديمقراطية فى العالم حتى لو تعكر صفوها بعض التجاوزات.

كما أن الهند تملك قنبلة نووية يعتبرها المحللون كافية لدرء التهديد الباكستانى ولو إلى حين. أما فى المجالات الأخرى، فتسعى الهند إلى فرض وجودها، فمؤخرا دخلت الهند عصر الفضاء بإطلاق أول صاروخ لها نحو القمر.

لكن كيف يستمر الهنود فى السعى إلى تحقيق أحلامهم رغم انتشار الفساد والفقر والمرض والجهل وغيرها من تجاوزات؟

ألم تردع تلك التجاوزات شعوبا كثيرة عن تحقيق أحلامها؟ ألم يتذرع البعض فى دولنا العربية مثلا باستحالة بلوغ تلك الأحلام بسبب عوامل داخلية وخارجية؟

فلماذا تنجح الهند فيما يفشل فيه الآخرون ممن يعايشون نفس الظروف ويقعون تحت نفس الضغوط؟

«لدينا ثقة فى النفس، وثقة فى قدراتنا على تغيير أحوالنا إلى الأفضل سواء على مستوى الأفراد أو الشركات أو حتى الحكومة».

هكذا قال لى مورتى وهو صاحب شركة «انفوسيس» واحدة من أكبر شركات الهند لتكنولوجيا المعلومات.

بدا لى مورتى فى حديثه كأنه نهرو الجديد بتواضعه الجم وحياته البسيطة (استقبلنى مرتديا جلبابا أبيض وحذاء صيفيا أقرب إلى الصندل) ... هذه الهيئة تأتى خلافا لأحلامه الكبيرة التى كررها على مسامعى طوال الحديث الذى قدر له أن يستمر عدة ساعات بدلا من نصف ساعة كما كان محددا له.

بدأ هذا الرجل مشواره المهنى كمهندس كمبيوتر بسيط فى فرنسا ثم أمريكا قبل أن يقرر العودة إلى بلاده ليصبح أحد أهم رجال الأعمال الهنود ومليارديرا تتناقل أخباره وسائل الإعلام.

«عندما بدأت عملى فى فرنسا، كنت أحصل على راتب بسيط. لم أكن أتناول غدائى، وفقط كنت أتناول قطعة رخيصة الثمن من الشيكولاتة أسد بها رمقى».

«لكن أحلامى كانت كبيرة وثقتى فى نفسى كبيرة... وهأنذا حققت الكثير منها بعد عشرات السنوات من بدايتى المتواضعة... وعدت إلى وطنى رغم إغراءات العيش فى الغرب».

وهنا ذكرت مورتى بحوار مشابه دار بين الأستاذ محمد حسنين هيكل وبين رئيسة وزراء الهند الراحلة أنديرا غاندى كما ورد فى كتابه «أحاديث فى آسيا».

حين سأل هيكل غاندى عن سبب الانتصار العسكرى الهندى على باكستان أجابت: «ثقة الشعب بالنفس.. المهم أن تكون لدى الشعب ثقة بنفسه».

ولكن من أين جاءت ثقة الهنود بأنفسهم؟

أجابت غاندى: «من إحساس شعب الهند أنه يشارك فى صنع مصيره. فعندما يشارك الشعب يثق وعندما يثق ينتصر».

استمع مورتى إلى الحديث مظهرا اتفاقه مع ما قالته غاندى قبل أكثر من ثلاثين عاما من الآن.

وهنا قلت:

«بالفعل يا سيد مورتى ... لقد وجدت هذه الثقة بالنفس واضحة فيمن قابلتهم بدءا من ذلك الفقير المعدم الحريص على تعليم أولاده، وتلك الفتاة العاملة فى شركتك رغم صغر سنها وقلة خبرتها.

لكن أسمح لى أن أطرح عليك سؤالا أخيرا: ألا يقلل من بهاء تلك الصورة مشاهد الفقر والفوضى المنتشرة حول هذا الفندق الفخم الذى أقابلك فيه؟».

رد مورتى:

«أرجوك أن تأتى لتزور الهند مرة أخرى... فالمشهد هنا يتغير بسرعة ... الأرقام تقول لنا إن الهند ستوظف كل خريجيها فى قطاع تكنولوجيا المعلومات بل وتحتاج المزيد منهم خلال عدة سنوات قليلة.

الخدمات تتحسن ... والكثير من الهنود يعودون إلى أوطانهم فى ظل تحسن تلك الخدمات وتوفير الوظائف ذات المرتبات المجزية ... هم مكسب كبير لنا».

بعدها وقف مورتى مودعا إياى ومبادرا بالقول:

«أتمنى أن تكون قد لمست اللحظة التاريخية التى تنبأ بها نهرو والتى جئت تبحث عنها هنا؟».

وجاءت الإجابة مقتضبة: «ربما!». ■

دعا إلى خطاب عصرى ينسجم مع اللغة التى يفهمها العالم.. وعارض إنشاء تنظيم دولى للإخوان المسلمين

بين القانون والسياسة... والكتب

توفيق الشاوى

رحلة التسعين عاما

■■ ولد الدكتور توفيق الشاوى فى قرية الغنيمية/مركز فراسكور بمحافظة دمياط يوم ٩ المحرم ١٣٣٧ هـ ـ ١٥ أكتوبر ١٩١٨م. وفاضت روحه إلى بارئها يوم الأربعاء الموافق ١٢ ربيع الآخر ١٤٣٠هـ ـ ٨ أبريل ٢٠٠٩ ، بعد رحلة امتدت واحداً وتسعين عاماً قضاها فى عمل دائم، وجهاد لم يفتر، وصبر لم ينفد. وقد حكى لى فيما حكى، قال: «والدى كان فلاحاً يملك عشرة أفدنة فى زمام قرية الغنيمية، وعندما ولدت تمهل كثيراً فى إثبات اسمى فى سجل المواليد، خشية أن أموت سريعاً وأنا طفل صغير، وبلغ تأخره عدة سنوات، ثم سجلنى، وسقطت تلك السنوات من حساب عمرى عند الحكومة».

بدأ الشاوى مشواره الطويل طفلاً صغيراً فى كتاب قريته «الغنيمية» فحفظ نصف القرآن الكريم على يد الشيخ «على حواس»، وهو فى السادسة من عمره. وكانت ميزة كتاب الشيخ على حواس هى رفق هذا الشيخ بالأطفال، وقلة عدد الملتحقين بكتابه وعدم اكتظاظه بهم، الأمر الذى ارتاح له «توفيق»، وجعله يداوم على الذهاب إلى الكتاب، ولا يضيق به ذرعاً، مثلما فعل عباقرة آخرون سبقوه، وصفهم الجاحظ منذ قرون بأنهم «أكيس الصبيان»: أولئك الذين لا يصبرون على عصا الشيخ، ولا يتحملون زحام الأطفال وصخبهم الذى لا ينقطع.

انتقل «توفيق» وهو فى السادسة من عمره إلى مدينة المنصورة ليلتحق بالمدرسة الابتدائية. وفاجأ والده، على غير عادة الأطفال الصغار فى تفضيلهم اللهو واللعب على الجد والتعلم فى أيام الطفولة والصبا، بأن طلب منه أن يختار له شيخاً ليكمل معه حفظ القرآن الكريم بعد أن فارق شيخه «على حواس» وتركه فى القرية. فاختار والده له «الشيخ شمس الدين»، وأتم على يديه حفظ كتاب الله كاملاً قبل أن ينتهى من المرحلة الابتدائية فى المنصورة. ثم انتقل إلى القاهرة فى مطلع الثلاثينيات والتحق بالمدرسة الخديوية الثانوية. وعندما عافاه الله من الالتهاب الرئوى وخرج من مستشفى حلوان، كانت الامتحانات قد انتهت، ونصحوه بأن ينتظر للعام التالى ليستأنف دروسه، ولكنه رفض الانتظار، وأصر على دخول امتحان الملحق فى نهاية الصيف، فدخله ونجح فيه بتفوق. ثم شده الحنين إلى المنصورة فعاد إليها، ليحصل منها على شهادة البكالوريا سنة ١٩٣٧ بترتيب الثالث على المملكة المصرية.

تمنت نفسه الالتحاق بكلية الآداب بجامعة فؤاد (القاهرة الآن)، وخاصة أنه إلى جانب حفظه للقرآن الكريم، كان يحب قراءة كتب الأدب والشعر والتاريخ. وقرأ فى صباه الباكر كتب الإمام محمد عبده، والأفغانى، ودواوين أمير الشعراء أحمد شوقى، وشاعر النيل حافظ إبراهيم، وكتب الرافعى والمنفلوطى، وغيرهم.

ولكن «ما كل ما يتمنى المرء يدركه»: فعمه إبراهيم الشاوى لم يشجعه على ذلك بحجة أنه سيصبح مدرساً مثله إن هو دخل كلية الآداب!، وحثه على الالتحاق بكلية الحقوق بحجة كانت فى ذلك الزمن قوية ومقبولة وهى أن كلية الحقوق هى «التى يتخرج فيها الوزراء والقادة». ولكن الكلية كانت آنذاك تحتاج إلى رسوم قدرها ثلاثون جنيهاً، وأنى للشاوى بثلاثين جنيهاً نهاية الثلاثينيات من القرن الماضى؟!. هنالك نصحه عمه إبراهيم بتقديم طلب للالتحاق بالكلية مجاناً، ففعل وقبل طلبه لتفوقه فى البكالوريا، ومن ثم عاد إلى القاهرة ليواصل دراسته فى كلية الحقوق ويتخرج بتفوق فى سنة ١٩٤٢ وبترتيب الثانى بعد زميله «محمود جمال الدين زكى».

فى كلية الحقوق بجامعة فؤاد حدثت النقلة الكبرى التى حددت معالم حياته حتى نهايتها؛ إذ التحق بجماعة الإخوان المسلمين عن طريق طلاب الإخوان فى الكلية نفسها وهو فى السنة الأولى ١٩٣٧/ ١٩٣٨. وبسبب هذا الانتماء لقى كغيره كثيراً من العنت والمحن.

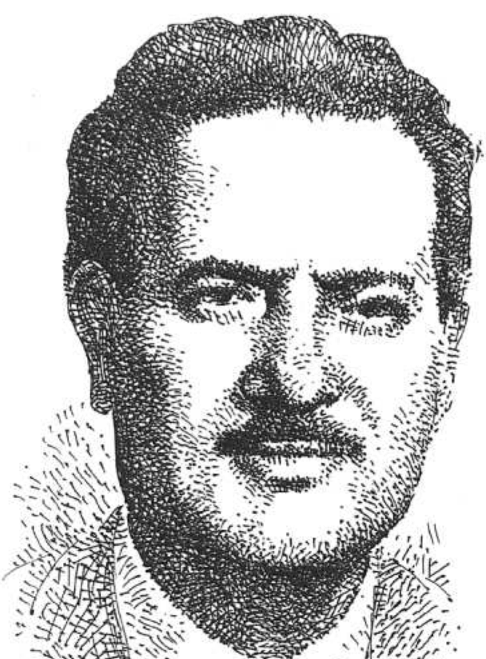
قبل أن يعين مدرساً فى كلية الحقوق بجامعة فؤاد، عمل سنتين وكيلا للنيابة ١٩٤٢ ـ ١٩٤٤، تنقل فيهما بين نيابات المنصورة، والسنبلاوين، والمنزلة. وبعد تعيينه فى كلية الحقوق عاد للقاهرة ليذهب سنة ١٩٤٥هو وزميله محمود جمال الدين فى بعثة دراسية إلى فرنسا؛ وقد نصحه الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين بالعدول عن السفر إلى أمريكا فى بعثة للغرض نفسه؛ حتى يسهل عليه التنقل بين العواصم الأوربية التى كان يقيم فيها بعض قادة الجهاد ضد الاستعمار عامة، والاستعمار الفرنسى فى بلدان المغرب العربى خاصة، وعلى رأسهم الأمير شكيب أرسلان، ومصالى الحاج، وكذلك الحاج أمين الحسينى الذى كان يخضع للإقامة الجبرية فى باريس بسبب اتهامه بالتعاون مع دول المحور أثناء الحرب العالمية الثانية.

حصل الشاوى على دكتوراه الدولة من جامعة فى باريس سنة ١٩٤٩ فى موضوع «النظرية العامة للتفتيش فى القانون الجنائى الفرنسى والمصرى». وقد نالت هذه الرسالة جائزة التفوق من جامعة باريس، ونشرتها جامعة فؤاد (القاهرة) سنة ١٩٥٠م ـ ١٣٧٠هـ مع مقدمة للبروفسور هوجينى أستاذ القانون الجنائى بجامعة باريس، كتبها تقديراً لتفوق الشاوى فى رسالته. وعاد الشاوى من باريس سنة ١٩٥٠ ليستمر فى عمله أستاذاً بحقوق القاهرة إلى أن فصل واعتقل مع من تم فصلهم من الجامعة واعتقالهم سنة ١٩٥٤.

دعا إلى انتهاج «الدعوة» بعيدا عن السياسة و«الحزبية» تجنبا للتوتر الدائم دون مبرر مع السلطات الحاكمة

«نصف قرن من العمل الإسلامى ١٩٤٥ ـ ١٩٩٥».
دار الشروق
القاهرة: ١٩٩٨

إبراهيم البيومي غانم



كاتب هذه السطور بعيد كل البعد عن الاعتقاد بأن عالماً ما مهما علا كعبه في العلم والاجتهاد منزه عن الخطأ، أو أن آراءه صحيحة وآراء غيره خطأ على طول الخط. فالكل يجتهد ويخطئ ويصيب. ولكن المقام الحالي قد لا يسمح بالتطرق إلى آراء العلامة الشاوي بمنهجية نقدية، هذا من جهة ، وليس من اليسير أيضاً ـ من جهة أخرى ـ الحديث عن أي جانب من جوانب سيرة الرجل بمعزل عن بقية جوانبها.

بدأ الشاوي انخراطه في العمل العام بالتحاقه بجماعة الإخوان المسلمين وهي تخطو خطوتها الثانية «سنة ١٩٣٨» بالدخول المباشر في معترك الحياة السياسية، استناداً على قاعدة واسعة من طلاب الجامعة؛ حتى أطلق عليها في الأربعينيات من القرن الماضي «حركة الأفندية» لكثرة الذين اجتذبتهم من طلاب الجامعة المصرية الحديثة، وليس من جامعة الأزهر العتيقة على ما كان متوقعاً من حركة تدعو الناس إلى العودة إلى منابع الإسلام الصافية باعتباره ديناً ودولة، ومصحفاً وسيفاً مسلطاً على رقاب الاستعمار الأجنبي.

عمل الشاوي أول ما عمل في صفوف الإخوان المسلمين في «قسم الاتصال بالعالم الإسلامي» الذي أنشأته الجماعة لمتابعة قضايا التحرر والجهاد ضد الاستعمار. يقول الشاوي في مذكراته: «نصف قرن من العمل الإسلامي ١٩٤٥-١٩٩٥»: عندما كنا نتكلم عن إحدى قضايا العالم الإسلامي فإنها كانت جميعاً في نظرنا قضية واحدة؛ هي قضية الوحدة والحرية للمسلمين جميعاً ... وكانت أولها وأهمها قضية فلسطين».

في سبيل حرية فلسطين أنفق الشاوي قسماً من جهده وبذل من أجلها جانباً من جهاده، وكانت البداية في منتصف الأربعينيات عندما أسندت إليه قضية فلسطين كمهمة أساسية له في «قسم الاتصال بالعالم الإسلامي». وقبل أن يسافر إلى باريس في البعثة أفهمه الشيخ حسن البنا «أن قضية فلسطين ستبقى هي مهمته الأولى». وكانت أولى مهماته أن يتصل بالحاج أمين الحسيني حيث هو في مقر إقامته الجبرية في باريس، وذلك بدءاً من سنة ١٩٤٦، ونجح في توثيق صلته بالإخوان إلى أن نجح في تهريبه إلى مصر بمعاونة بعض الشخصيات من جنسيات مختلفة، لم يفصح الشاوي عن أسمائهم إلى أن لقي ربه. ثم واصل الشاوي جهاده في سبيل تحرير البلدان العربية، وخاصة: فلسطين، وليبيا، وتونس، والجزائر، والمغرب، وسجلت لنا مجلة الرسالة لصاحبها أحمد حسن الزيات أن مقارعة الاستعمار كانت هم الشاوي منذ أول مقالة ينشرها في الصحف والمجلات. كانت المقالة الأولى بمجلة الرسالة عن فلسطين، وكانت الثانية عن الجزائر بعنوان ثم كانت الثالثة عن قضية ليبيا بعنوان، وطن الأحرار في سوق العبيد، (الرسالة ـ العدد ٧٣٥ ـ ٨ سبتمبر ١٩٤٧)، ثم توالت المقالات والكتابات وتنوعت بمرور السنين، وتغير الأحوال، ولكن موضوعها الأساسي ظل ثابتاً وهو «المرافعة عن حقوق الأمة، في شرقها وغربها، والدفاع عن حقها في الحرية والاستقلال». ويبدو أن هذه القضية الكبرى قد استولت على حياة الشاوي، حتى إنه سخر مكتبه للمحاماة «٢٥ شارع طلعت حرب ـ القاهرة» للترافع عن قضايا الأمة، وليس عن قضايا المواطنين وأصحاب المظالم، لم أره قط يحضر مرافعة في قضية أمام أي محكمة أبداً!.

انتقل الشاوي سنة ١٩٥٨ إلى المغرب بناء على طلب من الملك محمد الخامس وحكومته ليعمل مستشاراً بالمجلس الأعلى للقضاء، وكان حلقة الوصل بين المغرب وزعماء الثورة الجزائرية الذين اعتقلتهم فرنسا، وظل وسيطاً بينهم وبين القادة المغاربة لحين الإفراج عنهم وإعلان استقلال الجزائر سنة ١٩٦٣ . وباستقلال الجزائر انتقل إليها، وعين مستشاراً للمكتب السياسي لقادة الثورة برئاسة بن بيلا، ومحمد خيضر. وفي الجزائر أيضاً، وبعد عدة سنوات، طرح فكرة إنشاء اتحاد للكتاب والمفكرين في ندوة «قضايا المستقبل» سنة ١٩٩٥، ثم تطورت هذه الفكرة بعد ذلك على يد عدد من العلماء كان في مقدمتهم الشيخ يوسف القرضاوي، إلى أن تأسس «الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين» سنة ٢٠٠٤.

وظل قادة التحرر وزعماء الإصلاح في تونس والجزائر والمغرب يقدرون الشاوي ويجلونه، ويعرفون قدره، ويشكرون جهاده ووقوفه إلى جانب قضايا بلدهم لعقود طويلة. (حديث الرئيس أحمد بن بيلا مع قناة الجزيرة).

في السبعينيات عاد «الدكتور الشاوي» للتدريس في الجامعة المصرية بكلية الحقوق ، أستاذاً ورئيساً لقسم القانون الجنائي. كما عمل في عديد من الجامعات العربية منها جامعة الرباط بالمغرب، والرياض والملك عبد العزيز بالسعودية، وشارك منذ وقت مبكر في مطلع السبعينيات من القرن الماضي في تأسيس المدارس العربية الإسلامية الدولية، والاتحاد العالمي لتلك المدارس التي انتشرت في عديد من البلدان خارج السعودية مثل مصر، وامتد نشاطها إلى بعض البلاد الأفريقية. ولم تكن هذه هي أهم أعماله في هذا الميدان؛ بل أهم أعماله هي مؤلفاته وكتاباته الغزيرة التي تعتبر ثروة فكرية وفقهية وسياسية قل نظيرها لدى أي من العلماء والمفكرين خلال نصف القرن الماضي. والقائمة طويلة تحتاج إلى صفحات، فقط نشير إلى أن من أهمها في مجال الفقه السياسي، والتشريعي المعاصر الآتي:

١. كتاب «فقه الشورى والاستشارة»، الذي نشرته دار الوفاء في طبعتين سنة ١٩٩٢. (٧٤٠ صفحة).

٢. ترجمة كتاب «الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية»، وهو في الأصل رسالة الدكتوراه الثانية التي حصل عليها الدكتور عبد الرزاق السنهوري من جامعة ليون بفرنسا سنة ١٩٢٦ ، وقد نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب في طبعتين سنة ١٩٩٣، (٣٧٢ صفحة).

٣. كتاب «فقه الحكومة الإسلامية بين السنة والشيعة وقراءة في فكر الثورة الإيرانية»، وفيه تعليقات على كتاب الخميني «الحكومة الإسلامية»، وفيه أيضاً انتقادات لبعض الأفكار والاجتهادات التي طرحها الخميني في كتابه، إلى جانب مقارنات رصينة بين الفقه السياسي الشيعي، والفقه السياسي السني.

٤. كتاب «الموسوعة العصرية في الفقه الجنائي الإسلامي»، وقد انتهى من المجلد الأول فقط في أربعة أجزاء، نشرتها دار الشروق سنة ٢٠٠١، (بمجموع ١٥٩٢ صفحة). وهو ثروة فقهية وقانونية، رغم أنه لم يتمكن من إكماله، وقد وضع مخططا كاملاً للأجزاء والمجلدات الباقية، ولا زلت أحتفظ بهذا المخطط، وقد أراد أن يقدم شرحاً وتأصيلاً لكتاب التشريع الجنائي

توفيــــق الشـــاوى



لعبد القادر عودة. وفى هذه الموسوعة قدم العلامة الشاوى نموذجاً فى التأليف وإذكاء المطارحات الفقهية والقانونية بين عدد من العلماء منهم الدكتور محمد سليم العوا، والعلامة السيد إسماعيل الصدر الفقيه الشيعى الإيرانى الأصل. وفى هذه الموسوعة خطا الشاوى خطوة واسعة على طريق حل معضلات تقنين الاجتهادات الفقهية وتحويلها إلى مدونات قانونية يسهل على القضاة الرجوع إليها، والاستضاءة بها فى أحكامهم، وفى تنزيل تلك الأحكام على الوقائع المتغيرة.

ليس بوسعنا هنا الخوض فى مضمون كل كتاب من هذه الكتب الأربعة الضخمة. فقط نشير إلى أن كتاب «فقه الشورى والاستشارة» قد أعاد صوغ «النظرية العامة للشورى» وقدم نقلة نوعية هائلة فى الفكر السياسى الإسلامى المعاصر. ولفترة طويلة فى المستقبل، سيظل هذا الكتاب مرجعاً أساسياً للعلماء والباحثين وقادة الحركات الإسلامية؛ نظراً لجدة الاجتهادات التى تضمنها، ولعمقها ورسوخ جذورها الشرعية، واستيعابها للقضايا المركزية التى تواجه العالم الإسلامى المعاصر.

اللافت فى هذا الكتاب الضخم (٧٤٠صفحة) هو أن أغلب ما فيه جديد وغير مسبوق، ولا تكرار فيه رغم ضخامة حجمه. ومن جديده: التفرقة بين «الشورى والاستشارة». فالشورى عنده عملية تتعلق بشأن عام من شئون المجتمع والدولة وتنتهى بقرار ملزم فى جميع الحالات. أما «الاستشارة» فهى عملية بناء الرأى، وتثقيف الذهن، وتنوير العامة والخاصة بأمر من الأمور، ولا تفضى إلى قرار ملزم، وإنما توفر عدداً من البدائل التى يمكن الاختيار من بينها، وتؤهل الذين يشاركون فى اتخاذ القرار -باختلاف مستوياتهم- لحسن الاختيار والتقدير؛ هذه التفرقة تفتح الباب لأول مرة فى تاريخ البحث الفقهى والسياسى للتعامل مع الشورى من منظور اجتماعى، وتربوى، ودستورى فى آن واحد، وبذلك تخرج نظرية الشورى من أسر نظرية الاستبداد التى أسهم فقهاء السلاطين فى تأسيسها، كما تخرج من قمقم الأسئلة البائسة التى حبستها أزمنة طويلة فى الجدل الاستبدادى حول إلزاميتها للحاكم من عدمها.

ومن جديده فى هذا الكتاب أيضاً التمييز بين «الشورى فى الفقه»، و«الشورى فى السياسة»، والكشف عن أن «الحرية» هى المبدأ الأعلى للشورى والاستشارة فى مختلف المجالات، والربط بين «الشورى»، و«شرعية السلطة»، والنظر إلى الشورى على أنها «نظرية المستقبل» فى مختلف النظم السياسية فى العالم، وليس فقط فى البلدان العربية والإسلامية. ولن نستطرد فى تفاصيل أطروحات الشاوى ومطارحاته حول «فقه الشورى والاستشارة» فهى فى الكتاب لمن أراد الرجوع إليها. ولكن ما قصة تأليف هذا الكتاب؟ ومن أين جاءت للشاوى فكرته، وكيف تطورت حتى نضجت فى ٨٤٠ صفحة؟

موجز القصة هو أن الشاوى أثناء بعثته فى فرنسا سنة ١٩٤٦ عثر فى الحى اللاتينى على نسخة من كتاب «الخلافة الإسلامية» بالفرنسية، وهو رسالة الدكتوراه الثانية التى نالها الدكتور عبد الرزاق السنهورى من جامعة ليون سنة ١٩٢٦، وشرع الشاوى فى قراءتها، ثم فى ترجمتها إلى العربية على مراحل، بعد أن بهرته مهارة السنهورى فى بحث قضية الخلافة -التى كانت قد ألغيت من تركيا سنة ١٩٢٤ أى قبل عامين فقط من تاريخ حصول السنهورى على رسالته سنة ١٩٢٦- وأخذ الشاوى يسجل ملاحظاته وأفكاره حول قضية الشورى على هوامش الترجمة، وعاشت معه الترجمة والتعليقات فى حله وترحاله مدة خمس وأربعين سنة، وبمرور الوقت تراكمت الهوامش فيها وتكاثرت الأفكار، وزادتها الأيام وضوحاً ونضجاً. وخشى الشاوى أن تطغى هوامشه على كتاب السنهورى، أو أن تشوش عليه، لذلك قرر فصلها عن كتاب «الخلافة» وتقديمها فى كتاب مستقل عن «الشورى».

لب لباب ما قدمه السنهورى فى كتابه «الخلافة» هو أنه ثبت أصل أصول الفكر السياسى الإسلامى المتمثل فى «أن الخلافة واجب دينى لا يجوز للأمة أن تقصر فيها». هذا من جانب، ودحض من جانب آخر الانتقادات التى وجهت لهذا الأصل بضراوة بعد إلغاء الخلافة، وخاصة ما جاء فى كتاب الشيخ على عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم». وخلص السنهورى إلى وجوب التمييز بين ما أسماه «الخلافة الناقصة»، و«الخلافة الصحيحة». ووجد أن الفرق بين النوعين هو «الشورى»: فحيثما وجدت فثم الخلافة الصحيحة، أو الحكم الرشيد -دون تشبث بلفظ الخلافة- وحيثما فقدت الشورى فثم «الخلافة الناقصة» أو الحكم المستبد.

هنالك برقت فى ذهن الشاوى فكرة أن «الشورى» هى أول أبواب البحث فى نظام الحكم الرشيد، ولكن مع تقدمه فى البحث وصل إلى أن «الشورى هى الأصل، والخلافة فرع عليها»، وشرح كيف أن الشورى مبدأ ثابت لا يتغير، والخلافة هيكل يسرى عليه التغيير ويطاله التطوير. وعلى طول كتابه نراه يتفق ويختلف مع أستاذه السنهورى، ومع غيره من الفقهاء والمفكرين، ونراه يدحض ويثبت، ويقيم حججه على رأيه، ويحضر شهود إثبات يشهدون له، وهو فى كل ذلك ملتزم بأدب العالم والمتعلم، مراعياً لأمانة العلم وأناة الفقيه. وفى نهاية المطاف أنبأنا أن الشورى ترتكز على مبدأ الحرية، وأن الحرية هى أعظم ما جاء به الإسلام لإقامة الحكم الرشيد، وأنه يجب أن يعود فقه الحكومة فى عصرنا إلى الشورى؛ «أى إلى سلطان الأمة»، وأن المستقبل فى هذا الاتجاه، شاء من شاء، وأبى من أبى.

وفى مجال الكتابة الأدبية والإبداعية ألف الشاوى مجموعة أخرى لها طابع خاص، لعل من أهمها على الإطلاق ثلاثة أعمال هى:

١. مذكراته «نصف قرن من العمل الإسلامى ١٩٤٥ - ١٩٩٥»، وقد نشرتها دار الشروق، فى ٥٦٧ صفحة سنة ١٩٩٨.

٢. رواية «هندى فى السجن الحربى»، نشرتها دار التوزيع والنشر بالقاهرة سنة ٢٠٠١.

٣. رواية «كمين فى مطار بيروت»، نشرتها دار التوزيع والنشر بالقاهرة سنة ٢٠٠١.

وله عمل لم يكتمل للأسف كان يزمع تسميته «عثرات وعصايات». وكل هذه الأعمال لا تروى خيالات أدبية مجردة، ولا تسجل تأملات ذهنية نظرية، وإنما مادتها الأساسية هى وقائع حياتية، تصور المرحلة التى عاشها، وتكشف عن جوانب من الأحداث التى عاصرها، وشارك هو فى صنعها، وخاصة فى ميادين الجهاد، وحركات التحرر من الاستعمار الأجنبى فى شمال أفريقيا.

لم يهتم الشاوى كثيراً بسيرته الذاتية، ولا نكاد نجد فى «مذكرات نصف قرن من العمل الإسلامى» شيئاً عن وقائع حياته الشخصية؛ فقط نجد وقائع مسيرته فى محيطه الاجتماعى والسياسى الذى انخرط فيه، وحمل همومه، وانشغل بقضاياه. صحيح أن مادة هذه الوقائع جامدة، ولكنه استطاع أن يصوغها فى قوالب أدبية بديعة، تؤهلها للتصنيف ضمن الأعمال الأدبية بامتياز، وقد تجد فى يوم من الأيام من يحولها إلى فيلم أو مسلسل درامى، تراجيدى أو كوميدى، أو ميلودراما أيضاً.

فى مذكراته «نصف قرن من العمل الإسلامى١٩٤٥ - ١٩٩٥»، نجد القصة الكاملة لجهاده الطويل من أجل الحرية لبلده مصر، ولكل بلدان العالم الإسلامى، وخاصة بلدان شمال المغرب العربى كما ذكرنا. وهذه المذكرات ليست كغيرها من المذكرات التى يكتبها بعض السياسيين والزعماء والعلماء؛ إذ نجدهم فى الأغلب الأعم يسهبون فى قصص وحكايات طويلة بلا طائل، وذاتية/شخصية تطرح فى نفس القارئ هواجس وما هو أكثر من الهواجس حول الهدف من كتابة المذكرات أهو لإثبات «الأنا الذاتية»، أم لاستخلاص عبرة الحياة، ودروس الزمن من منظور الجماعة الأكبر، والأمة التى ينتمى إليها أصحاب المذكرات.

مذكرات الشاوى هى عبارة عن عمل إبداعى بكل ما تحمل الكلمة من معنى،

فــــى كتــــــــاب
«فقـــه الشـــورى والاستشـــارة»
أعاد صوغ «النظرية العامة للشورى» وقدم نقلة نوعية هائلة فى الفكر السياسى الإســـــلامى المعاصـــر

رغم أنها تسجل مسيرته الحياتية فى ميادين الجهاد الفعلى، والكفاح الدائم لمصاعب الحياة، وصروف الدهر. وإذا كان جلال أمين يقول إن تجربة حياة كل منا يمكن أن تشكل قصة رائعة تستحق أن تروى، وأنها تحتاج فقط إلى يد نحات ماهر يشذبها ويحدد معالمها كأنه يحدد معالم تمثال جميل، فإن الشاوى فى مذكراته قد كشف لنا عن موهبة أخرى لا يعلمها كثير من الناس وهى أنه مبدع وأديب، وروائى من الطراز الأول. ورغم أن مادة هذه المذكرات هى مثل الجرانيت الصلد : إلا أنه استطاع أن يشكلها فى صورة بارعة وصادقة.

للشاوى كتب وكتابات أخرى كثيرة فى مجال تخصصه الدقيق «القانون الجنائى»، وفى مجال الاقتصاد والبنوك الإسلامية، وفى السياسة الدولية، وفى تحليل ميكيافيلية السياسة الأمريكية تجاه العالم العربى تحديداً له كتاب «الدبلوماسية والميكيافيلية فى العلاقات العربية الأمريكية»، الذى صدر فى طبعتين: الأولى باسم مستعار هو «الدكتور محمد صادق»، من منشورات دار العصر الحديث فى بيروت سنة ١٩٧١، والثانية باسمه الحقيقى نشرتها الدار السعودية للنشر سنة ٢٠٠٦.

قلنا إنه ليس من اليسير الحديث عن أى جانب من جوانب سيرة العلامة الشاوى بمعزل عن بقية جوانبها، وينطبق هذا أكثر ما ينطبق على الجانب الخاص بعلاقته بالحركات الإسلامية عامة، وبجماعة الإخوان المسلمين خاصة. فانخراطه مع حركات التحرر الوطنى، واشتغاله بالعلم والتأليف والتعليم، وعمله فى صفوف الحركة الإسلامية، كانت كلها جهودا مترابطة، يؤدى أحدها إلى الآخر ولا ينفك عنه.

التحق الشاوى بجماعة الإخوان، كما أشرنا سابقاً، فى بداية دراسته الجامعية بكلية الحقوق جامعة فؤاد(القاهرة) سنة ١٩٣٧/١٩٣٨، وانضم إلى «قسم الاتصال بالعالم الإسلامى» بالجماعة أيام حسن البنا، وتولى ملف فلسطين، ثم ملف شمال المغرب العربى. وأصبح عضواً بالهيئة التأسيسية لجماعة الإخوان. ولا نعرف فى أى سنة بدأت عضويته بها. وظلت عضويته قائمة رسمياً إلى أن حلت الجماعة سنة ١٩٥٤ . وكانت «الهيئة التأسيسية» قد ظهرت ضمن تشكيلات الجماعة بموجب مقررات مؤتمرها العام الثالث سنة ١٩٣٥، واعتبرت «الهيئة» أعلى سلطة فى الجماعة، وخاصة فى مسألة اختيار من يشغل منصب المرشد العام.

وبصفته «عضواً» بأخر تشكيل للهيئة التأسيسية قبل قرار مجلس قيادة الثورة بحل الجماعة سنة ١٩٥٤، تدخل الدكتور الشاوى منضماً إلى الأستاذ عمر التلمسانى، والأستاذ محمد حامد أبو النصر مرشدى الإخوان السابقين، فى الدعوى رقم ١٣٣ لسنة ٣٢ قضاء إدارى، للمطالبة بإلغاء قرار مجلس قيادة الثورة بحل الإخوان. وكانت وجهة نظر الدكتور الشاوى التى برر بها انضمامه هى أن عضويته بالجماعة وبهيئتها التأسيسية، تجعل له «صفة» تسوغ له المطالبة قانوناً بإعادة جماعته، وإلغاء قرار الحل لأنه تسبب فى الإضرار به شخصياً، ومن ثم يكون تدخله فى القضية «من ذى صفة وصاحب مصلحة» بنظر القانون، ولكن الشاوى ـ رحمه الله ـ كان يعلم تمام العلم أن المسألة ليست «قانونية» بقدر ما هى سياسية فى المقام الأول.

كان للشاوى ـ رحمه الله ـ فكرتان دعا إليهما منذ وقت مبكر جداً، ولعل الأخذ بهما كان من شأنه تحقيق كثير من المصالح ودرء كثير من المفاسد:

١. فكرة إنشاء «هيئة إسلامية عالمية لحقوق الإنسان»، وقد قدم فكرته هذه إلى الإخوان المسلمين فى نهاية السبعينيات . وكانت الجماعة آنذاك تعيد ترميم نفسها، وتتطلع إلى تكوين تنظيم دولى . أن يؤسسوا كياناً دولياً باسم «الهيئة الإسلامية الدولية لحقوق الإنسان» عوضاً عن فكرتهم التى كانوا يعدون لها فى ذلك الوقت وهى إنشاء «التنظيم الدولى للإخوان المسلمين». وقال لى ـ بعد أن تعرفت عليه ـ إذا أنشأ الإخوان هيئة عالمية لحقوق الإنسان، سيحققون مكاسب كبيرة جداً للدعوة الإسلامية، وسيجنبونها كثيراً من الهجمات؛ وخلاصة حججه التى استند إليها فى رأيه هذا هى كالآتى:

أنه يتوقع ـ ولاحظ أنه يتحدث فى مطلع الثمانينيات من القرن الماضى ـ أن تتصاعد قضايا حقوق الإنسان عالمياً، وإقليمياً ومحلياً، وأن من مؤشرات ذلك اهتمام إدارة الديمقراطيين برئاسة الرئيس جيمى كارتر بهذه القضية. وأن إنشاء هيئة إسلامية عالمية لحقوق الإنسان ستبرز العمق الإنسانى للإسلام وعظمته وسبقه فى تقريره لهذه الحقوق، وحمايتها، كما ستقدم للعالم خطاباً ينسجم مع اللغة التى يفهمها العالم، ولكن من منظورنا الإسلامى، وأنها ستوجد مجالاً للتعاون مع القوى العالمية من أجل الدفاع عن حقوق الإنسان فيكون قبولها لنا أيسر، واندماجنا فيها أسهل. كما أن إنشاء هيئة عالمية إسلامية لحقوق الإنسان فيه إشارة إلى حجم الظلم الذى عانى منه الإسلاميون أكثر من غيرهم نتيجة انتهاك السلطات الاستبدادية لحقوقهم منذ عقود طويلة. وأنه إذا أنشأ الإخوان هذه الهيئة، فإنها ستكون خير سفير لهم، ولدعوتهم عبر العالم فى الحاضر وفى المستقبل، انطلاقاً من قول الله تعالى: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».

أما إنشاء «تنظيم دولى للإخوان» فسيكون «تهمة جاهزة» لأن من شأنه ـ حسب رأى العلامة الشاوى قبل أن ينشأ هذا التنظيم فى مطلع الثمانينيات ـ أن يوفر «ذريعة» ستستخدمها السلطات فى البلدان العربية والإسلامية، وغيرها من البلدان، كى تضع الإخوان تحت طائلة القانون، وتتهمهم بالخروج على الشرعية، والقيام بأعمال يحظرها القانون؛ لأنهم لن يتمكنوا من تسجيل تنظيمهم الدولى هذا لدى أى جهة فى أى دولة مهما كانت مساحة الحرية واسعة فيها، سواء فى أوربا أو فى أمريكا؛ بعكس ما لو سعوا لتسجيل هيئة عالمية لحقوق الإنسان؛ إذ يمكنهم تسجيلها بسهولة، وتكون قانونية، ولو شاءوا لسجلوها كمنظمة استشارية تابعة للأمم المتحدة.

وما توجس العلامة الشاوى خيفة منه، حدث، وحدث بضراوة فى بعض الحالات.

ميز فى كتابه
بين «الشورى فى الفقه»،
و«الشورى فى السياسة»،
جاعلا منها أساسا
لـ «شرعية السلطة»

٢. فكرة تمييز الدعوة الإسلامية عن العمل السياسى

خلاصة فكرته هذه هى: أن «تمييز الدعوة الإسلامية عن النشاطات الحزبية هو هدف استراتيجى لا يجوز أن نتخلى عنه، أو أن نفرط فيه».. وقال فى مذكراته «إن جوهر حركتنا هو الدعوة الإسلامية. وإذا خيرنا بين الدعوة وبين الحزبية، فلا شك أننا نختار العمل فى نطاق الدعوة الإسلامية، ولو اقتضى الأمر اجتناب النشاطات التى تقصرها القوانين الوضعية على الأحزاب السياسية».

هذا الرأى بات يردده كثيرون دون أن يعرفوا أن الشاوى هو صاحبه الأول، وقد أخذت به حركات إسلامية فى بلدان عدة، وأحرزت نجاحات ملحوظة على طريق الإصلاح، والخروج من حالة التوتر الدائم دون مبرر مع السلطات الحاكمة، وفى مقدمتها: تركيا، والمغرب، والأردن، وإلى حد ما اليمن، والكويت، إلا إخوان مصر. وكان العلامة الشاوى فى طرحه هذه الفكرة بعيد النظر غاية البعد، عندما نبه فى بداية التسعينيات من القرن الماضى إلى القيود التى قد تفرضها السلطة على إنشاء الأحزاب وعلى النشاط الحزبى مثل «النص على عدم استنادها إلى عقيدة دينية»، وهو ما حدث بالفعل فى التعديلات الدستورية التى جرى الاستفتاء عليها فى ٢٦ مارس ٢٠٠٧، حيث أضيفت فقرة إلى المادة الخامسة من الدستور تقول: وللمواطنين حق تكوين الأحزاب السياسية ، وفقا للقانون ، ولا تجوز مباشرة أى نشاط سياسى أو قيام أحزاب سياسية على أى مرجعية أو أساس دينى ، أو بناء على التفرقة بسبب الجنس أو الأصل».

كانت هذه الرؤية بعيدة النظر للعلامة الشاوى واحدة من رؤى أخرى عديدة وبعيدة النظر أيضاً، قالها باكراً فى الوقت المناسب، ولكنها لم تجد طريقها للتطبيق.

بقيت إشارة إلى رصيده فى ميدان العمل الخيرى، والإيجاز هنا أولى من الإسهاب، إكراماً لرغبته فى أن يستر صدقاته. وغاية القول هو أن أقل صدقاته معروف، وأكثرها خفى لا يعلمه أحد من الناس.

رحل الشاوى عن دنيانا بعد رحلة طويلة من الجهاد المتواصل، والاجتهاد المضنى، والتجديد الخلاق. وترك ثروة من المؤلفات القيمة تستحق أن تصدر فى صورة «مجموعة الأعمال الكاملة للدكتور الشاوى» لتكون فى متناول الأجيال الجديدة، على غرار الأعمال الكاملة لرواد الإصلاح والتجديد من أمثال الإمام محمد عبده، والأفغانى، وعلى مبارك، والطهطاوى وغيرهم. ■

رحلة فى الأعماق

■ ■ «لكل داء دواء يستطب به
إلا الحماقة أعيت من يداويها»

إذا كانت الحماقة عصية على العلاج كما قال الشاعر، مما دفع أحد المؤلفين المرموقين أن يتتبع «أخبار الحمقى والمجانين»، فما بال إبراهيم الكندرى يستظل بوحيها فى هذه المجموعة؟ هذا هو التساؤل الذى يبديه قارئه للوهلة الأولى، كما يجعل الإجابة عنه من الصعوبة بمكان، وسنحاول الدخول إلى عالمه بحثا عن بصيص من الضوء يساعدنا على قضاياه التى يعالجها فى هذه المجموعة.

يقودنا إبراهيم الكندرى فى رحلة متعددة الجوانب، ويخلع على كل جانب منها سمة الحماقة، الأمر الذى شهد لمصداقية العنوان، والفضاءات التى يرتادها المبدع فى هذه المجموعة تشكل ثنائية: الداخل/الخارج، والداخل ينشعب إلى دائرتين هما: الحبيبة، وذات الشاعر، وهاتان الدائرتان هما المسيطرتان على فضاء النص، أما الخارج فهو الذى يجىء عرضا وفى حدود، ويتشعب هو الآخر إلى دائرتين، الأولى: الوطن والأمة معا فى دائرة واحدة، والثانية هى: العصر الذى يعيش فيه المبدع، والملاحظ أن هذه الثنائية فى دوائرها الأربع خاضعة لسيطرة الحماقة.

ولما كانت قصة الحب هى كبرى الحماقات فقد كانت حاضرة منذ البداية حتى النهاية، وفى ظلالها تنسرب جميع الحماقات فى الدوائر الأربع، هكذا «ثلاث ساعات منذ الرحيل»، تبدأ معاناة الزمان فى محاولة لاستعادته، كما يشتهى المبدع، «أو ربما كما ينبغى»، وهو استدراك من أجل الأفضل كما تقرره الحقيقة. فيبدأ الزمن - كما يقول إبراهيم - بـ«فصل مجنون/ من فصول قدرى المصاب بالحمق إلى حد الجنون»، فأول الرحلة إذن مصوب إلى الداخل، وهذا أول هجاء فى العمل الأدبى، ويتوجه إلى ذات المبدع.

وإبراهيم الكندرى فى استعادته للزمن يعمل على تثبيت لحظات السعادة، حيث تستحم محبوبته بصوته المبحوح على الهاتف، ينساب بشعر لنزار قبانى أبرز شعراء الغزل فى عالمنا العربى، ناشدا أن يكون قربها، فيذوبان. كما يقول: «قطعتى سكر»، وهو تعبير من مفردات نزار، ولأهمية نزار فى رؤية إبراهيم للحبيبة، يعود قبيل النهاية إلى «قصائد نزار التى لم يفهمها أحد فى حب بلقيس» فى مضاهاة بين حبين، كما يستعين على حبه بصوت «فيروز» هذا الصوت الذى لا نظير له فى روحانيته وشفافيته فى واقعنا العربى، أما أن يزج إبراهيم الكندرى بالشاعر «مظفر النواب» فى هذا السياق فهو خارج عن المسار الذهنى، فالمشهور عنه حملته على الأمة العربية وتقاعسها عن إنقاذ القدس كرمز للقضية الفلسطينية، وكان سياقه الطبيعى أن يؤخره إبراهيم الكندرى إلى حملته على الأمة - مع الوطن - حين قال: «سأضحك من حبى للوطن / للأمة العربية / للوحدة / للنصر المزعوم بعته / ووحل الهزيمة»، وهنا موقع مظفر النواب كما تقتضيه سلامة العمل الدرامى.

مع ملاحظة أن إبراهيم الكندرى فى هجائه للوطن والأمة - ونعتبرهما دائرة واحدة - لا يجمعه فى مكان واحد، بل يوزعه على مسافات الرحلة الممتدة فى الزمان والمكان - وهما إحدى الثنائيات - فيقول فى أوائل النصف الأخير من العمل مخاطبا المحبوبة: «ثم أعود لأبكيك / كما النساء / لأننى رجل، أبى رزين، محترم، مؤدب، ذو شخصية قوية، وكبرياء/ لأننى رجل عربى ببساطة / بكل ما تحمله الكلمة / من حماقة»، ثم بعد ذلك بمسافة طويلة، قبيل النهاية بقليل يعود إلى فقد قدرته «على التواطؤ مع الجميع / فى حب الأرض / الوطن / العلم / النشيد الوطنى».

ومثل هذا التوزيع على مسافات متباعدة ومتعددة يجىء هجاؤه للعصر، ففى البدء يجعل «الحماقة/ هى الوقوف بإباء فى عصر الأغبياء/ مقارعة البلاهة بالحجة/ أو الحجة بالبلاهة»، ثم بعد مسافة طويلة فى النص يتحدث عن عجزه وعدم جرأته على الرحيل مع عبق المحبوبة «خوفا من المغامرة/ أو تملقا لعادات مجتمع ردىء»، وفى النصف الأخير من النص يسرق من لمسة يد الحبيبة «لحظات بطعم النبيذ/ فى زمن ردىء/ تعيننى على جوره»، ونرى من هذا التوزيع، كل هذه الهجاءات على دوائر الوطن، الأمة، والعصر، تأتى متناثرة فى ظلال الحماقة الكبرى والأساسية، وهى علاقة الذات بالمحبوبة، وهى التى تعلو وتنخفض، وتتأرجح فى الزمان والمكان بين المديح والهجاء ويدرك القارئ المتمرس أن حماقات الدوائر الصغرى تنبع أساسا من سلبيات الدائرة الأم، ومن هنا جاءت كلها مصبوغة بالهجاء.

ولأن علاقة الحب هى المتجذرة، ظلت الذات تلاحقها فى دورانها بين الزمان والمكان، وهى بين الحين والحين تومئ إلى ومضات مبعثرة فى المدارات المتنائية، وكلما تقدمنا فى الرحلة تلاقينا مع طعم الرمان فى الشفتين والأنف، ولون الفستان، وصدرها المغرى، ومراقبة عينيها، وهى إضاءات جعلت السكون صاخبا، وأخذ فى رقصة التانجو، وتقودنا هذه الومضات إلى الانفجار الكبير فى الألق النفسى «حين اللمس» الذى يعمل عمل السحر، فيتكرر «اللمس» ثمانى مرات، مصحوبا فى كل مرة بدفقة نورانية متلألئة، والجميل فى التعبير أن يعتمد «اللمس» فى كل مرة على الفعل المضارع الذى يسيطر من ثلاثية الزمن على الحاضر، دون أن يغلق الباب على المستقبل، ومع اللمسات الثمانية يتلاحق المضارع حتى يتجاوز الخمسين، وقد يجىء على التوالى دون فاصل «أواصل الحديث/ أسأل، أنام، أصحو، أقبلك/ أقفز، أضحك/ أركض، أقع، أبكى، تحملينى/ وتقبلين الجرح / فيطيب كما طفل ...»، فكل من المبدع والقارئ يشعر بأنه يلهث وراء الأحداث المتسارعة دون أن يتمكن من التقاط أنفاسه.

وأبلغ من هذا ما يفعله اللمس من إمكان التفجير التعبيرى الناجز - زيادة على التلاحق - من تكرار نفس الفعل، ثم الذروة فى تكرار الحرف فى سبعة أفعال متتالية فى قوله: «حين اللمس / أرفع ذراعى كما نورس / أدور ... أدور ... أدور / أواصل الدوران وأهمهم / أتأتئ ، أبأبئ ، أتمتم، أغمغم / أدندن، ثم أكعكع / فعل هذيان»، فالدوران المتكرر أحدث حالة من الدوخة نجم عنها سبعة أفعال متلاحقة، كل منها رباعى الأصل مكون من حرفين متكررين، لا يفصح فى دلالاته اللغوية على غير الاضطراب الناجم عن ذروة النشوة بفعل من «اللمس»، فالإبداع أن يسميه المبدع «فعل هذيان».

وعليه فليس عجيبا أن تكون النهاية الطبيعية لهذه الرحلة الاستثنائية مسلما بها على هذا النحو:

«حين اللمس / أختزل جنونى/ لأغزل غطاء لوسادتى/ حين اللمس/ أختزل حمقى / لأغزلك كأس نبيذ وأسكر».

فلنهنئ إبراهيم الكندرى على هذا الضرب من الجنون، ولنبارك حماقته التى يغبطه عليها العقلاء الأسوياء. ■

مختار على أبوغالى



من وحى الحماقة
إبراهيم الكندرى
دار العين - القاهرة ٢٠٠٨

السلام.. السلام.. السلام



أملي في السلام
جيهان السادات
ترجمة: هالة صلاح الدين حسين
دار الشروق القاهرة، ٢٠٠٩



My Hope for Peace
Jehan Sadat
Free Press, 2009

السلام.. هذه الكلمة، هذه الفكرة، هذا الهدف.. هو الموضوع الذى يلخص مسيرة حياتى.

أولا، من المؤكد أن تسوية عادلة شاملة بين العرب والإسرائيليين سوف تساعد على القضاء على أحد مصادر الكراهية والتطرف والبؤس فى العالم: تسوية سوف تسمح لسكان هذه الأماكن المقدسة بالعيش جنبا إلى جنب فى جو من المودة والأمن. هذه هى القضية التى كرس لها زوجى أنور السادات حياته. وفى السادس من أكتوبر ١٩٨١ اغتاله متعصبون إسلاميون اعتقدوا أن السلام الذى صاغه مع إسرائيل سوف يتلاشى بوفاته. لم يجانبهم الصواب. إذ استمرت اتفاقية ١٩٧٩ التى وقعتها مصر مع إسرائيل كنتيجة مباشرة لاتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨ قرابة ثلاثين عاما، تذكرة بأن الصدوع التى تبدو فى الظاهر مستعصية على الرأب يمكن إقامة الجسور عليها، وبأن أساسا للحل العادل يمكن تشييده. لقد سئل زوجى فى أحد حواراته الأخيرة عن ثلاث أمنيات يود لو تتحقق خلال حياته. فأجاب: «الأولى، السلام فى الشرق الأوسط. الثانية، السلام فى الشرق الأوسط. الثالثة، السلام فى الشرق الأوسط». لقد انتهى هذا الحلم بالنسبة له. وأصبح الآن حلمى أنا.

أخذت أحاضر وأدرس وأجمع التبرعات لتعزيز هذا الحلم منذ عام ١٩٨٥. وبحكم انتقالى الدائم بين موطنى القاهرة وضواحى واشنطن العاصمة ولأنى أستاذة وناشطة داعية للسلام وسيدة أولى سابقة ومواطنة لا تشغل أى موقع عام، ربطتنى صلة مباشرة بالدائرة الموجعة للتقدم والتخلف فى الشرق الأوسط، ولاحظت كيف صارت أفكار زوجى التى نبذها العالم العربى من جانب واحد فى يوم من الأيام مقبولة على نطاق واسع. والآن مع مرور الذكرى الثلاثين لرحلته التاريخية إلى القدس، والحاجة الملحة إلى مثال جديد واضح تمام الوضوح أمامنا، آن الأوان لإعادة تقييم أعماله.

وبالإضافة إلى نهاية الصراع بين مصر والإسرائيليين، يشير كتاب أملى فى السلام إلى السلام المتأصل فى الإسلام. لست أول من يذكر أن كلمة «السلام» فى اللغة العربية تشترك مع كلمة «الإسلام» فى نفس الجذور الإتيمولوجية ونفس الماهية. يدرك معظم المسلمين هذه العلاقة، ويناضلون، من قبيل المجاز، لعيشها، بينما لا تبدو واضحة بالدرجة ذاتها عند ترجمة الكلمتين، بل إن عالم ما بعد ١١ سبتمبر ينظر إلى الإسلام فى المجمل نظرة شك وعدوانية تامة باعتباره دينا يؤمن به متعصبون. بمقدورى تفهم ذلك على نحو ما؛ لأنى استشعرت آثار مثل هذا التطرف من مصدره المباشر. ومع ذلك يمكننى أن أقطع بأن التطرف ليس من الإسلام فى شىء، لأنى قابلته وجها لوجه. عشت طيلة حياتى مسلمة، وجدت فى إيمانها مصدرا للعون والعزاء الحقيقى، لذا قد يسهل على تمييز هذا الفرق. وبنفس الطريقة يتضح لى بفضل محاضراتى وعملى فى التدريس وإقامتى فى الولايات المتحدة أن هناك ندرة فى المعلومات الحقيقية حول الإسلام رغم تكريس عدد كبير من التغطيات الإعلامية لما يعرف بالجرائم الإسلامية. فحينما تواجهنى صور الرجال الغاضبين وهم يلوحون بالقرآن ويحرقون الأعلام الأمريكية والنساء المتشحات من قمة رءوسهن حتى أخمص أقدامهن بالبراقع وتلك الدمدمة الجاهلة حول «الفاشية الإسلامية»، تصبح العبارة التى نرددها كثيرا من أن «الإسلام دين السلام» بدون فاعلية. علاوة على ذلك ثمة اعتقاد عام بأننا ننخرط، بالإضافة إلى ما يحل بالعالم من صراعات فعلية، فى شىء أشبه بالحرب الموازية، ألا وهى صراع الحضارات المزعوم الذى ينافس فيه الإسلام الغرب فى معركة هدفها فرض السيطرة على العالم. كلام قد يكون مرضيا لكنه ليس دقيقا على الإطلاق.

وعلى الرغم من أنى لست عالمة دينية، أتمنى أن أصحح وأعدل ما أظنه أكثر الاعتقادات الخاطئة إصرارا وانتشارا حول الإسلام، ألا وهى أن الإسلام حركة تقوم على فكرة قلب نظام الحكم وإخضاع المرأة وتحويل الكفار إلى الإسلام. وأن الإسلام ملازم للعنف: دين متعصبين سوف يجيزون أى عمل وحشى تحت اسم الجهاد، وأن المسلمين يبغضون «الحرية» ويعجزون عن ممارسة الديمقراطية بسبب طباعهم أو اعتقاداتهم. أستدعى هنا خبرتى كمؤمنة لتقديم أمثلة على العديد من النقاط، فالإسلام شأنه شأن كل الأديان لا يمكن استيعابه من خلال مجموعة من المعتقدات فحسب، إنما من خلال قدرته على تغيير حياة الأفراد التابعين له وإلهامهم.

الطريقة الثالثة والأخيرة التى تكشف بها السلام فى حياتى كانت شخصية تماما.. كانت بحثا عن السلام الداخلى إن جاز القول. أطلقت أحداث ١١ سبتمبر العنان لوابل من الذكريات لأسباب أوضحها فى الفصل القادم، وقد نتج عن هذه الأحداث أن وجدت نفسى منخرطة فى محاولة لتقييم حياتى. لا شك فى وجود آراء خارجية كثيرة يمكننى استحضارها الآن: أطرى البعض على مبادئى النسوية فيما شجبها آخرون، أثنى البعض على كرائدة فى مجالات حقوق المرأة بالعالم العربى واستنكر البعض مواقفى باعتبارها هادمة للعائلات، وجهت إلى اتهامات بأنى مجرد ناطقة بلسان زوجى، وأنى أيضا ذات تأثير زائد عن اللازم عليه. كنت فى السراء والضراء شخصية تتعارض حولها الأحكام بسبب أفكارى ونشاطاتى لمصلحة المرأة والأسرة، فى المقام الأول. إلا أن كل مثلى «التقدمية» تعرضت للاختبار فى أعقاب وفاة زوجى. كثيرا ما شجعت السيدات المصريات على خلق وعى بالحياة المستقلة. وعليه لم أقو على التراجع والقبوع فى ظل أنور. كان على الوقوف على قدمى. ورغم أنى كنت أستطيع البقاء فى مصر لقضاء بقية حياتى فى حضن عائلتى، خالجنى إحساس بأنى لا بد أن أخلق هوية لنفسى. انتقلت إلى الولايات المتحدة وأتممت رسالة الدكتوراه وشرعت فى التدريس وإلقاء المحاضرات. ساندنى الإرث الأبى للنسوية المصرية، إرث لجأت إليه كثيرا التماسا للإلهام، وعائلتى وإيمانى الذى حض المرأة دوما على التعليم والمساواة. الحق أنى أرى نفسى جزءا من تقليد عماده نساء مسلمات عربيات مصريات قويات، نساء لسن شاذات عن القاعدة أو خائنات لصالح الغرب. واتكالا على خبراتى المهنية المتنوعة، بوصفى زوجة سياسية وسيدة أولى ونصيرة للسلام وحقوق المرأة وأكاديمية، علاوة على خبرتى كزوجة وأم فى مجتمع يتميز بكل من التقليدية والإخلاص، خامرنى إحساس بأنى مؤهلة تماما لدحض عدة أساطير قديمة، عادت للظهور من جديد، عن المرأة الشرقية. نحن لا نرزح جميعا تحت الجهل والقهر، لا نرزح جميعا تحت الخنوع والإرهاب. وبينما تعترض النساء فى العالم الإسلامى العديد من العوائق، فليس الإسلام واحدا منها. وفى حين لا يمكننى ادعاء المسئولية عن جميع المسلمات، يسعنى القول إن الإسلام لا يضمر كراهية للنساء بل يأمرنا بالمطالبة بالمساواة التى وهبها لنا الله.

إن موضوع السلام الذى يدور حوله هذا الكتاب ينطوى على ثلاثة جوانب، وكذلك يتبدى لى أن إحلال السلام يتكشف هو الآخر فى ثلاثة جوانب. يقع الجانب الأول داخل مكاتب الحكومات والمنظمات الدولية الخيرة، وأفرادها يتفاوضون على الاتفاقيات ويناقشون الحلول الوسطى ويصوغون البيانات المكتوبة بكل دقة.

يجرى الجانب الثانى على مستوى العلاقات بين الأفراد وسلوكياتنا وتصرفاتنا تجاه أعدائنا الافتراضيين. وفى مثل هذا السياق ينبغى علينا جميعا - عربا وإسرائيليين، مسلمين وغربيين - أن نتحلى بالحكمة والمهارة والابتكار.

والمساحة الثالثة التى يجب أن نحل فيها السلام، تقع فى داخلنا، فى نوايانا. فالإسلام لا يولى أهمية لصنائعنا فحسب، لكن أيضا لما تخفيه قلوبنا ونحن نضطلع بها. وأذكر هنا الحديث النبوى الشهير «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى». لو عزز الناس العاديون النية على السلام، السلام مع أنفسنا، مع كوكب نحيا عليه وأناس نشاركهم هذا الكوكب، فسوف نحقق السلام بإذن الله.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الأنـا والهـو

تأليف: سيجمند فرويد

ترجمة: محمد عثمان نجاتى

القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٩ ، ١٠٦ صفحات



بمناسبة الذكرى السبعين لوفاة ابى الطب النفسى الحديث «سيجمند فرويد» صدرت طبعة خاصة من كتابه الشهير والمؤسس «الأنا والهو». وكان كل اهتمام علماء النفس قبل ظهور مدرسة التحليل النفسى متجهاً إلى دراسة الظواهر العقلية الشعورية، ولم يكن أحد منهم يهتم بالبحث عن العمليات العقلية اللاشعورية التى تحرك سلوك الإنسان وتدفعه إلى القيام بصور النشاط المختلفة، السوية والشاذة على السواء. ولقد كان من نتيجة إغفال علماء النفس فى الماضى لهذه الناحية الهامة من الحياة النفسية أن ظل كثير من مظاهر السلوك الإنسانى عصياً على التفسير، وصعباً على الفهم، وبعيداً عن متناول البحث العلمى.

ويرجع الفضل إلى سيجمند فرويد ١٨٥٦ - ١٩٣٩ مؤسس مدرسة التحليل النفسى فى اكتشاف تلك الحقيقة الهامة، وهى أن جزءاً كبيراً من حياتنا العقلية لا شعورى، وأن لهذا الجزء اللاشعورى من حياتنا العقلية تأثيراً كبيراً على سلوكنا ومشاعرنا سواء فى حياتنا السوية أو فيما نتعرض له من اضطرابات وأمراض نفسية.

■

التاريخ المفتت، من الحوليات إلى التاريخ الجديد

فرانسوا دوس

ترجمة: د. محمد الطاهر المنصورى

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ٤٢٩ صفحة



أصبح التاريخ، منذ سنوات، يشد اهتمام الجمهور الواسع. ويعود هذا فى جزء كبير منه، إلى نجاح «التاريخ الجديد» الذى انطلق منذ ١٩٢٩، بدفع من مارك بلوخ ولوسيان فافر ومجلتهما «الحوليات».

يروى المؤلف، بالاعتماد على وثائق وشهادات عديدة غير معروفة فى كثير من الأحيان، تاريخ هذا التاريخ... وهو يقدم قراءة نقدية وجدالية لعديد من المفاهيم التى تبنتها مدرسة الحوليات: نهاية التاريخ، موت الإنسان، تأثير البنى، التخلى عن المواضيع السياسية... إلخ.

يتميز هذا الكتاب بحيوية أسلوبه، ومن المنتظر أن يثير ردود فعل الكثيرين. إنه كتاب منخرط فى معركة متحمسة من أجل التاريخ، حول تساؤل كبير: ألا نشاهد، اليوم، تفتيتا للتاريخ، بعد كل جهد الحوليات فى التجديد؟

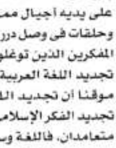
■

فى الأدب المصرى

أمين الخولى

تقديم: عبدالناصر حسن محمد

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩ ، ١٥٢ صفحة



أمين الخولى (١٨٩٥ ـ ١٩٦٦) علامة بارزة فى ثقافتنا المصرية والعربية، تتلمذ على يديه أجيال ممن أصبحوا علامات وحلقات فى وصل درر العلم، وهو أحد كبار المفكرين الذين توغلوا بجراة فى قضايا تجديد اللغة العربية ونحوها وبلاغتها، موقنا أن تجديد اللغة لا ينفصل عن تجديد الفكر الإسلامى، فهما دائماً قطبان متعامدان، فاللغة وسيلة إثبات وجودنا والدين وسيلة تقويم هذا الوجود.

لقد كان الدرس اللغوى همّ الخولى الأساسى والحلبة الأولى لنضاله من أجل الاجتهاد والتجديد وتأثيم التقليد، مستنداً على أصل عريق هو إجماع النحاة القدامى على ذم التقليد، وفى هذا السياق الذى يحتفى بالتجديد سنجد عالمنا الجليل يقوم بنفى سائر التفسيرات الغيبية اللاهوتية اللاعقلانية التى تزعم أن العربية ـ دونًا عن سائر لغات العالمين ـ هبطت فجأة من السماء بالغة الكمال، لتظل هكذا إلى قيام الساعة وأيضاً إلى ما بعدها.

من هنا يفتح كتاب ـ فى الأدب المصرى ـ باب السؤال من جديد، بوصفه الباب الذى نحتاج إليه فى زمن زاخم بالإجابات الجاهزة، موقنا أن مشروعية السؤال لا تقل أهمية عن مشروعية الإجابة.

■

العلاقات العامة الدولية والاتصال بين الثقافات

راسم محمد الجمال

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩، ١٩٢ صفحة



يقع كتاب العلاقات العامة الدولية والاتصال بين الثقافات فى تسعة فصول أحاطت بالموضوع من جميع جوانبه، يتناول الأول منها العلاقات العامة الدولية فى سياق العولمة من خلال أربعة موضوعات فرعية تبدأ باستعراض العلاقات العامة الدولية قبل عصر العولمة، ثم تحليل العوامل الاقتصادية والتكنولوجية والدولية التى زادت من أهميتها بعد ذلك، ثم وضعيتها فى عصر العولمة، وأخيراً عرض لتعريفاتها، ونظراً لأهمية بيئة الاتصال الذى تمارس فيه العلاقات العامة الدولية، والذى يتسم بالجدلية، فقد جاء فى الفصل الثانى ليعالج هذه القضية باستعراض الرؤى الإيجابية والسلبية التى تتناول هذا الواقع، متبعاً ذلك بعرض رؤية نقدية لهذا الواقع وذلك ليبين الاتهامات المثارة حول إساءة استخدام العلاقات العامة فى البيئات الدولية والمحلية، حيث يوجد فى التراث العلمى لإدارة الأعمال أمثلة كثيرة لنماذج خادعة وماكرة تستخدمها المنظمات متعددة الجنسية للاحتفاظ بقوتها وسيطرتها على فروعها فى الدول الأخرى، منها إعادة تشكيل قواعد وقيم وسلوكيات العاملين بما يتماشى مع رغبات الدول المضيفة والمنظمة الأم، وتتبع هذه المنظمات ثقافة تنظيمية واحدة سواء فى المقر أو فى فروعها لبناء ثقافة تنظيمية متجانسة، وهو ما يشبه عمليات تسويق السلع عالمياً من خلال خلق أذواق وقيم استهلاكية متجانسة، فالعالم الذى يجرى بناؤه الآن لا يخدم سوى مصالح الدول الكبرى وشركاتها متعددة الجنسية، يصدق هذا على السلع كما يصدق على الأفكار والمعتقدات، حتى الأفلام والأغانى وأنماط الملبس.

ويشرح الفصل الثالث نظرية المبادئ العامة والتطبيقات الخاصة، وهى النظرية المعيارية المطروحة الآن للعلاقات العامة الدولية، والتى يجرى اختبارها فى عدد كبير من الدول، وهى نظرية تصف الطريقة التى يجب أن تمارس بها العلاقات العامة على المستوى الدولى أو الطريقة التى يجب أن تؤدى بها بعض أنشطتها، وهذه النظرية بالتحديد لم يتم تطبيقها أو اختبارها فى الدول العربية، ليعرض لنا المؤلف بعد ذلك الانتقادات الموجهة إلى هذه النظرية.

الفصل الرابع، يعتبر مكملاً للفصل الثالث، حيث يشرح فيه المؤلف التغيرات البيئية التى تؤثر على ممارسة العلاقات العامة الدولية فى مختلف الدول من حيث البنية الأساسية للدول المستهدفة بالعلاقات العامة، ونظامها السياسى، ونموها الاقتصادى والقانونى والجماعات والحركات النشطة فيها، والأخيرة هذه هى المجال الأهم والأكثر استجابة فى الدول النامية لإنشاء علاقات شراكة مع منظمات عالمية سلعية كانت أو فكرية، وتعتبر هذه الجماعات والحركات النشطة مع العاملين فى حقلى الإعلام والثقافة أكثر الفئات طموحاً للتعامل مع منظمات دولية حسب النظام العام فى بلدهم.

ويتناول الفصل الخامس العلاقات العامة الحكومية الدولية التى تمارسها الحكومات مع جماهير الدول الأخرى، والتى تعرف بالدبلوماسية العامة، ويبدأ الفصل بشرح مفهوم الدبلوماسية العامة وتعريفاتها، ويدرس بعد ذلك الصور الذهنية كمتغير فى العلاقات الدولية، ويركز بالذات على الدبلوماسية العامة الأمريكية الموجهة إلى الجماهير العربية بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، وإعلان الحرب على ما سمته الإدارة الأمريكية بالإرهاب، ويغوص هذا الفصل كثيراً فى استراتيجيات الولايات المتحدة وتغيراتها بين كل من تشارلوت بيرز التى عينها كولن باول لتسويق مفهوم أمريكا للإرهاب وهى امرأة قادمة من عالم الوكالات الإعلانية، حيث كانت تتولى الدعاية للسيارات وشركات السجائر، وبين كارين هيوز التى كانت مهمتها تغيير الاستراتيجية من الحرب على الإرهاب باستراتيجية النضال العالمى ضد التطرف العنيف (بتعبير وزارة الخارجية الأمريكية).

وترتبط الفصول السادس والسابع والثامن ببعضها البعض، فهى تتناول الاتصال فى العلاقات العامة الدولية، ليختم المؤلف رحلته بالفصل التاسع الذى يناقش مدى فاعلية العلاقات العامة الدولية، فى تحقيق أهدافها والتأثير على الجماهير التى تتجه إليها وأخلاقيات ممارستها.

■

٥٩ ليست أقل من ٦٠

سامية أبوزيد

القاهرة: دار اكتب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩، ٢٤٤ صفحة



هذا الكتاب ليس من كتب التاريخ ولا من الكتب السياسية المعتادة، وكذلك هو ليس تجميعاً لعدة مقالات تحمل خطاً مشتركاً كدأب كتّاب كثيرين.

الكتاب إذن ليس مجرد ملف أجمع فيه مقالات سبق نشرها وأضع لها عنواناً فتصبح كتاباً، فمع احترامى الشديد لغيرى من الكتاب الذين يفعلون ذلك، وقد يكون لهم بعض العذر فيما يفعلونه وهو صعوبة متابعة كل ما يكتب، أو تيسير الأمور على القارئ أن يجد لديه مقالات فلان متجمعة بين دفتى كتاب إلى آخر كل هذه المبررات، إلا أننى لا أرتاح لفكرة تجميع بضعة مقالات فى ملف ومن ثم طرحها تحت اسم كتاب دون أن يكون فيها شىء جديد ولو بالنسبة لقارئ واحد على الأقل ممن يفترض أنهم تابعوها من قبل.

لذا سوف تجد عزيزى القارئ فى هذا الكتاب تجميعاً لمقالات ولكن.. سوف تجد كذلك تعقيبات عليها، أو على بعضها، وبمعنى أكثر دقة سوف تجد إعادة قراءة لما سبق نشره فى ضوء ما كشفته لنا الأيام، فنتحقق معاً من مواضع الصواب فيما ذهب إليه التفكير من قبل، ونفهم كذلك أسباب الشطط فى التفكير إن وجد. وفى النهاية هى رحلة بحث حر بين الكلمات مثلنا فى ذلك مثل الباحث عن الصدف، فقد يكتفى بتقليب الرمال أو يذرع الشاطئ ذهاباً وإياباً، وقد يضطر حيناً آخر للغوص فى البحر بحثاً عنه. وإذن، فلنغص معاً بين الكلمات والأفكار وما مضى من الأحداث بحثاً عن درر المعانى علنا نثرى.

■

العمالة الوافدة

وأثرها فى الأدب الإماراتى

القصة نموذجًا

عبدالفتاح صبرى

القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ١٤٤ صفحة



مع تشكل الدولة وبدء مرحلة بناء المؤسسات والبنى الاقتصادية التحتية من طرق وجسور ومشاريع عمرانية ضخمة وبناء مدن جديدة، كان لابد من استجلاب عمالة للقيام والمساهمة فى عملية التحديث والبناء، ولكن هذه العمالة رغم دورها غير المنكور فى عملية البناء إلا أنها من زاوية أخرى ساهمت فى إحداث التغيرات السلبية التى هزت مجتمع الإمارات حتى امتدت لتشوه الإنسان وتثنيه رويداً رويداً عن قيمه ومبادئه وتقاليده والتى استخلصها عبر آلاف السنين من حياة مستمرة بوتيرة الصحراء والبحر، وما واكب هذه الحقبة من استجلاب تقنيات ومعها سلوكياتها الجديدة، بالإضافة إلى الانفتاح على العالم الآخر بكل عاداته وقيمه والتى قد لا تتفق بكل تأكيد مع السائد ومع نظرة إنسان هذه الأرض للحياة ومعتقداته الإنسانية والمادة.

■

البرنسيسه والأفندى

تأليف: صلاح عيسى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ٦٣٨ صفحة



فى مايو ١٩٥٠ وفى مدينة «سان فرانسيسكو» كبرى مدن الغرب الأمريكى أعلنت «البرنسيسة فتحية» ابنة «الملك فؤاد» وصغرى شقيقات «الملك فاروق» زواجها من شاب مصرى، لا يحمل إلا لقباً متواضعاً يمنحه الناس لبعضهم البعض على سبيل المجاملة، هو «رياض أفندى غالى» الذى كان - فضلا عن ذلك كله - قبطياً ينتمى إلى الكنيسة الأرثوذكسية!

وكان طبيعياً أن يثير إعلان زواج أميرة مسلمة، من شاب قبطى، حملة صحفية شهرت بالسلوك الجنسى للأسرة المالكة وأن يفجر أزمة سياسية، بدأت بأمر ملكى يقضى بتجريد صاحبة السمو الملكى الاميرة «فتحية» ووالدتها صاحبة الجلالة «الملكة نازلى» من ألقابهما الملكية لتصبحا «فتحية هانم فؤاد» و«نازلى هانم صبرى» وانتهت بالقضاء على النظام الملكى بعد ذلك بثلاثة أعوام، وأن يشعل فتنة طائفية بين المسلمين والأقباط، وأن يفجر مناظرة عن المساواة بين البشر وعن حدود حرية المرأة والسقف الذى تتوقف عنده حرية السلوك الخاص للشخصيات العامة!

وهى قضايا تكرر الحوار حولها، بعد ذلك التاريخ بـ ٢٠ سنة، حين أطلق «رياض أفندى غالى» ثلاث رصاصات على رأس زوجته البرنسيسة «فتحية» وأطلق الرصاصة الرابعة والأخيرة على رأسه!

تلك هى القصة التى يؤرخ لها هذا الكتاب على أصعدتها الشخصية والسياسية والفكرية والاجتماعية.

مؤلف الكتاب «صلاح عيسى» كاتب وصحفى وباحث فى التاريخ... ولد عام ١٩٣٩ وشارك فى إصدار وإدارة ورأس تحرير عدة صحف مصرية، نشرت مقالاته وأبحاثه فى معظم الصحف العربية، نشر ٢٠ كتاباً فى التاريخ والفكر السياسى والاجتماعى من أبرزها «الثورة العرابية» و«مثقفون وعسكر» و«دستور فى صندوق القمامة» و«رجال ريا وسكينة: سيرة سياسية واجتماعية».

■

وردة حمراء.. وردة بيضاء

مختارات من الشعر العالمى

ترجمة: يوسف عبدالعزيز

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩، ١١٢ صفحة



هذه مجموعة قصائد من الشعر العالمى الحديث لشعراء من أربعة أركان المعمورة، ينتظمها على اختلاف التجارب واللغات هم إنسانى واحد هو الحرية الشخصية والتوق إلى مستقبل أفضل والنظر إلى الماضى باعتباره مرآة نرى فيها أنفسنا على نحو أكثر وضوحاً، والنماذج المختارة تؤكد أن هذا الكون مسكون بالشعر وأن المشاعر الإنسانية لا حدود لها.

■

اليسار المصرى وأجياله العتيدة ضد اليسار الجديد

باعتباره مشروعا أمريكيا صهيونيا يزحف على مصر المحروسة

العامل عطية الصيرفى



ذلك الكتاب وموضوعاته ووثائقه هو كتاب من نوع جديد خطه عامل مصرى باعتباره طلب إحاطة عاجلا وملحا للقوى الوطنية واليسارية والعمالية فى مصر المعاصرة بشأن قدوم مصيبة أمريكية وإسرائيلية مسكوت عنها رغم خطورتها على شعبنا المصرى عماله وفلاحيه وفقرائه ولم يفجرها ويجمهرها مؤلف هذا الكتاب باعتباره عاملا يساريا لا يستبد به الحياء ولا يعتريه أدب الجرسونات ولا يخشى على مصلحة شخصية وذاتية على حد تعبير النقابى اليسارى صابر بركات. فالعامل الذى فجر هذه المصيبة وقدومها إلى مصر قد لمح أن بعض الشيوعيين واليساريين المصريين قد اعتادوا على تأدية العمرة والحج إلى مؤسسة المدى الثقافية ومهرجاناتها الكائنة بكردستان العراق التى باتت محمية أمريكية صهيونية.

ولكن عاد بعض هؤلاء الرفاق يلعنون مؤسسة المدى وثقافتها المنحازة للاحتلال الأمريكى للعراق، بينما راح رفاق آخرون يمدحون مؤسسة المدى هذه التى يديرها الحزب الشيوعى العراقى.

ومن هنا اكتشف ذلك الكتاب أن مؤسسة المدى هذه هى قلعة أمريكية صهيونية وترفرف عليها رايات الشيوعية الحمراء الغرض منها تفريخ ظاهرة اليسار الجديد الداعية إلى الديمقراطية الأوروبية والأمريكية باعتبارها الحل والبديل للمقاومة واليسار الثورى الأصولى فى مصر والوطن العربى.

والكتاب يرى أن اليسار الجديد الآتى من كردستان قد تواجد فى مصر فعلاً بقصد تشويه المقاومة العراقية واللبنانية والفلسطينية وتسميتها بالمقاومة الظلامية كما يحاول تشويه الشعب العراقى حيث يقول: العراق الجديد بدلاً من العراق المحتل، والعراق الديمقراطى بدلاً من العراق المقاوم.

هذا هو اليسار الجديد والعميل فى مصر وغير مصر الذى يطمع فى الإطاحة باليسار الاشتراكى المصرى الأصولى العتيد والمجيد ولكن هيهات هيهات لما تدبره أمريكا وإسرائيل ويسارها الجديد والعميل والمصيبة.

■

الإعلام فى العالم العربى

بين التحرير وإعادة إنتاج الهيمنة

تحرير: عصام الدين محمد حسن

القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٤٢٢ صفحة



فى العالم العربى الذى تعانى نظمه السياسية بصورة مزمنة من الافتقار إلى الشرعية السياسية، أو من تآكل تلك الشرعية، كان - ولا يزال - احتكار وسائل الإعلام يمثل أداة رئيسية فى الترويج للسياسات الرسمية، وتعبئة الرأى العام وحشده فى خدمة أهداف القابضين على السلطة، والدراسات التى بين أيدينا تظهر بشكل جلى حجم الهوة الواسعة بين وضعية الإعلام السمعى والمرئى فى كل من مصر والأردن والمغرب من ناحية،

وبين ضمانات ومعايير حرية البث الإعلامي التي عرفتها المجتمعات الديمقراطية.

ولا يبدو أن ثورة المعلومات ودخول العرب عصر الأقمار الصناعية والفضائية، ودعاوى إعادة الهيكلة والتطوير لقطاع الإعلام السمعى والمرئى فى المغرب والأردن، والتوجهات المماثلة التى تطرحها الحكومة المصرية مؤخراً، كفيلة بإحداث قطيعة مع إرث الهيمنة والاحتكار المفروض من قبل الدولة على هذا القطاع، أو برفع سقف التوقعات والطموحات حول الانتقال إلى إعلام تعددى، وحر، ومستقل، كما تعرفه المجتمعات الديمقراطية.

ومن غير شك فإن تحرر قطاع البث السمعى والمرئى، لن يتأتى بمعزل عن تحرير مختلف الوسائط الإعلامية وإطلاق حرية التعبير، وهو طموح يصعب تصور حدوثه إلا فى إطار عملية شاملة للإصلاح الديمقراطى، تقود إلى تعزيز دولة القانون وتقيم توازناً حقيقياً بين السلطات، وتعلى من شأن استقلالية القضاء، وتستعيد فى إطارها السلطة التشريعية استقلالها عن ضغوط السلطة التنفيذية.

■

الانتخابات الديمقراطية وواقع الانتخابات فى الأقطار العربية

تنسيق وتحرير: الدكتور على خليفة الكوارى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ، ٤٣٠ صفحة



يتضمن هذا الكتاب أعمال اللقاء السنوى السابع عشر لمشروع دراسات الديمقراطية فى الأقطار العربية، الذى انعقد فى ١٨ أغسطس ٢٠٠٧، فى جامعة أوكسفورد البريطانية.

فى الكتاب إحدى عشرة ورقة بحثية، ومناقشات، شهدها اللقاء، تناولت فى مجملها طبيعة الانتخابات التى أجريت فى عدد من الأقطار العربية (الجزائر، الكويت، مصر، موريتانيا، فلسطين، لبنان، المغرب) من حيث مقاصدها ووظائفها، ومن حيث الكيفية التى تمت بها هذه الانتخابات، إضافة إلى دراسة خاصة بالديمقراطية والرقابة الدولية على الانتخابات فى الأقطار العربية.

فى البعد السياسى، لحظت أعمال اللقاء ما شهدته العقود الثلاثة الماضية، فى الوطن العربى، من إجراء انتخابات على المستويين البرلمانى والمحلى، وإجراء انتخابات مباشرة لاختيار رئيس الدولة، فى بعض الأقطار العربية. وعلى الرغم من ذلك، لم تفض تلك الانتخابات، بمجملها، إلى تداول سلمى للسلطة، أو إلى انتقال ديمقراطى حقيقى، أو حتى حدوث تغيير حقيقى فى صلب الأنظمة السياسية الحاكمة وطبيعة عملية صنع القرار السياسى. كما لم يتمكن الناخبون فى أى قطر عربى من اختيار حكامهم وممثليهم بمحض إرادتهم، إن من خلال برلمان حقيقى يمثل فئات المجتمع ويعبر عن آمالها ومطالبها بشكل حقيقى بعيداً عن نفوذ السلطة القائمة، أو على مستوى رئاسة الدولة فى انتخابات تنافسية حقيقية، بلا قيود تعجيزية.

فى البعد النظرى لمفهوم الانتخابات، لحظت الأوراق البحثية ضرورة توفر الإطار الدستورى والقانونى الذى تجرى فى سياقه الانتخابات، من حيث تمكين المواطنين من انتخاب من يكلفونه تحمل إحدى السلطات الدستورية لمدة محددة، وفق إرادتهم الحرة، ودون وصاية من فرد، أو قلة، مهما تكن صفتها ومكانتها. وهذا هو شرط الفاعلية، ويضاف إلى هذا الشرط الجوهرى شرطان يتكاملان معه، ويشكلان ضمانة لتحقيق مقاصد الانتخابات الديمقراطية، وهما شرطا الحرية والنزاهة.

■

فى غمار السياسة: فكراً وممارسة

محمد عابد الجابرى

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩ ، ٣٢٧ صفحة



تعميماً للفائدة الفكرية، سعت الشبكة العربية للأبحاث والنشر بالتعاون مع الدكتور محمد عابد الجابرى إلى تجميع محتويات سلسلة مواقف، وإصدارها فى كتب تشتمل على مقالات وحوارات سياسية وفكرية، سبق وأجريت مع د. الجابرى. وهذا الكتاب «فى غمار السياسة، فكراً وممارسة»، هو الكتاب الأول من هذه السلسلة، حيث يتناول نصوصاً هى بمثابة «إضاءات» لكثير من التجارب السياسية التى مرت فى حياة الجابرى وامتدت من الشأن الذاتى إلى الشأن العام. إن هذا الكتاب، وبحسب مؤلفه، يتوجه إلى الجيل الصاعد من الشباب الذى عبر عن رغبته فى معرفة تفاصيل الحياة السياسية، التى عاشها المغرب منذ الاستقلال ومازالت تؤسس الواقع السياسى الراهن.

■

عرابى ورفاقه فى جنة آدم

تأليف: لطيفة محمد سالم

القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٩ ، ١٥٦ صفحة



يتناول هذا الكتاب الشائق قصة أحمد عرابى ورفاقه الذين نفاهم الاحتلال الإنجليزى إلى جزيرة سيلان، بعد قيامهم بالتمرد على كل من الحاكم والمحتل. فتقدم لنا المؤرخة الكبيرة د.لطيفة محمد سالم صورة حية للمنفى كموضوع تاريخى وفى الوقت نفسه كحالة معاناة إنسانية قد تدفع الواحد لتغيير جانب من آرائه، أو تدفع التحالف إلى الخلاف بل والعداوة أحياناً، ورغم أن هذا الموضوع المثير ظل لوقت طويل خارج أجندة البحث التاريخى فإن المؤلفة استطاعت وبحنكة الباحث المدقق أن تصنع من الشذرات المتفرقة فى الكتب والدوريات والوثائق كتاباً تأسيسياً فى موضوعه.

يفصح الكتاب - ولأول مرة - عن تفاصيل ما جرى لعرابى ورفاقه الستة، وهم فى المنفى بجزيرة سيلان، وعلاقتهم ببريطانيا، ثم الخلافات التى نشأت بينهم، وسعيهم إنسانياً وسياسياً للخلاص من هذه التجربة الأليمة بعد أن سكنتهم الأمراض ولم يعد الأمر يحتمل، حتى إن بعضهم فارق الحياة دون أن يتحقق له أمل العودة إلى الوطن، وكذا عودة بعضهم والمساعى التى بذلت فى هذا الشأن ليعودوا منكسرين كما ذهبوا مهزومين بعد وقوفهم أمام أعتى سلطة خديوية يدافعون عن حرية المصريين، ثم تصديهم لأعتى قوة عالمية، مدافعين عن حرية مصر ضد التدخل الأجنبى.

■

مدخل فى الموسيقى

محمد قابيل

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩ ، ١٦٨ صفحة



هذا الكتاب يرصد تاريخ الموسيقى هنا وهناك.. كيف كان يعلو قدرها أحياناً وينخفض فى أحيان أخرى، إذ لا موسيقى بلا آلات، وقد أبدع المصريون فى صنع بعضها ونقلها أهل أوروبا، ثم عادوا فصدروا بعضها لنا بعد التطوير.

وإذا انتقلت الآلة من بلد إلى آخر نقلت معها الطابع والطبيعة الخاصة بها، ومن ثم امتزجت الموسيقات وتناسخت القوالب وتأثرت الأشكال، لكن يظل فى النهاية الشرق شرقاً، والغرب غرباً، ولكل شعب ذوق وتذوق.

ونحن هنا نأخذ العبرة والعظة من التاريخ لنرسم المستقبل، فلا جديد بلا قديم.

■

فلسفة الحرية

مجموعة باحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩ ، ٤٢٩ صفحة



يتضمن هذا الكتاب بحوث الندوة السابعة عشرة، التى نظمتها الجمعية الفلسفية المصرية، بجامعة القاهرة، بعنوان فلسفة الحرية.

والكتاب أقسام ثلاثة، فى القسم الأول: ثلاثة بحوث، تعنى بالإشكال النظرى لمفهوم الحرية ووظائفها وجدواها، وما أقيم حولها من جدل، قديماً وحديثاً. وفى القسم الثانى: ثمانية بحوث تتناول الحرية فى الفكر الإسلامى الحديث، وفى القسم الثالث: خمسة بحوث تتناول الحرية فى الفكر الغربى.

وتنعقد الصلة بين فصول الكتاب، فترتبط إشكالية الحرية فى التراث الإسلامى ابتداء من مقولة «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟»، ليغدو السؤال اختزالاً للكلام فى أصل الوعى بالحرية، ثم ما جاء عن العديد من المفكرين، مما يعكس طبيعة التعامل مع الحرية باعتبارها عملية تحرر، ومجرد إمكانية، قد تتحقق وقد لا تتحقق اعتماداً على فعل الفرد وممارسة الحرية، فالحرية علة ومعلول، مقدمة ونتيجة، والفعل الحر هو الذى يحول الحرية من الإمكان إلى الواقع، ومن الفرض إلى الصدق، ومن الخوف والتهيب، والتردد، إلى الثقة والاطمئنان.

ونظراً إلى أن الموقف الحضارى هو الذى يفرض نفسه، فإنه يمكن - كالعادة - بيان الموضوع فى الموروث القديم بكل اتجاهاته واختياراته بين الجبر وخلق الأفعال والكسب، ثم فى الوافد الغربى، أيضاً، بين الجبر الطبيعى والحرية العقلية، ثم فى الواقع المعاش، كتجربة إنسانية عامة بين الجبر الاجتماعى والسياسى والقانونى، والأمل فى التحرر منها. ومع ذلك تفرض البنية نفسها على التاريخ، فالجبر والحرية والتحرر واحد فى التراثين، الموروث والوافد. فالبنية هى

الأساس، والتاريخ تحقق لها في الموروث والوافد والواقع، على حد سواء، ووحدة البنية وتعدد الحضارات أولى من تكرار البنية بتكرار الحضارات.

في هذا الكتاب، تجمعت أبرز أفكار الفلاسفة، في مسألة الحرية، عبر قرون من التفكير المتنوع من حيث النظر والاتجاه، إضافة إلى ما جاء من مراجعة غنية، تسهم في إثارة النقاش، وتدفع بإشكالية الحرية إلى حيِّز التأمل والفعل والموقف.

■

فلسفة المثل الشعبي

محمد إبراهيم أبوسنة

القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٩، ١٥٢ صفحة



حينما صدر هذا الكتاب في أواخر الستينيات كان بمثابة نقلة جديدة في قراءة مفهوم (المثل). اقترابا من منابع الدراسات الشعبية وبداياتها الأصلية يكتفي الشاعر محمد إبراهيم أبو سنة بالكتابة عن فلسفة المثل الشعبي بوجه عام. وهو بذلك قد منح الدارسين خلفية ضوئية مستنيرة تمكنهم من إعادة النظر في تراث المثل الشعبي من وجهات نظر متعددة.

■

فهم القرآن الحكيم
التفسير الواضح حسب ترتيب النزول (القسم الثالث)

محمد عابد الجابري

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩، ٤٣٠ صفحة



يختتم المفكر العربي الكبير الدكتور محمد عابد الجابري، في هذا الكتاب القسم الثالث، مشروع كتابه التفسير القرآني: فهم القرآن الحكيم - التفسير الواضح حسب ترتيب النزول.

يعكس هذا العمل الضخم، في مجمله، النتيجة العامة والعملية التي خرج بها المؤلف من مصاحبة التفاسير الموجودة، وهي أن المكتبة العربية - الإسلامية تفتقر إلى تفسير يستفيد في عملية «الفهم» من جميع التفاسير السابقة.

والمؤلف، في سبيل ذلك، يقوم ببناء التفسير القرآني على أساس ترتيب النزول، ليس فقط على مستوى مسار «الكون والتكوين»، وما يمكن أن نعبِّر عنه بـ «مسار التنزيل»، بل أيضا على مستوى مسيرة الدعوة المحمدية والسيرة النبوية.

ويرى المؤلف أن القرآن الكريم نزل منجماً، وخلال أزيد من عشرين سنة، وأن تسلسل سوره - حسب ترتيب النزول - يباطنه تسلسل منطقي، وبالتالي فإن الرجوع إلى وقائع السيرة جعلته يكتشف أن ذلك المنطق الذي يباطن تسلسل السور، داخل كل مجموعة، يتطابق في مضمونه مع تسلسل هذه الوقائع، الشيء الذي يتبين منه بوضوح، أن مسار التنزيل مساوق فعلاً لمسيرة الدعوة.

ويسلك المؤلف طريقة في «الإفهام» ألصق بالطريقة التي تعتمد اليوم في الكتابة، إذ شكل استعمال «علامات الإفهام» جزءاً أساسياً في بسط الوضوح لهذا المشروع في التفسير.

يضم القسم الثالث، والأخير، أربعاً وعشرين سورة، صنفها المؤلف، كلها، ضمن القرآن المدني، وهي تختلف طولاً وقصراً، وتتناول موضوعات مختلفة، ظرفية في الغالب، ومن هنا كان ترتيبها يخضع، غالباً - لتواريخ الأحداث التي تتحدث عنها.

إنه مشروع جليل، حيث الشعور بالتوفيق يغمر المؤلف فيما سعى إليه، في قراءة القرآن الكريم بالسيرة النبوية، وقراءة السيرة بالقرآن، وقد مكنته هذه القراءة المزدوجة من التعرف على العلاقة الحميمة بين الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) والقرآن الحكيم.

■

العولمة

المفاهيم الأساسية

تحرير: أنابيل موني وبيتسي إيفانز

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩، ٣٦٧ صفحة



يرتبط مفهوم العولمة، بحسب معظم الأبحاث، بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية... إلخ. إلا أن هذا الموضوع لايزال أمراً متنازعاً عليه، لذلك حاول هذا الكتاب تعريف بعض المصطلحات الأساسية والمفاهيم الخاصة في مجال العولمة وتحديد المعالم الرئيسية للمناقشات والمناظرات المركزية التي يثيرها مختلف الدارسين.

فهذا الكتاب يُعتبر نقطة انطلاق إلى عالم العولمة بكل ما فيه من مصطلحات ومدخلات تتيح للقارئ إمكانية التعرف على مصطلحات العولمة وطرق استخداماتها المختلفة.

■

فوائح الجمال وفواتح الجلال

تأليف: نجم الدين كُبرى

تحقيق: يوسف زيدان

القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٩، ٢٣٨ صفحة



نجم الدين كبرى الصوفي الفارسي المولود عام ٥٤٠ هجرية، هو واحد من الشخصيات الصوفية الأخاذة في تاريخ الإسلام.. تجول بين بلاد إسلامية عديدة، وتعلم على يد كبار شيوخ الصوفية حتى أصبح واحدا منهم. تعدد تلاميذه وتوزعوا في مختلف الأقطار، وتنوع إنتاجه فشمل الرسالة والقصيدة والكتاب، وظل نموذجاً للصوفي المجاهد، حتى استشهد على يد التتار عام ٦١٨ هجرية.

وكتابه فوائح الجمال مخطوطة صوفية نادرة تقدم سيرة صاحبها الذاتية، ورحلته في مدارج السالكين إلى الحقيقة، بما فيها من رؤى وتصورات ومعاينات، تمثل درساً عميقاً للمريد، وخبرة كاشفة لمعاني الإشراق الدقيقة. وقد سبقها المحقق الدكتور يوسف زيدان بدراسة حول نجم الدين كبرى تتناول عصره ومدرسته الصوفية، وأبرز شيوخه وتلاميذه ومؤلفاته.

يوسف زيدان كاتب وباحث متخصص في التراث العربي والمخطوطات، ولد بسوهاج جنوبي مصر عام ١٩٥٨. قاربت مؤلفاته وأبحاثه العلمية الخمسين كتابا والثمانين بحثاً في الفكر الإسلامي، والتصوف، وتاريخ الطب والعلوم عند العرب، وفهرسة المكتبات.

■

أزمة برسيم

ماهر ميلاد

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩، ١٧٦ صفحة



هذه مسرحية لكاتب غزير الإنتاج، مثلت مسرحياته في فرق الثقافة الجماهيرية والجامعات والشركات، بالإضافة إلى المسرح الخاص، حيث تتصف شخصياته باللباقة وخفة الظل والفكاهة المرة والذكاء والفصاحة والدهاء والمكر، والسخرية من الحكام، معليا كلمة الإنسان البسيط والمواطن الكادح الفقير المقهور، الذي يعيش في مجتمع قاس غليظ شرير، سيطر عليه العفن والفساد والرشوة والجبروت.

نحن بإزاء كاتب يمكن أن يقال عنه إنه يتمتع بفكر ثاقب وبصيرة نافذة، وبجملة حوار بصيرة خفيفة، تحمل قدراً من خفة الظل والفكاهة العميقة.

■

وجوه عربية وإسلامية

حلمي محمد القاعود

القاهرة: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨، ١٥٦ صفحة



هذه صفحات تتناول بعض الوجوه العربية والإسلامية التي أثرت في الواقع العربي والإسلامي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ورصدت بعض ملامحها وسماتها عن قرب غالبا، أو من بعيد في أحيان قليلة، ورأيت في معظمها إيجابيات يجب أن تتعرف عليها الأجيال الجديدة، كما رأيت في بعضها بعض السلبيات التي يجب الحذر منها..

لقد سجلت هذه الملامح غالبا في وداع أصحابها، وهم ذاهبون إلى دار الخلود، وسجلت بعضها تحية لهم في دار الفناء، وفي كل الأحوال فهم يستحقون منا أكثر من الكلمات، خاصة أولئك الذين باعوا أنفسهم شهادة لله وقرباناً، وكانوا في حياتهم مثالاً للعطاء الخالص لوجه الله الكريم، ودفاعاً عن الإسلام والعروبة والوطن.. ومع ذلك أهملهم الإعلام الرسمي والثقافة الرسمية!

قد يرى القارئ الكريم أن هذه الصفحات لم تتضمن هذا الوجه أو ذاك، ولكنني بإذنه تعالى في سبيل نشر صفحات أخرى لم أستطع إدراجها هنا.

لقد توخيت التركيز على أبرز الملامح لأصحاب الوجوه، مما يعني أن هنالك ملامح أخرى تحتاج إلى معالجة، وميدانها هو الدراسات المتخصصة والتي تختلف عن هذه الصفحات، وغايتها في تقديم المعلومة المركزة والملمح الأساسي.

وأسأل الله أن ينفع بما كتبت، وأن يوفقنا إلى ما فيه الخير والصواب.. وصلى الله وسلم على نبينا الكريم وآله وأصحابه أجمعين.

■

مصر فى الحرب العالمية الأولى

تأليف: لطيفة محمد سالم
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٩، ٤٤٥ صفحة



مرجع أساسى لكل مهتم بالتاريخ المصرى الحديث، يتناول الثمن السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى والعسكرى الذى دفعته مصر أثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤- ١٩١٨، وهى فترة رغم قصرها ستظل من أكثر الفترات صخبا فى التاريخ المصرى، حينها وقعت مصر بين مطرقة بريطانيا العظمى وسندان الدولة العثمانية رجل أوروبا المريض، كما تشكلت ملامح واضحة ومكتملة لحركة وطنية صاعدة تستطيع تنظيم المصريين والمطالبة بحقوقهم داخليا وخارجيا. تتبعت المؤلفة د. لطيفة محمد سالم، كل هذا بدقة لتستعرض أهم الأحداث فى هذه الفترة المفصلية.

سنقرأ تحليلا وافيا لقصة عزل الخديو عباس حلمى الثانى، وتولية الأمير حسين كامل سلطانا على مصر، ثم اعتلاء الأمير فؤاد عرش السلطنة، ثم نهاية الحرب وتشكيل الوفد. يلقى الكتاب الضوء كذلك على أثر الحرب على الحياة الاقتصادية وأوضاع الأسواق المصرية عموما وسوق القطن خصوصا، محللا الأوضاع الاجتماعية للقوى المصرية المختلفة فى ذلك الحين، وكذا أحوال التعليم والثقافة، ومراحل نضج الحركة الوطنية التى قامت على أكتافها ثورة ١٩١٩..

■

تشاو روبرتا (مجموعة قصصية)

غالية قبّانى
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩، ١٨٤ صفحة



فارت القهوة وانتشر اللون المحروق على سطح البوتاغاز الأبيض، انشغلت بمسح البن الرطب قبل أن يجف، أنجزت ذلك بجسد بدا يظهر إنهاكه ورغبته فى الجلوس.

منذ سنتين وأنا أنجز أعمال البيت بدون ملل، أفعل ذلك كأننى أطير، قبلها كنت على وشك الانهيار وقد التف حبل الضجر حول رقبتى وكاد يقتلنى، لولا أحلامى التى بدات تنتج الأحبة الهائمين. أغلق الباب صباح كل يوم خلف أحمد والأولاد، يذهبون جميعا وأبقى وحيدة أستعيد تفاصيل الليلة السابقة، أنا وهو بمفردنا، زائر الليل الفائت! لا أحد يرانا، لا الجارة الملتصقة على هسيس الأصوات فى البناية، ولا المعارف والأقارب الذين ينبعون فى الشوارع وفى كل مكان، أنا وهو بمفردنا، الرجل الذى يأتى بألف لبوس ولبوس، يتشكل بملامح جديدة من حلم لآخر، الرجل الذى أحمل به كل ليلة على شكل حلم. الغريب أننى لا أعرف حقيقة غالبية عشاقى، ليسوا من بين الأشخاص الذين التقيتهم من قبل، وقلة منهم كانوا نجوم سينما وتليفزيون يحبون بطلاتهم فى المسلسلات والأفلام برومانسية.

■

دوريات

المستقبل العربى

العدد ٣٦٢ ـ أبريل ٢٠٠٩



يتضمن العدد افتتاحية بعنوان: «العراق.. إلى أين؟» لرئيس التحرير الدكتور خير الدين حسيب، وثمانية بحوث، وهى:

١ ـ «فلسفة الحرية» لحسن حنفى.

٢ ـ «الطفرة النفطية الثالثة: قراءة أولية فى دواعى الطفرة وحجمها: حالة أقطار مجلس التعاون» لعلى خليفة الكوارى.

٣ ـ «أبعاد المضمون القومى العربى فى فكر علال الفاسى» لمحمود صالح الكروى.

٤ ـ «إشكالية الذاكرة السياسية والعدالة الانتقالية فى المغرب» لعبدالواحد بلقصرى.

٥ ـ «الاتفاقات الدولية حول الاستثمار: السياق الأفريقى نموذجا» لمحمد أوضبجى.

٦ ـ «استراتيجيات إدارة التنوع الإثنى فى السودان» لبهاء الدين مكاوى.

٧ ـ «الاستراتيجية الروسية بعد الحرب الباردة وانعكاساتها على المنطقة العربية» للمى مضر الأمارة.

٨ ـ «أطفال العراق: ماض مرعب ومستقبل مجهول (دراسة فى وفيات الأطفال ما قبل وما بعد الحرب. مقاربة سوسيولوجية)» لفراس عباس فاضل البياتى.

أما فى باب آراء ومناقشات فقد كتب كل من معن بشور عن: «الأمة العربية وتحديات العصر»، وعلى خليفة الكوارى عن «لا تقوم الديمقراطية فى ظل حكومة دينية مناقشة لرأى الأستاذ راشد الغنوشى»، ومحمود حداد عن «هل النقد مسموح فى عالم الثقافة العربية؟».

وفى العدد أيضا مقالة مهمة مترجمة للمجموعة الدولية للأزمات بعنوان: «الاضطراب المتفاقم: مخيمات اللاجئين الفلسطينيين فى لبنان».

وفى باب كتب وقراءات، مراجعتان للكتابين الآتيين: «وقع العولمة فى مجتمعات الخليج العربى: دبى والرياض أنموذجان» (بدرية البشر)، أعد المراجعة ماجد صالح السامرائى. و«لبنان والعروبة: الهوية الوطنية وتكوين الدولة» (رغيد الصلح)، أعد المراجعة مسعود ضاهر، إضافة إلى كتب عربية وأجنبية وتقارير بحثية مختارة، إعداد كابى الخورى.

وفى باب مؤتمرات تقرير عن «القمة العربية الاقتصادية والاجتماعية الكويت ١٩ ـ ٢٠ يناير ٢٠٠٩» أعده مصطفى العبد الله الكفرى.

وموجز يوميات الوحدة العربية، وببليوغرافيا الوحدة العربية وفهرس مجلة «المستقبل العربى» للسنة الحادية والثلاثين.

■

شؤون عربية

عدد ١٣٧ ربيع ٢٠٠٩



صدر مؤخرا عدد جديد من مجلة شؤون عربية يتضمن جزءا كبيرا عن غزة، به مقالات للدكتور عماد جاد بعنوان: «العدوان الإسرائيلى على قطاع غزة.. هل حققت إسرائيل أهدافها؟»، ومقال للدكتور طلال عتريسى بعنوان: «محور الممانعة: أوهام الطموح الإمبراطورى»، ومقال لماجد كيالى بعنوان: «الحركة الفلسطينية بين خنوع المفاوضين وجموح المقاومين»، ومقال للدكتور عمرو الشوبكى بعنوان: «أى حماس يريدها العرب؟».

ومواضيع أخرى منها «لماذا جاءت النتائج محدودة مقارنة بالآمال العريضة» للدكتور أحمد السيد النجار عن القمة الاقتصادية العربية، وفى الفنون العربية مقال لسليم سحاب عن المسرح الغنائى العربى.

الآداب

عدد أبريل ومايو ويونيو ٢٠٠٩



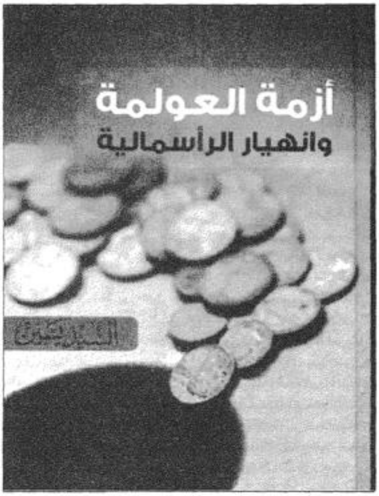
صدر العدد الجديد من مجلة الآداب يتضمن مقالا بعنوان: «مأساة مماليك مصر ومهزلة (مماليك الجمهورية) الفرنسية: رستم رضا مملوكا وشاهدا على عصر بونابرت» لفيصل جلول.

وملف عن هارولد بنتر مع مسرحيتين مترجمتين بعنوان: «مؤتمر صحفى» و«أصوات أسرة». وملف آخر عن غزة يكتب فيه خريستو المر «دعاية مذبحة: الدعاية الإسرائيلية أثناء مذبحة غزة»، ويكتب بسام أبو غزالة «مذبحة غزة فى سياق القضية الفلسطينية»، ماجد كيالى «على هامش حرب إسرائيل: أسئلة السياسة والمقاومة».

وفى باب قصائد تكتب زهرة مروة «قصيدتان»، ودآليا الصالح «أجنحة الزمن». وفى باب مذكرات «يد سهيلة: حين صدر العدد الأول» لسهيل إدريس.

■

فى فلسفة ما بعد الحداثة



أزمة العولمة وانهيار الرأسمالية
السيد يسين
القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩

■■ هل من ضرورات العولمة التى هى - من وجهة نظر التحليل الثقافى - تمثل عملية الانتقال الحضارى الكبرى من نموذج المجتمع الصناعى إلى نموذج مجتمع المعلومات العالمى، المراجعة النقدية لأبرز الأيديولوجيات المطلقة التى سادت المناخ العالمى طوال القرن العشرين؟

الإجابة عن هذا السؤال المحورى هى بنعم! وذلك لأنه إذا كان المجتمع الصناعى الذى هو ربيب الثورة الصناعية، قد نشأ وتبلور فى ظل مشروع الحداثة الغربى، فإن مجتمع المعلومات العالمى هو التعبير الأمثل عن عصر ما بعد الحداثة!

ومشروع الحداثة الغربى كان يقوم على دعائم رئيسية هى احترام الفردية، والاعتماد أساساً على العقلانية، وفتح المجال واسعاً وعريضاً أمام الحرية، والتى تعنى الحرية السياسية والفكرية والتعبيرية والتنظيمية.

وقد شهد عصر الحداثة تبلور أيديولوجيات شاملة، أبرزها الرأسمالية التى كانت تقدس مبدأ حرية السوق، وتنفى حق الدولة فى التدخل الاقتصادى، وتقصر دورها الأساسى على حفظ الأمن وحراسة الحدود!

غير أن الرأسمالية قامت منافسة لها أيديولوجية شاملة أخرى هى الماركسية، التى دعت فى تطبيقها السوفيتى بعد قيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧، إلى إلغاء الملكية الخاصة وتأميم المصانع، وقيام الدولة بمفردها دون أى مشاركة من القطاع الخاص بالمهام الإنتاجية.

وبرزت أيضاً أيديولوجيات - وإن كانت مضادة لمسار التاريخ - هى النازية والفاشية التى تم القضاء عليها فى الحرب العالمية الثانية.

ومعنى ذلك أن الصراع الأيديولوجى المحتدم والذى دار طوال القرن العشرين انحصر بين الرأسمالية والماركسية، وكانت المشكلة الكبرى فى هذه الأيديولوجيات التى استقطب كل منها عديداً من الدول، أن كل واحدة منهما كانت تدعى أنها تمتلك الحقيقة المطلقة! غير أن الانهيار المدوى للاتحاد السوفيتى حوالى عام ١٩٩٣، أدى فى الواقع إلى خلو الساحة الأيديولوجية إلا من الرأسمالية.

وهذه الرأسمالية هى التى تغنى بها «فرانسيس فوكوياما» فى كتابه الشهير «نهاية التاريخ» والذى زعم فيه أن انتصار الرأسمالية سيجعلها هى عقيدة الإنسانية إلى أبد الأبدين!

والواقع أن إحدى الدعوات الرئيسية لفلسفة ما بعد الحداثة هى سقوط الأيديولوجيات الشمولية مثل الماركسية والرأسمالية، والتى كانت بادعائها امتلاك الحقيقة المطلقة ليست سوى أنساق فكرية مغلقة آن أوان سقوطها، بعد أن قامت على ثنائيات زائفة، من قبيل إما الرأسمالية أو الماركسية، إما القطاع الخاص أو القطاع العام، إما العلمانية أو الدين!

ولذلك تدعو ما بعد الحداثة إلى إبداع أنساق فكرية مفتوحة، قادرة على التأليف الخلاق بين متغيرات كان يظن من قبل أنها متناقضة، ولا يمكن أن تتكامل وتتفاعل فى كل واحد.

ومعنى ذلك أن المراجعة الأيديولوجية ارتبطت بنهاية الحداثة وبداية عصر العولمة.

غير أن عصر العولمة ارتبط أيضاً بالثورة الاتصالية الكبرى وفى قلبها شبكة الإنترنت والتى جعلت العالم كله متصلاً: لقد أدت هذه الثورة إلى نشوء مجتمع جديد هو المجتمع الافتراضى Vitrual Society الذى أصبح يزاحم المجتمع الواقعى فى تأثيره الطاغى على أنساق القيم، واتجاهات الناس، والسلوك الاجتماعى.

وأخذت الديمقراطية وضعاً جديداً بعد أن ظهرت أنماط مستحدثة لها مثل الديمقراطية الإلكترونية، بالإضافة إلى ظهور أنواع جديدة من الخطابات السياسية والاجتماعية والثقافية أخذت شكل المدونات Blogs وأصبح من يحررونها يطلق عليهم المدونون Blogers، ومن هنا كان لابد لى - باعتبارى مهتماً بتطبيق منهجية التحليل الثقافى - من التحليل السوسيولوجى المتعمق للمدونات والمدونين.

ونظراً لتتبعى تحولات المجتمع العالمى منذ نهاية الحرب الباردة، وزوال النظام الثنائى القطبية فى العلاقات الدولية وبروز النظام الأحادى القطبية، أدركنا أن عصر العولمة يفجر من المشكلات أكثر مما يقدم من الحلول!

ومن بين هذه المشكلات أزمة السياسة التى من تجلياتها الانتقاص من سيادة الدولة القومية، وبروز حق التدخل السياسى، والعجز عن مواجهة ظاهرة الإرهاب العالمى.

وإذا كنا أكدنا منذ زمن على أن عصر العولمة سيشهد مراجعات أيديولوجية شاملة، وأن عصر الهيمنة الأمريكية لا يمكن أن يستمر إلى الأبد كما يظن المحافظون الجدد فى إدارة الرئيس بوش، وأن الرأسمالية المتوحشة من المستحيل أن تكون هى المذهب السائد والعقيدة المسيطرة التى تؤثر سلباً على مصادر البشر فى القرن الحادى والعشرين، إلا أن دهاء التاريخ شاء أن يثبت - فى الواقع وليس فى مجال التنظير - أن نبوءاتنا التى صغناها منذ سنوات فى كتبنا السابقة، قد تحققت، وذلك بوقوع الأزمة المالية الكبرى فى الولايات المتحدة الأمريكية والتى هى قلب العالم الرأسمالى.

انهار النموذج الرأسمالى بصورته التقليدية التى كانت تزيح الدولة عن المجال الاقتصادى، وبصورته المعولمة التى أطلقت سراح الرأسمالية المتوحشة على حساب شعوب العالم فى البلاد النامية خصوصاً.

وإذا كان التدخل العسكرى الروسى فى جورجيا أدى عملياً إلى إسقاط نظام الهيمنة الأمريكية المطلقة، فإن سقوط النموذج الرأسمالى الأمريكى مؤشر على نهاية عصر وبداية عصر جديد.

وليس معنى ذلك أن الرأسمالية ستنتهى إلى الأبد، ولكن من المؤكد أن مراجعة أيديولوجية بالغة العمق لابد أن تنطلق من الآن لصياغة مذهب اقتصادى عالمى جديد، يقوم على كفالة الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية معاً. مذهب لا يطلق العنان لقوى السوق، ولا ينفى دور الدولة الاقتصادى.

فقد ثبت بعد التدخل الجذرى للدولة الأمريكية، والذى يتمثل فى ضخ ٧٠٠ تريليون دولار لإنقاذ المؤسسات الرأسمالية، وتفادى الانهيار الكامل للاقتصاد الأمريكى وإعلان إفلاسه، أن للدولة دوراً فى الرقابة المالية والاقتصادية من خلال نظام جديد ينبغى إرساء قواعده.

حول هذه الموضوعات الحيوية والبالغة الأهمية، تدور أبحاث كتابنا الذى ينقسم إلى أربعة أقسام مترابطة:

القسم الأول: مراجعة العولمة.

القسم الثانى: الديمقراطية بين المجتمع الواقعى والفضاء المعلوماتى.

القسم الثالث: أزمة السياسة فى عصر العولمة.

القسم الرابع: سقوط الهيمنة العالمية.

السيد يسين

32 ways to Be A champion in Business

اثنتان وثلاثون طريقة لتكون بطلا فى عالم الأعمال

Earvan Magic Johnson
Crown Business"2008" 320 pp $17.13



كما أحرز نجاحاً وشهرة امتدت آثارهما على مستوى العالم فى مجال كرة السلة حقق اللاعب الموهوب إرفين ماجيك جونسون نجاحا منقطع النظير فى مجال الأعمال.

فمن خلال منصبه كمالك ومدير تنفيذى لمؤسسات «ماجيك جونسون» ساعد فى نشأة ونمو العديد من المشروعات التجارية التى تساعد فى نمو وازدهار المجتمع المدنى من خلال إحداث نوع من التفاعل بين تلك المشروعات الصغيرة والمشروعات الضخمة ذات الشهرة العالمية ونالت مؤسسته كما نال هو شخصياً المركز الأول فى خدمة المجتمع المدنى من خلال إنعاش تلك المشروعات.

ويعود ولع ماجيك جونسون بمجال الأعمال إلى طفولته المبكرة حيث كان شديد الإعجاب بوالده وبغيره من صغار المقاولين الذين يعملون فى مجتمع الغرب الأوسط لأمريكا والذين كانوا يوفرون فرص العمل للعديدين. وشاهدهم جونسون كما عمل معهم وكانت تلك هى بداية شغفه بمجال الأعمال الذى برع فيه إلى جانب شهرته كنجم فى اتحاد كرة السلة الأمريكى وساعدته شهرته وازدهار صيته فى كرة السلة على تنفيذ حلمه فى مجال الأعمال.

قام جونسون بإحداث نقلة كبيرة فى حياته فقد حول نفسه من لاعب عظيم بكرة السلة إلى رجل أعمال أعظم وذلك بالعمل الجاد والقدرة الرائعة على ملاحقة الفرص واقتناصها. يؤكد جونسون أن المجتمعات المدنية المأهولة بالسكان تعد من أكثر الأماكن التى تترعرع فيها الأعمال التجارية وتزدهر. وكانت مشاركة جونسون فى العديد من الأعمال والمشروعات ذات الماركات المشهورة مثل «ستار باكس» و«تى. جى.آى. فرايديز» سببا فى إعطاء دفعة اقتصادية قوية للمشروعات الصغيرة. قدم جونسون تجربته الناجحة فى مجال الأعمال من خلال كتابه الذى يعرض فيه اثنتين وثلاثين طريقة لإحراز التفوق والبطولة فى عالم الأعمال.

■

The gone fishing portfolio

انتشال ملف الأوراق الضائع

Alexander Green
Wiley"2008" 256 pp $17.44



كيف تكتسب الحكمة وتحقق الثراء وتقتحم الحياة بشكل ناجح ؟ كيف تحقق التوازن بين المخاطر والأرباح عندما تدير أعمالك؟ كيف تصل إلى أفضل الطرق لاستثمار أموالك؟ لن يستغرق منك الأمر أكثر من عشرين دقيقة سنويا لتعيد فيها ترتيب ملف أوراقك وتعيد صياغة خطة أعمالك. هذا مايقدمه الكسندر جرين فى كتابه، انتشال ملف الأوراق الضائع، الذى يتكون من ثلاثة عشر فصلا أوضح من خلالها أن أفضل من يستثمر أموالك هو «أنت» ولذلك فباعتمادك على نفسك سوف تحصل على أعلى عائد من أموالك ويعرض المؤلف فى هذا الكتاب نصائح كبار المستثمرين على مستوى العالم أمثال بيتر لينش، جون تمبلتون، ووارين بافيت، كما يربط بين الادخار- وهو ما يتم توفيره من مال للاستفادة منه عند بلوغ سن التقاعد - وبين الاستثمار، فبدون الأول لن يكون هناك معنى للحديث عن الثانى . ويقدم المؤلف تكنيك «ذكاء إدارة المخاطر» فانت لن تستطيع تجنب المخاطر ولكنك تستطيع التعامل معها بحيطة وذكاء ويعرض فى ذلك أراء بينيامين جراهام الأب الروحى لنظرية القيمة الاستثمارية. ويقدم المؤلف نصائح للقارئ خاصة بالتعامل فى البورصة الأمريكية وذلك فى فصل بعنوان «لا تشتر ما يباع فى وول ستريت» موضحا أفضل الطرق لشراء الأسهم والسندات وتحقيق أكبر فائدة مع تجنب الخسائر . ويذكر المؤلف أن الناس جميعا قد يحتاجون إلى البنوك وشركات التأمين فى بعض الخدمات المالية ولكن السؤال الذى يجب ان نسأله لأنفسنا هو هل نحن نحتاج إليهم لإدارة أموالنا؟ الإجابة هى النفى فالتسلح بمعرفة أساسيات الإستثمار يتيح للجميع تشغيل اموالهم بأنفسهم وهذه هى الإستراتيجية التى قام عليها الكتاب.

■

Michelle: A Biography

ميشيل: السيرة الذاتية

By Liza Mundy
Simon and Schuster" 2008" 224 p"$16.50



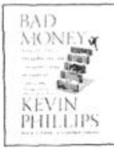
قد تكون مرحة وذات حس فكاهى لاذع، قدتكون عاطفية ودافئة، ربما هى امرأة لحوحة ومسيطرة، أسئلة عديدة وضعتها ليزا ماندى صاحبة كتاب ميشيل السيرة الذاتية وبحثت عن إجاباتها من أجل اقتحام شخصية تلك المرأة حديثة العهد بالأضواء سيدة أمريكا الأولى، ترى من تكون تلك السيدة التى يلقبها أوباما بالزعيمة ؟ قدمت المؤلفة وهى محررة بالواشنطون بوست لوحة فنية معبرة تماما وكاشفة عن شخصية ميشيل أوباما واصطحبت القارئ فى رحلة داخل الحياة الخاصة لها بدءا من زواجها بالرئيس الأمريكى باراك أوباما باعتبارهما الآن اشهر ثنائى على الساحة السياسية. أوضحت ماندى كيف يتبادل الزوجان المجاملات وسلطت الضوء على زواج بطلته زوجة يعرف عنها شدة النظام والإتقان فى العمل وصاحبة فلسفة براجماتية، امرأة عملية وذات شخصية مسيطرة والبطل السياسى الساحر الذى يجيد اختراق المشاعر والاستحواذ عليها ولكنه يتعثر فى جواربه كما ذكرت المؤلفة. وصفت المؤلفة العلاقة بين ميشيل وأوباما بأنهما كالعديد من الأزواج تتميز علاقتهما بأبعاد كثيرة فالاثنان يعملان فى نفس التخصص ولديهما طفلتان . ومما ذكرته المؤلفة عن ميشيل غضبها من انشغال أوباما فى البداية بالعمل السياسى لدرجة أنه بذل مجهودا لإقناعها بضرورة تدعيمه فى حملته الانتخابية للصعود على السلم السياسى وقد سببت له بعض الإحباطات فى هذا الصدد. تحمل قصة حياة ميشيل العديد من الإنجازات غير العادية عانت فيها من التفرقة العنصرية والمعاملة المتدنية للسود. ونشأت فى جنوب شيكاغو لأب لا ينتمى للأغنياء ولكنه يتمتع بعقل متفتح وبتفوقها استطاعت أن تدرس القانون فى جامعة هارفارد. بهذا العرض للسيرة الذاتية لميشيل تكون ليزا ماندى قد سلطت ضوءا ساطعا على امرأة حقا غير عادية مثل ميشيل أوباما.

■

Bad money

أموال رديئة

Kevin Philips
Penguin group,2008
239pp$17.90



كتاب يسلط ضوءا كاشفا على موضوع يشغل أذهان الجميع الآن وهو الأزمة الاقتصادية العالمية والسر وراء حالة الركود والكساد الاقتصادى، قد يكون أول ما يتبادر إلى ذهن القارئ عند قراءة عنوان هذا الكتاب هى الأموال الرديئة المرتبطة بالتجارات غير المشروعة طبقا لكل قوانين العالم كالمخدرات والرقيق الأبيض وغيرهما . ولكن كيفين فيليبس المؤلف يشير فى حقيقة الأمر إلى نوع آخر ألا وهو الأموال التى تستنزف من خلال سياسات مالية طائشة ومضللة كما يسمى الأموال المغتصبة بواسطة عوامل سياسية فاشلة يقف وراءها التسيب والإهمال والجهل وسوء النوايا بالأموال الخبيثة ويعتبرها إنتاجا مميتا هدفه تعظيم حجم ودور الرأسمالية الأمريكية من خلال العولمة. كيفين فيليبس أمريكى الجنسية وهو أحد صناع الاستراتيجيات السابقين بالبيت الأبيض وله مكانة كبيرة ككاتب ومحاضر طوال ثلاثين عاما كتب لمجلتى هاربرز والتايم، تناول فى كتابه من خلال سبعة فصول موضوع النزيف المالى الذى أطلق عليه الأموال الرديئة ويقول المؤلف فى ذلك أن الأموال التى يتم اكتسابها من خلال عمليات الإنتاج الصناعى المباشرة لا يمكن أن تتجاوز أكثر من أربعة وأربعين بالمائة من إجمالى الأرباح أما الباقى فهو نتيجة نشاطات مالية وأعمال سمسرة ووساطة لا علاقة لها بمنظومة الإنتاج والتسويق الرئيسية. ويفرد فصلا كاملا عن الكساد العظيم، عام ١٩٣٢كما يتناول حقبة الستينيات التى عاصرت حرب فيتنام ومما لا يعرفه الكثيرون عن هذه الفترة ظهور القروض البنكية الكبيرة وكروت الائتمان وارتفاع قيمة الرهنيات ، وفى السبعينيات حدث الارتفاع الدرامى فى أسعار النفط وفى الخفاء زادت بشكل مرعب تكلفة العقارات وكان عام١٩٨٠ هو الأسوأ فى الاستثمار ذى المردود الملموس داخل المصانع ومراكز الإنتاج وأيضا على مستوى السيولة النقدية وتراكمها.

ويؤكد أن الصين أصبحت تشكل تهديدا كما أن البترول الذى دفع الأمريكيون الغالى والرخيص للسيطرة عليه فى العراق والشرق الأوسط يعطى

مدخلا لروسيا لممارسة التحرك والضغط باستخدام ماتبقى من تركة الاتحاد السوفيتي، والهند التي تتنامى بسرعة وتشكل خطرا قادما على الطريق وإيران ووسط آسيا كلها عوامل تمثل تهديدا والضباب ينتشر ويقلل من وضوح الرؤية وذلك يحتم ضرورة أخذ كل هذه العوامل الهامة في الحسبان.

■

The E.F.T.Manual
دليل أساليب التحرر العاطفي

Gary kraig
Energy Psychology press"2008"
209pp $10.17



عندما يقدم لنا عالم أو طبيب متخصص في علم النفس كتابا يقتحم به اعماق هذا العلم فهذا هو المتوقع ولكن عندما يقوم بهذا العمل مهندس فهذا هو الجديد. المؤلف جاري كريج أستاذ الهندسة بجامعة هارفارد ألف كتابا استطاع من خلاله أن يبلور العلاقة الرابطة بين الهندسة والطب النفسي وأن يسلط ضوءا ساطعا على طبيعة البناء الهندسي لجسم الإنسان وتأثيره على الحالة النفسية له. يرتبط ذلك بالتطور الهائل في علم الهندسة الطبية والذي جعل تشخيص العديد من الأمراض ومنها النفسية مرتبطا بوجهة نظر هندسية وهذا يمنح فعالية في السيطرة على هذه الأمراض. الكتاب يقدم طريقة للعلاج باستخدام الطاقة النفسية وهي تعتمد على تقنية للعلاج مشابهة لأسلوب العلاج بالإبر الصينية. يذكر جاري أن السبب الأساسي في المشاعر السلبية هو حدوث خلل في نظام الطاقة الجسدي، وأن جسم الإنسان يحمل شحنات كهربية هي أساس عمل الجهاز العصبي ووسيلة القيام بكافة العمليات الحيوية وهذا النظام الكهربي، من وجهة النظر الهندسية، يمكن قياسه ومراقبته عن طريق أجهزة رسم القلب ورسم المخ وغيرها من الأجهزة التي تقيس النشاط الكهربي. ويؤكد جاري أن تعديل الخلل في نظام الطاقة داخل الجسم يمكن أن يعالج العديد من الأمراض النفسية ويتم ذلك بالطرق والربت على مناطق محددة في الجسم حيث تتواجد نهايات الأطراف العصبية ويؤدي ذلك إلى تحسن سريع. يقدم المؤلف الطريقة التي من خلالها نستطيع تطبيق أسلوب التحرر العاطفي كعلاج ويؤكد أن النجاح في هذه التقنية يعتمد على قناعة الشخص بجدوى العلاج. كتاب جاري كريج يحمل فكرا جديدا يستحق النظر فيه، هو حقا جدير بالقراءة.

■

The Key: the missing secret for attracting anything you want
المفتاح: السر الخفي لنيل ما تريد

Joe Vitale
John Wiley and sons,Inc 2008
204pp $16.47



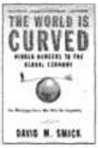
العديد من العقبات النفسية تختبئ داخل الإنسان تعيقه عن التقدم وتسحبه إلى الوراء تسمى مضادات الإنجاز وهي دوافع داخلية غير واعية لها القدرة على منع الإنسان من تحقيق أهدافه وإنجاز ما يريد. هذا هو الخط الرئيسي لكتاب المفتاح للمؤلف جو فيتال الذي يقدم من خلاله عشرة طرق لإصلاح هذا الوضع وإعادة تنظيم المعتقدات المرتبطة بالوعي واللاوعي لمعالجة حالة الإجهاد النفسي التي قد تعوق الإنجاز. يقول المؤلف أن مفتاح النجاح موجود داخل صفحات هذا الكتاب ولكنه أيضا موجود داخل كل إنسان،الخطوة الأولى على طريق النجاح هي الاعتراف أمام النفس أولا بالفشل في إنجاز شيء ما أو تحقيق هدف معين ومحاولة معرفة سبب هذا الفشل. ففي حقيقة الأمر إن مفردات حياة أي إنسان هي من صنع يديه وحده سواء الأشياء الرديئة أم الجيدة ، السر الخفي بناء على ذلك هو مايسمى بوضوح الرؤية، حيث لابد من توفر رؤية واضحة للفرد لذاته فهذا يساعده على تحريرها من قيودها ويخلصها من عوامل الفشل وعندئذ يحدث الانسجام بين العقل الباطن والعقل الواعي. يرى جو أن النجاح هو حاصل جمع مجموعة من الأفعال الصغيرة المتكررة يوما بعد يوم. ومن هذا المنظور فإن «الفعل» عامل مهم لتحويل الرغبات الداخلية إلى خطوات للنجاح، فإذا أحسست بدافع داخلي لعمل شيء ما كشراء كتاب أو حضور ندوة أو Act on it إجراء مكالمة هامة فافعل الآن

ولا تؤجل هذا الفعل وينصح المؤلف القارئ بأن يحدد الأهداف التي نوى إنجازها ولم يفعل - مثل التوقف عن التدخين أو اتباع نظام غذائي لاكتساب الرشاقة - بسبب النسيان أو التكاسل أو التردد وهي كلها مضادات للإنجاز ثم يأخذ قرارا جادا بتنفيذ تلك الأهداف المؤجلة ويبدأ فورا في التنفيذ. لذا فوضوح الرؤية هو مفتاح النجاح الحقيقي. كتاب جو فيتال حقا كتاب قيم ويقدم بداية عملية للنجاح.

■

The World is Curved
العالم منحنٍ

David Smick
Portfolio Penguin group 2008
305p p$17.79



بلا شك أن العالم منحنٍ حتى أن أي قمر صناعي يطير فوق الأرض لا يستطيع أن يرى أكثر من النصف المواجه له من سطح الكوكب أما الباقي فإنه يقبع في الخفاء. ما قام به دافيد سميك مؤلف هذا الكتاب هو اقتحام النصف الخفي من سطح الكوكب ولكن في مجال أسواق المال والتجارة وسجل حقائق هامة لايمكن تجاهلها وطرح أسئلة عديدة لابد من العمل على إيجاد إجابات لها برغم صعوبة ذلك في ظل الحجم الضخم والتداخلات المتشعبة لسوق المال والتجارة في كل أنحاء العالم. يذكر دافيد سميك أن مفردات الإنتاج الصناعي الضخمة وثورة التكنولوجيا الرقمية قامت بتقريب المسافات بين الدول والأسواق المختلفة ووضعت كل الأطراف على طاولة واحدة هي طاولة التجارة العالمية وانتجت عالما يبدو في ظاهره متقاربا على غير الحقيقة فهذا القرب الزماني والمكاني استبدل الأسواق المالية، الصغيرة والكبيرة، بسوق واحد عملاق مساحات الحركة فيه أكبر والمساهمات التمويلية أعلى من ذي قبل وهذا يصعب مجال الرؤية. يطالب المؤلف الصين بحسن إدارة عملتها وعملياتها المالية المرتبطة ارتباطا وثيقا بمقدرات التجارة العالمية كما يذكر أن الكثير من المدخرات المالية المتراكمة في حوزة أنظمة سياسية شمولية وغير ديموقراطية بعضها يتبع الصين والبعض الآخر ينتمي إلى مجموعة الدول المنتجة للنفط بما فيها روسيا. ويقدم المؤلف تفسيرا للانتشار الرهيب للمنتجات الصينية وغزوها الأسواق العالمية على مستوى كافة الأصعدة بدءا من السلع الرخيصة الرديئة ووصولا لأعلى مستويات الأسعار والتكنولوجيا. خطر آخر يتمثل في الولايات المتحدة الأمريكية وكراهية بقية دول العالم لازدواجيتها السياسية والمالية. ويقول سميك أن العالم الآن يطرح نفس الأسئلة التي كانت تطرح بين عامي ١٨٧٠ و١٩١٤ حينما أصبح العالم مشحونا لخوض غمار حرب عالمية، حيث دمرت قواعد التجارة العالمية مما أوجد إحباطا عاما ساعد في نشوب الحرب. الكتاب يعتبر صيحة تحذيرية من المؤلف يقدمها ويوجهها إلى قادة العالم لكي يتم تجاوز الكارثة التي تهدد العالم والتي تحتاج إلى أجندة فعالة وذكية وقيادة حكيمة.

■

The Vaccine Book
الدليل الطبي للتطعيمات

Robert W.Sears
Little Brown and company
Hachette book group2007,278p
P11.19



الدليل الطبي الشامل لطب الأطفال كتاب يتناول قضية هي شديدة الأهمية للآباء والأمهات وهي مسألة تحصين الأطفال ضد الأمراض. قدم د. روبرت دابليو سيرز مؤلف الكتاب الحاصل على البورد الأمريكي في طب الأطفال التطعيمات الواجب إعطاؤها للأطفال طبقا لما حددته الأكاديمية الأمريكية لطب الأطفال،الكتاب لا ينتمي إلى الكتب ذات الطابع العلمي البحت ولكنه يقدم المعلومات بشكل مبسط حول تناول الأطفال للأمصال للوقاية من الأمراض في وقت بدا يكثر فيه الحديث عن جدوى ذلك الإجراء ومدى خطورته حيث ارتبط ذلك بظهور الآثار الجانبية على بعض الأطفال، يقدم المؤلف للوالدين الطريقة العلمية المفيدة في شأن القرارات المتعلقة بصحة الطفل والواجب اتخاذها في التوقيت الصحيح وينصح بتجنب إعطاء الطفل أي نوع من الأمصال في حالة خضوعه للعلاج بمثبطات المناعة مثل مشتقات الكورتيزون فقد يكون ذلك سببا لظهور أعراض المرض على الطفل بدلا من حمايته منه.ينصح أيضا بتجنب إعطاء الطفل أية عقاقير في حالة تطعيمه في خلال النصف ساعة الأولى من الحقن لضمان تحقيق الفعالية.

■

أوباما والعالم الإسلامي

جون إسبوزيتو
John L. Esposito



■■ بعد فشل امتد لعقود من الزمن لعملية السلام الإسرائيلية-الفلسطينية، والتى تجمدت عبر ثمانى سنوات من سياسات جورج دبليو بوش التى سببت نفورا عالميا من المسلمين، تحرك الرئيس باراك أوباما بسرعة ليتنصل من تركة بوش معلنا: «إلى العالم الإسلامى، نحن نسعى إلى طريق جديد للأمام على أساس المصلحة المشتركة والاحترام المتبادل». وقد أكد أوباما على الاستعداد «للاستماع» بدلا من الإملاء، وعن رغبته فى استعادة «نفس الاحترام والشراكة التى كانت بين أمريكا والعالم الإسلامى منذ ما لا يزيد عن عشرين أو ثلاثين عاما». ولكن هل سيكون هناك نهج جديد وتحول هام فى السياسة الخارجية الأمريكية؟

حتى الآن، مازال مسلك أوباما غير واضح. فقد أعلن عن إغلاق جوانتانامو وأرسل السيناتور السابق جورج ميتشيل George Mitchell كمبعوث خاص إلى الشرق الأوسط. ومع ذلك فسرعان ما توازن مع تلك القرارات رد فعل الإدارة تجاه العاصفة النارية والحملة الشعواء من الاتهامات الواهية إزاء تعيين شاس فريمان Chas Freeman السفير الأمريكى السابق لدى المملكة العربية السعودية ومساعد وزير الدفاع رئيسا لمجلس الاستخبارات القومى. لقد هاجمت جماعات الضغط الإسرائيلية - بما فيها إيباك (لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية) - ومؤيديها فى الكونجرس بشدة سمعة فريمان الدبلوماسى البارز السابق والذى انتقد بشدة أحيانا سياسات إسرائيل فى فلسطين. كان يقود الهجوم ستيفين روزين Steven Rosen المسئول السابق بإيباك والمعين مؤخرا ليشغل فرع واشنطون لمنتدى دانيال بايبس للشرق الأوسط Daniel Pipes' Middle East Forum. ويتعرض روزين نفسه حاليا لاتهام بكشف أسرار لإسرائيل. وقد حذت حذوه مطبوعات مثل «ناشيونال ريفيو» و«وول ستريت جورنال» و«ويكلى ستاندارد» والصفحة الافتتاحية لـ «واشنطون بوست» وأعضاء فى الكونجرس.

فى النهاية سحب شاس فريمان ترشيحه. وقبل الرئيس أوباما استقالته مفضلا ألا يواجه هجوم وسائل الإعلام؛ وقد بقى صامتا مثلما فعل أثناء الغزو الإسرائيلى والحرب على غزة. إن لتلك الوقائع دلائل أبعد كثيرا لمصداقية أوباما فى صياغة أسلوبه الجديد للعلاقات مع العالم الإسلامى. لقد نأى أوباما بنفسه - كمرشح رئاسى - عن المجتمعين العربى والإسلامى بينما خطب ود جماعات الضغط الإسرائيلية فى سعيه للحصول على أصوات اليهود الأمريكيين. وبينما أدرك الكثيرون الضرورة السياسية لموقفه أثناء حملة انتخابية حامية المنافسة، فالسؤال الحاسم اليوم هو ما إذا كان الرئيس أوباما سيتخذ الآن قرارات هامة دون الانحناء للضغوط الداخلية من القوى النافذة لأعضاء الكونجرس وفرق الضغط وجماعات المصالح؟ هل سيخاطر سياسيا ويعكس القصور التاريخى لانحياز السياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط والمنعكس مؤخرا جدا فى سياسات إدارة بوش والتأثير المفرط لجماعات الضغط الإسرائيلية والصهاينة المسيحيين المتشددين على البيت الأبيض والكونجرس وردود فعل الإدارة تجاه الغزو الإسرائيلى للبنان والغزو الأخير لغزة؟

لا يمكن الإقلال من شأن النكسة المحتملة للحرب فى غزة. ورغم أهمية إغلاق أوباما لجوانتانامو، فإن أثر ذلك فى العالمين العربى والإسلامى لا يعد شيئا بالمقارنة بسياسات أمريكا فى غزة. وقد كشف استطلاع رأى لمعهد جالوب فى أكتوبر ٢٠٠٨ قبل حرب غزة أنه بينما قد يحسن إغلاق معسكر اعتقال جوانتانامو من مواقف العالم العربى تجاه الولايات المتحدة، فإنه لا يوازى مستوى التأييد لضغوط أمريكية على إسرائيل. لقد اعتبر المشاركون فى استطلاع الرأى القضية الإسرائيلية/الفلسطينية أكثر أهمية لصورة الولايات المتحدة من إغلاق جوانتانامو. وقد ذكر عدد كبير من المواطنين فى العديد من الدول العربية (مثل تونس ومصر والمملكة العربية السعودية ولبنان - وكلها دول حليفة لأمريكا) أن نظرتهم للولايات المتحدة قد تتحسن «كثيرا جدا» إذا زاد الضغط الأمريكى على إسرائيل. ويعد الدعم غير المحدود اللاحق للرئيس بوش لإسرائيل فى حرب غزة ثم صمت مرشح الرئاسة باراك أوباما فشلا فى الاختبار.

سرعان ما سنصل إلى وقت لا يستطيع بعده الرئيس أوباما أن يقول أنه «ورث» تلك «الفوضى» - عليه أن يقود وفورا بعد أن أصبحت الأوراق بحوزته. إن وحشية الحرب فى غزة بمحصلة وفياتها غير المتناسبة (١٣٠٠ فلسطينى مقابل ١٣ إسرائيلى) والدمار الهائل لأحياء غزة وجامعاتها ومدارسها إلخ، والمحصلة الدرامية لأرواح الأبرياء من النساء والأطفال، أصبحت رمزا فى العالم العربى والعالم الإسلامى الأكبر للازدواج الأمريكى الملحوظ فى معايير ترويج الديمقراطية وحقوق الإنسان. إذا ما أرادت إدارة أوباما أن تتنصل بفعالية من إدارة بوش، فإنها سوف تحتاج لأن «تسير فى الطريق الذى تتحدث عنه». إن التزام أوباما بسياسة «جديدة» وبالـ«استماع» سوف يتطلب أن تلتقى الولايات المتحدة وتستمع وتعمل مع كافة اللاعبين الرئيسيين فى فلسطين وليس فقط فتح وإسرائيل وإنما أيضا حماس - الزعامة التى اختارها الفلسطينيون من خلال انتخابات ديمقراطية نزيهة حرة عام ٢٠٠٦.

وبنفس القدر من الأهمية، لا تستطيع إدارة أوباما متابعة نهج جديد بفعالية ما لم يقر اللاعبون الأساسيون والقوى الإقليمية بالحاجة إلى مثل هذا النهج. على القيادة الفلسطينية - بما فى ذلك حماس - أن توضح وتبين أنها أيضا على استعداد ليس فقط للتفاوض بشأن دولة فلسطينية حرة وآمنة بل أيضا للاعتراف بوجود وأمن إسرائيل. يجب أن يكون الفلسطينيون والإسرائيليون على استعداد للاعتراف بأن لكلاهما مطالب شرعية وأن الخيار العسكرى ليس حلا وأن الدبلوماسية والتفاوض هما الطريق للمستقبل. وبالنظر إلى الحقائق الحالية ونتائج الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة وحكومة نتنياهو-ليبرمان وانقسام الزعامة فى إسرائيل وفلسطين وحقائق السياسات الأمريكية، فإن طريق السلام سيكون شديد الانحدار ووعرا بما يفوق الوصف.

إن مصداقية السيناتور ميتشيل وتأثيره كوسيط سوف تعتمد إلى حد كبير على قدرة الرئيس باراك أوباما (ووزيرة الخارجية هيلارى كلينتون) على تجاوز مخاوف معظم الساسة الأمريكيين وجماعات الضغط التى تدعم السياسات الإسرائيلية المتشددة. إن السياسة الأمريكية «المستثنية لإسرائيل» والمنحازة للمصالح الإسرائيلية والتى - لذلك - فشلت فى انتهاج سياسة متوازنة، سيتوجب أن تستبدل بسياسة أكثر توازنا تضع إسرائيل فى نفس معايير الدول الأخرى فى المجتمع الدولى، بما فى ذلك الالتزام بقرارات مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة فيما يتعلق بإعادة المناطق الفلسطينية المحتلة أثناء حرب ١٩٦٧ والضم اللاحق للأراضى وبناء المستوطنات «غير الشرعية».

هل سيرتفع أوباما إلى مستوى الحدث منتهجا سياسة جديدة جريئة؟

الزمن وحده كفيل بالرد على هذا السؤال. إن الاتجاه المستقبلى لإدارة أوباما ما زال غير واضح مثل الحكومة الإسرائيلية والقيادة الفلسطينية. مما لا شك فيه أن الرئيس أوباما لديه الرغبة والرؤية والإدراك للتوجه نحو العالم الإسلامى الكبير. ولكن هل سيفعل ما لم يفعله أى رئيس أمريكى فى التاريخ المعاصر ويخاطر سياسيا لمقاومة ضغوط - وفقا لكلمات شاس فريمان - «مجموعة عقدت العزم بوضوح تام على فرض الالتزام بسياسات حكومة أجنبية، ومؤيديها فى الكونجرس؟ الزمن وحده كفيل بالرد. ■

بترتيب خاص مع الكاتب

ترجمة: عادل فتحى



بضمان
النساجون الشرقيون
Oriental Weavers
أكبر تشكيلة من السجاد اليدوي
الصوف و الحرير الايراني و الصيني و الهندي و الأفغاني:
حرير كشمير - قم - نايين - أصفهان - كاشان - شيراز - أفغاني
ZONE Advertising
OW Classics
A Division of Oriental Weavers
خدمة عملاء اليدوى
٠١٠١٦٦٠٠٦٠
• معرض مصر الجديدة ٢٢ ٦٦ ٩١٩١
• معرض البــــارون ٠١٦ ٦٦٢ ٠٠١١
• معرض مصطفى النحاس ٢٢ ٧١ ٢١٢١
• معرض الإسكندرية ٠٣٩٦ ٠٠٦ ١١